

ناجح المعمورجي

التوراة السياسية

السلطة اليهودية: أنساقها ووظائفها





المفتدين

<http://al-maktabeh.com>

ناجح المعمورجي

التوراة السياسية

السلطة اليهودية: أنساقها ووظائفها





الأهلية للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية ، عمان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمان / الأردن
e - mail : alahlia@nets.jo

التوراة السياسي
السلطة اليهودية: أنساقها ووظائفها
ناجح المعموري

الطبعة العربية الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف : زهر أبو هبيب / الأردن

ستيك سييه®

الصف الضوئي
بالتوت للخدمات المطبعة ، عمان ، هاتف ٤٦٥٧٨٦٩

**All rights reserved. No part of this book may be reproduced
in any form or by any means without the prior permission of
the publisher.**

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه ، بأي شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

الإهداء

إلى أخي العزيز الشاعر شكر حاجد الصالحى

مع اعتزازي بالوفاء الذي غمرتني به

في أيامنا الصعبة

ن.م

محتويات الكتاب

الصفحة

الموضوع

٩ الاستهلال
١٣	الباب الأول: الرثاء التوراتي
١٥ ١. الأدب في العراق القديم
٢٧ ٢. رثاء الآلهة
٣٥ ٣. مرثي الإله دوموزي / تموز
٣٩ ٤. الحداد والأثر الاجتماعي للموت
٤٥ ٥. رثاء الزوجة
٥١ ٦. رثاء أور
٥٥ ٧. المرجع التاريخي للنص
٥٩ ٨. نص رثاء أور
٨٥ ٩. شخصيات النص
٩٩ ١٠. رثاء الأصدقاء
١١١ ١١. مرثي إرميا
١١٥ ١٢. نص مرثي إرميا
١٤٥ ١٣. الأم الكرى وخسارة الأبناء

١٤ . عتبة أخيرة	١٥٣
-----------------------	-----

١٦٣ الباب الثاني

١ . تأويل النص التوراتي	١٦٥
-------------------------------	-----

٢ . الخصوبة اليهودية المسروقة	١٧٣
-------------------------------------	-----

٣ . العصا علامة رمزية	١٨١
-----------------------------	-----

٤ . العصا قراءة تأويلية	١٩٣
-------------------------------	-----

٥ . العصا رمزاً ذكورياً	١٩٥
-------------------------------	-----

٦ . عصا يهوذا رمزاً لفحولة الشيخوخة	٢١١
---	-----

الباب الثالث: ثنائية الخطاب الإسرائيلي،

٢٢٥ الهولوكوست واللغة المقدسة

١ . نافذة	٢٢٧
-----------------	-----

٢ . اللغة المقدسة	٢٣١
-------------------------	-----

٣ . العرق والجنس	٢٤٧
------------------------	-----

٤ . الهولوكوست، أو القربان الجماعي	٢٥٣
--	-----

٥ . خرافة الملايين الستة	٢٨٥
--------------------------------	-----

٦ . روايات اليهود عن الهولوكوست	٢٩١
---------------------------------------	-----

الموضوع	الصفحة
٧. رصاصه الرحمة نحو الهولو كوست	٢٩٧
٨. أكذوبة الهولو كوست	٣٠٧
٩. مساعدات الدول الغربية للكيان الصهيوني	٣١٣
١٠. الهولو كست والوعد الإلهي	٣٢٩
١١. الأصول الفكرية للاستيطان اليهودي في فلسطين	٣٣١
١٢. جذور الاستيطان اليهودي	٣٤٣
١٣. إبادة الشعب الفلسطيني	٣٥٣
١٤. إسكات التاريخ الفلسطيني	٣٥٩
المراجع	٣٧١
فهرس الأشكال والصور	٣٧٤

الاستهلال

إن دراستي للأسفار التوراتية ومحاولة الكشف عن الجانب السياسي فيها يمثل بالنسب لي مشروعاً معرفياً مهماً وسيظل مستقبلياً. والمجال السياسي، الذي تعنيه دراستي متسع جداً، ويبدأ في النصوص العراقية / والجزرية الأخرى وذوبانها في الأسفار التوراتية. لأن القصصية، واضحة في تدويب العناصر الدينية / والآلهة والعقائد / والطقوس. من أجل الشطب على الشخصية الجزرية، التي أنتجت هذا الكم الهائل من النصوص، ورسخت الكثير من العقائد، ودفعت بها إلى الديانات والحضارات الكثيرة في الشرق والعالم، لأن البنية الذهنية الجزرية وعبر تشكلاتها البنيوية العديدة، ما كانت في يوم من الأيام منغلقة وإنما منفتحة على الحضارات و الجهد الديني، وتجاوزت معه، أعطته، وأخذت منه، لكن لا يمكن لأي باحث ودارس أن يتناسى الجهد المؤسس والجدور الأولى.

لكننا لاحظنا العمدية التوراتية في التلاعب بالتراث المصري / السوري / العراقي وإعادة صياغته، وبما يوحي بخاصيته وقطيعته مع الأصول في الشرق. ومع كل الذي

مارسه الكهان ورجال الدين / والكتبة من محاولات طمس للمعالم والأصول، ظلت النصوص تومئ لمنبعها وتؤشر إلى المكان الذي صاغها وأسسها.

ولهذا، طال انشغالي بالنصوص التوراتية، وسيظل أيضاً، على الرغم من المواجهات السلفية التي أثارَت عدداً من الاتهامات ضدي، أثناء تقلب محاضراتي عن المشروع التوراتي. المشروع الذي تبلور في عملي الدراسي، بعد الاهتمام العميق بالحضارة العراقية والنصوص الأسطورية، وحصراً مشروع الثقافي / المعرفي "المسكوت عنه في ملحمة جلجامش" وكان وسيظل اهتمامي بالتوراة اهتماماً لا يتجاوز كونها مجموعة من النصوص الأدبية الأسطورية، لا تختلف عن غيرها من النصوص التي خضعت للدراسة والبحث، بعيداً، وبعيداً، عن كونها مقدسة.

وأنا مسرور لإكمالي هذا الكتاب تنفيذاً لالتزام مع الدار الأهلية للطباعة والنشر ومديرها الصديق "أحمد أبو الطوق".

وفي الختام، أتقدم بالشكر الجزيل لكل الأصدقاء الذين ساهموا بشكل وبآخر في إنجاز هذا المشروع وتوفير المصادر لي، ومتابعي أثناء التفرغ وتذليل الصعوبات التي واجهتني أثناء العمل.

ناجح المعموري

مكتبة

العراق / بابل / اتحاد الأدباء والكتاب

اكتشفنا اليوم وتعرفنا على شعوب الألف الثالث ق.م وأهمها:
شعوب ما بين النهرين، المصريون، الحثيون: تعرفنا على أمة تاريخهم، على
تفاصيل حياتهم اليومية، على أعمال وروائع حرفيهم وفنانيهم وعلى
الآداب الضخمة التي أنتجها كل شعب منهم: بنو إسرائيل يعتبرون في
مرتبة أدنى منهم. وهم في نظر التاريخ أحد "الشعوب" القديمة. سيظل
المؤمنون يعتبرون التوراة كتاباً مقدساً، ينبوع الحقيقة والحياة الدينية،
ولكن في نظر التاريخ وفي نظر الحقيقة المجردة أصبحت التوراة عبارة عن
ديوان، عبارة عن نصوص مختارة من الأدب الديني أعدها بنو إسرائيل
خلال ألف سنة من تاريخهم.

العالم الآثاري جان بوتيرو

صار عصرنا عصر البحث عن الجذور

إدوار سعيد

الباب الأول

الرثاء التوراتي

١. الأدب في العراق القديم

اخترعت الكتابة في مدينة "أوروك" وبها اعتمد العراقيون القدماء على التدوين، وذلك لأهميته وحيويته بسبب صلته مع المجالات الأساسية في الحياة، وكانت تلك تدوينات أولية / بسيطة. وبعدها، تطورت الكتابة من علامات صورية إلى لغة معروفة، بادر العراقي إلى تدوين أناشيده وتراثيله الدينية، وحكاياته وأساطيره، مع الكثير من الطقوس والعقائد. وبذلك غادر مرحلة المرويات / الشفاهيات وإن لم يتخل عنها تماماً، لأن الشفاهية ظلت ذات دور متميز في الحياة بكل مجالاتها. ودخل العراق القديم مجال الحضارة الحقيقي. والأساس المهم لكل تطور في الحياة وبذلك حاز العراق على الوسيلة المهمة التي دوّنت بها الكثير من النصوص الدينية.

وما يهمنا هنا، تقديم إشارات سريعة عن الأدب العراقي القديم ومميزاته الخاصة، والتي امتدت ومارست تأثيراً لها في تاريخ الأدب / الثقافة في منطقة الشرق الأدنى القديم. وقد اعتبرت الدراسات والبحوث الكثيرة، الأدب في العراق القديم من أقدم الآداب في الشرق.

وهذا ما أجمع عليه الباحثون. واعتبرته الدراسات، أول المحاولات في التاريخ الإنساني، من أجل التعبير عن الحياة، وقيمتها، ومعانيها، بأسلوب الفن الأدبي. ولكي لا يكون هذا الرأي من قبيل إرسال القول على عواهنه، ينبغي عدم الاكتفاء بمجرد

الاستشهاد بإجماع الباحثين، بل الإشارة - أيضاً - على ذلك بأسلوب البحث العلمي. قال الأستاذ طه باقر: وإذا قارنا هذا الأدب مع غيره من آداب الشرق الأدنى القلم، فسيكون أكثرها قدماً وتأثيراً. وهو يسبق بزمن طويل غيره من الآداب المجاورة. وأشارت الدراسات المعنية بالآداب في الشرق وتاريخ حضارته، إلى واحدة من أهم خصائص الأدب العراقي القلم، وهو إبقاء النصوص ثابتة، وبعيدة عن التحوير أو الحذف والإضافة، أثناء تدوينها في مرحلة الانتقال من الشفاهيات إلى الكتابة. واستعانة بسيطة بالدراسات المقارنة، سنتوصل إلى ما يؤكد العمق الزمني لهذا الأدب، وهيمنته من خلال الامتداد والتأثير. بحيث كانت الحضارات الشرقية منفتحة أمام قوة الأدب العراقي، وأهمية المواضيع التي اهتم بها، وهي - كما نعرف - دينية وسياسية وانتقلت خصائص هذا الأدب إلى الآداب الأخرى. وكادت تكون نصوصاً للمرحلة مع طغيان شكلي متماثل مع النصوص العراقية القديمة، مع تركز لمواضيع كثيرة تناولها الأدب العراقي القلم وهي، الأساطير الخاصة بالتكوين والأصول / والأصول الخاصة بأنساب الآلهة / البطولات والملاحم الخاصة بالملوك وأشباه الآلهة / نصوص الطوفان وأساطير ما بعد الموت / أساطير الخصب / الأدب الخاص بالحكمة / الحب والجنس / التراتيل والأنشيد الدينية / نصوص التعاويذ / والمراثي.

وما يهمنا في هذا الرأي الموجز هو أدب المراثي، الذي كان جنساً خاصاً في الأدب القلم، وتميزت به النصوص الشعرية. ويكاد يكون العراق أول بلدان الشرق القلم معرفة لهذا النمط الكتابي وإنتاجاً له ولم يسبقه أحد من قبل. ولذا فإن المراثي الخاصة بالمدن العراقية القديمة أور / أكد / نمر وبابل من أهم المراثي التي عرفها الأدب العراقي القلم. ولا يمكن إغفالها أبداً، حتى عندما يكون الاهتمام - مثلاً - بالأدب القلم. وبإمكاننا القول: إن المراثي العراقية سبقت المراثي التوراتية بأكثر من ألف سنة واختلفت عنها كثيراً بعدد من العناصر الفنية والمكونات التاريخية، وأكدت هذه

المميزات فرادة هذا النوع في العراق وريادته أيضاً. وأشار د. نامل حنون إلى أن نصوص المراثي السومرية توزعت على أربع مجموعات هي (*):

أ) المراثي التاريخية: وتوجد من هذه المجموعة ستة نصوص حالياً وهي:

١. مرثية أريدو: ٢٨٠ سطراً. ٢. مرثية أوروك: ٤٠٠ سطراً

٣. مرثية تخريب أور: ٤٣٥ سطراً. ٤. مرثية تخريب مزارلكش: ١٠٥ سطراً.

٥. مرثية سومر وأور: ٥٢٦ سطراً. ٦. مرثية نفر: ٣٢٤ سطراً.

ب) المراثي الشعائرية:

هناك مرثيتان يمكن اعتبارهما من المراثي الشعائرية وهما مرثية بالاك (Balag)

ومرثية إيرشيما (Ershemma).

ج) مرثية الإله المختفي (خصوصاً دوموزي).

د) المراثي الشخصية



شكل (١): ختم عن صراع الأبطال مع الحيوانات

(*). د. نامل حنون، الكشاف المختصر للنصوص الأدبية العراقية القديمة، النصوص السومرية، المشهد الثقافي

الجديد، إعداد: عبدالإله جعفر، عبدالمهدي الفرطوسي، صباح عنوز، محمد زياد إبراهيم، مكتب الضياء،

النجف، ...، ص ٣٦.

وذكر د. نائل حنون مرثيتين ضمن النصوص الأدبية المتنوعة هما:

١. مرثية / مناقحة على موت أور - نمو: ١١٢ سطرًا.

٢. مرثية / مناقحة على موت ناورتم: ٦٥ سطرًا.

ويلاحظ بأن النصوص السومرية / المراثي قد تمركزت حول خراب المدن العراقية القديمة، باعتبارها من المراكز الحضارية المهمة. أما في مجال المراثي الفردية، فإنها كانت ضمن النصوص الأدبية السومرية، كما هو في مرثيتي أور - نمو / وناورتم. وكذلك مرثية إنكيديو، ضمن ملحمة جلجامش. و سنحاول الإشارة لهذه المرثية، الخاصة بالأفراد، لأنها تعني مغادرة التمرکز حول المدن والانتقال نحو مجال آخر، وهو مجال الأفراد الاعتياديين، وبرز هذا التحول في المرحلة الأكديّة. وبالإمكان الإشارة إلى مرثية إنكيديو واعتمادها نمطاً فريداً ومتميزاً.

وصارت هذه المرثية نموذجاً في الأدب القديم، والحديث وتبدى تأثيرها - مع الملحمة - واضحاً في الكثير من النصوص وخصوصاً الملحمة.

إنها رثائية مشحونة بالحزن والمرارة على وفاة إنكيديو. وبالإمكان اعتبارها نعيّ، تفرد بالقوة والدقة والإيجاز. كذلك تميزها بالذكاء في تجسيد روحية العراقي وعناصره. وتثير هذه الميّة عدداً من الملاحظات، أهمها، الإحساس بالفجعة وقوة الخسارة، والصحوة على الموت، باعتباره قدراً ملاحقاً للإنسان، وبسبب شدة الصدمة - التي واجهها جلجامش - تدفقت مشاعر حزنه وتفجعه، ووفرت فرصة لقراءة الموقف الاجتماعي في العلاقات اليومية. وكذلك المواقف المشتركة بين السلطة السياسية / الملك وبين المواطن الفرد. ومعروف بأن جلجامش كان ملكاً في أوروك وجمعه صداقة مع إنكيديو، والتفاصيل الأخرى معروفة للجميع. وعندما فوجئ الملك / جلجامش

بالموت متسللاً لصديقه، أصيب بالصدمة وعرف لأول مرة حجم الخسارة بالفقدان،
إنها فجيعة الموت. ويضيء نص المرثية موقف العراقي القلم من الغياب / الموت.

من أجل "إنكيدو" خلي، وصاحبي، أبكي

وأنوح نواح الثكلى

إنه الفأس الذي في جنبي وقوة ساعدي

والخنجر الذي في حزامي، والمجن الذي يدرأ عني

وفرحتي وبهجتي وكسوة عيدي

لقد ظهر شيطان رجيم وسرقه مني

يا خلي ويا أخي الأصغر

لقد طاردت حمار الوحش في التلال

اقتنصت النمر في الصحارى

"إنكيدو" يا صاحبي وأخي الأصغر

الذي اقتنص حمار الوحش في النجاد والنمر في الصحارى

تغلبننا على الصعاب وارتقينا أعالي الجبال"

الملحمة ص ١٦٠

وتتميز هذه المرثية الفردية بصياغتها لهذا النمط الرثائي في الأدب العراقي
القلم. وكذلك في بلدان الشرق، حيث كان الاستهلال معنياً بالشخص المرثي،
ومكرساً له وعنه، مع الإشارة لصفاته ومميزاته ومستوى العلاقة وإياه، حتى تأخذ المرثية
مداها وعمقها في تأسيس مجالها الدرامي.

ولو لم يكن جلجامش صادقاً، لما استطاع التعبير عن فجيئته القوية، وحزنه المدمر، لانه لا يحتاج - أبداً - قول كلام لا يمثله أو لا يعبر عن موقفه الشخصي آنذاك. لذا كان هذا النص استهلالاً في العرض المسرحي / أو النص الدرامي، من أجل أن يضيء مساحة لاحقة ستساهم بتصعيد الشحنة الدرامية وإثارة الأحران، كي يكون للثناء مداه وقوة وقعه.

فأية سنة "من نوم" هذه غلبتك وتمكنت منك؟

طواك ظلام الليل فلا تسمعي

ولكن "إنكيدو" لم يرفع عينيه

فحبس قلبه لم ينبض"

الملحمة ص ١٠٦

وهنا يتحقق فعل الصدمة / والاستغراب مما حصل / الموت وتكشف مفاجأة الملك بالموت، الذي لم يعرفه من قبل فيصرخ وكأنه لا يريد تصديق الذي وقع. لكن إنكيدو استمر في غيابه، ليؤكد للملك بأن الناس العاديين يلاحقهم الموت. والخلود من نصيب الآلهة فقط. ولحظتها أدرك الإنسان العراقي القدم وجود مناطق / عتبات، خاصة بالآلهة / الملوك / والناس، وهي تقسيمات موضوعية في نظر الآلهة، لذا قدرت الموت على الإنسان ومنحت نفسها الخلود حتى الأبد:

"وعند ذاك برقع صديقه كالعروس

وأخذ يزأر حوله كالأسد

كاللبوة التي اختطفت منها أشبالها

وصار يروح ويجيء أمام الفراش وهو ينظر إليه

وينتف شعره ويرميه على الأرض

مزق ثيابه الجميلة ورمها كأنها أشياء نجسة

الملحمة ص ١٠٧

ولم يكتف جلدجامش بالكلام للتعبير عن حزنه وفجيئته، وإحساسه بالكارثة، بل مارس ما كان العراقيون رجالاً ونساءً يقومون به، لحظة فقدان، الضرب على الوجه وشف الشعر والصياح والبكاء.

وبعد تصاعد النص درامياً، ابتداءً مجال الإمساك النفسي للفجعة وقوة الصدمة حيث يتحول الصديق / الخل "إنكيدو" إلى تاريخ فردي / جمعي:

أيها الصفار والصائغ والجوهري

ونحات الأحجار الكريمة اصنعوا لي تمثالاً لخلي

ثم نحت لصديقه تمثالاً جاعلاً صدره من اللازورد وجسمه من الذهب، ونصب منضدة من الخشب القوي وإناء من اللازورد مملوءاً بالزبد. وقرب ذلك إلى شمش.

ص ١٢٧ / الملحة

على فراش المجد أضجعتك

وأجلستك على كرسي الراحة الذي إلى شمالي "يساري"

لكي يقبل أمراء الأرض قدميك

سأجعل أهل "أوروك" يكون عليك ويندبونك

وسأجعل أهل الفرخ يحزنون عليك

وأنا نفسي بعد أن توسد في الثرى.. سأطلق شعري

وألبس جلد الأسد وأهيم على وجهي في الصحارى

ص ١٢٧ / ١٢٨ - الملحة

إن مرثية إنكيدو، المشحونة بالصدق، وهول الصدمة، لم تكن خاصة بالصديق "إنكيدو"، وإنما هي رثاء للذات الملكية التي أدركت لحظتها، بأنها ملاحقة بالتعطل

الكامل / الغياب الفلسفي، لذا انشغل الملك / جلجامش بموضوعة الخلود والبحث عنه، حتى ينقذ نفسه من الموت / الغياب، والمصير الذي آل إليه إنكيديو.

لم تكن مرثية إنكيديو / هي الرثائية الفردية / الوحيدة في الأدب العراقي القديم، وإنما هي المرثية الوحيدة التي كانت عن إنسان ورددها إنسان أيضاً، وهو جلجامش.

وعرف الأدب العراقي عدداً من المرثيات التي قالها^(*) الآلهة، ولعل أكثرها حضوراً هي رثائية "نتو" الإلهة الأم التي لا تريد أن ترى شعبها، أو خلقها ميتاً، والدمار يجتاح كل شيء، لأنها التي خلقت هذا الشعب، وعليها مراقبته وحمايته من الدمارات والكوارث.

لقد كان الإله "إنليل" وراء كارثة الطوفان المعروفة مثلما كان وراء الدمارات التي حلت في سومر وعاصمتها أور / وفي أكد / ونقر. لأن إنليل، أحد أكبر الآلهة في مجلس البانثيون العراقي القديم، ويمثل السلطة التنفيذية، التي تتخذ القرارات الحاسمة والخطيرة ومنها الطوفان والدمارات.

وتقص علينا ملحمة جلجامش / موضوعة الطوفان والطريقة التي حدث فيها، مع سلامة "أوتو - نابشتم" ووصوله وحضور الآلهة "عشتار" التي رفعت عقد الجواهر الذي صاغه لها الإله "آنو" وفق هواها وقالت:

أنتم أيها الآلهة الحاضرون: كما أنني لا أنسى عقد اللازورد، هذا الذي في جيدي.

سأظل أتمسك "أذكر" هذه الأيام ولن أنساها أبداً

ليتقدم الآلهة إلى القرابين

(*) اختص كشاف د. نائل حنون بالمرثية السومرية فقط.

أما "إنليل" فحذار أن يقترب من القرابين
لأنه لم يتروّ، فأحدث عباب الطوفان

ص ١٦٠ / الملحمة

وارتفع صوت الإلهة عشتار، بعد انحسار الطوفان، نادبة الخسارات، وتعطل
الحياة.

وصرخت عشتار، كما تصرح امرأة في الولادة، انتحبت سيدة الآلهة وناحت
بصورها الشجي نادبة:

واحسرتاه! لقد عادت الأيام الأولى إلى طين

لأنني نطقت بالشر في مجمع الآلهة



شكل (٢): كاهنات الآلهة عشتار

فماذا دهاني إذ نطقت بالشر
لقد سلطت الدمار على أناسي "خلقي"
وأنا التي ولدت أناسي هؤلاء
لقد ملأوا اليم كبيض السمك
وبكى معها آلهة الـ "أنوناكي"
أجل! جلس الآلهة فمنكسي الرؤوس يندبون
وقد يبست شفاههم

ص ١٥٧ / الملحمة

ويضيء لنا نص الملحمة علاقة الأم / الألوهة المؤنثة مع مرثي الدمار، مثلما
ستتعرف على ذلك في نص / أور / نفر، وهذا ما يؤكد ابتعاد الألوهة المؤنثة / الأم
الكبرى عن اقتراح القتل / والخراب، لأنها بذلك تكون متطابقة مع عناصرها، التي
صاغت شخصيتها، وكونت ملامحها في البنية الفكرية العراقية. لذا ظلت محافظة على
ذلك، وغير قادرة على خرق هذا الأصل، كي تظل متناغمة مع وظيفتها المعروفة في
بنية الخصب والحياة.

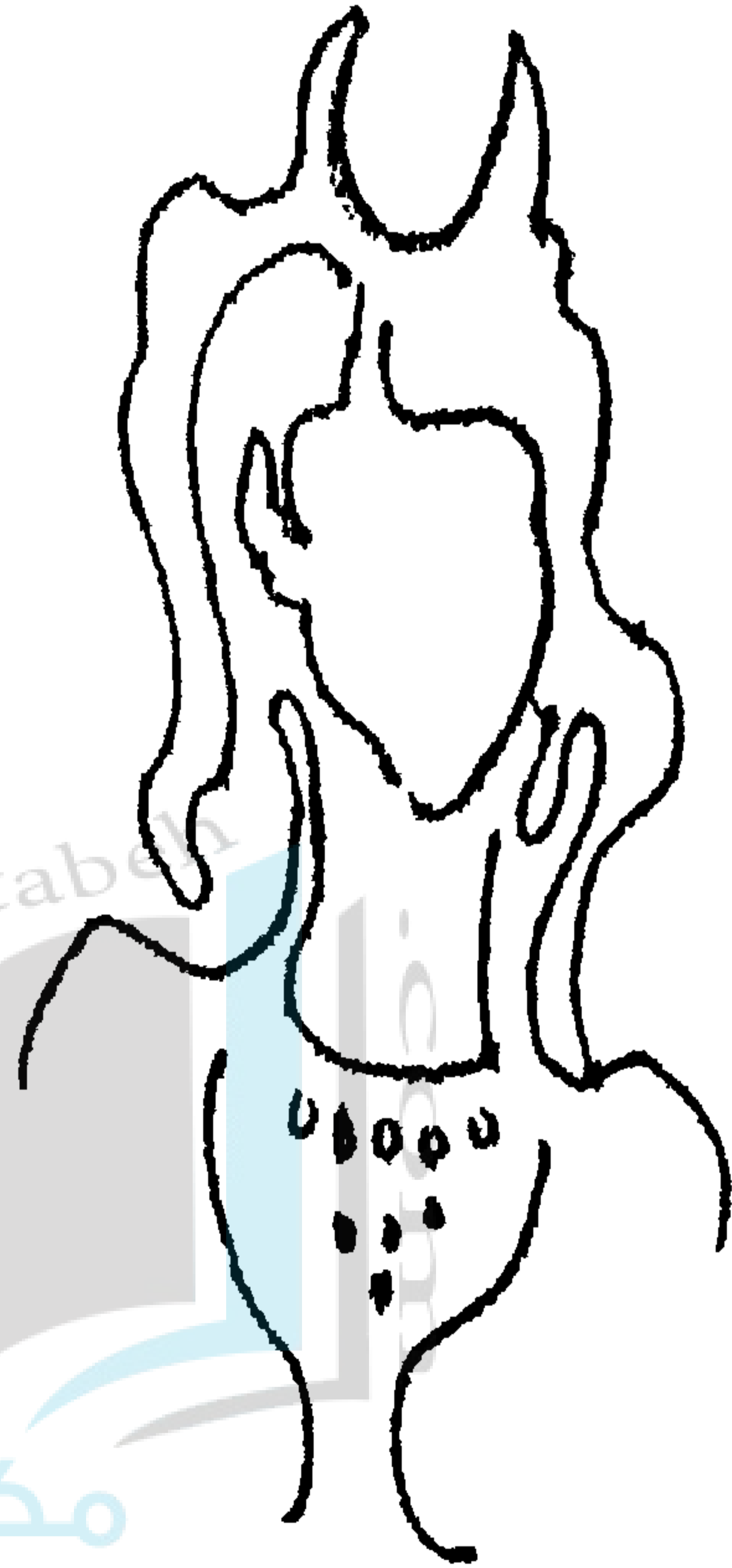
ولهذا حازت المرأة على وظيفة الندب، لأنها المستهدفة - أصلاً - بالموت /
الخراب / وتشعر بذلك أكثر من الرجال، وصارت البكائيات وظيفتها لها، حتى الوقت
الحاضر، وقادت المرأة وطورت هذه الوظيفة في الحياة الاجتماعية / اليومية، في كل
الوطن العربي. وقد برعت النسوة بذلك، وظل منظرهن - وهن يرددن المرثي، ويمثلن
أدوارهن - مثيراً للحزن والشجن.

وعلى الرغم من تدويني للنص العشتاري، لكنني أشك في هذه المرثية وكل المراثي المنسوبة لها، لأن "عشتار" لم تكن إلهة أم، وليس لها دور في الخلق والولادة. وإنما تركزت وظيفتها في الجنس والاتصال / الشبق، ولم يمنحها هذا التمرکز الشهوي، فرصة التخصب ولو لمرة واحدة.

لهذا انحصرت وظائفها كلها بالاتصال الجنسي / والشهوي / والشبق / والإثارة، لذا أعتقد بأن دورها في هذا النص منقول عن غيرها.



شكل (٤): إنكيديو - نحت بارز على جدار قصر سرجون الثاني الآشوري "أواخر القرن الثامن ق.م"



شكل (٣): الإلهة عشتار كما تخيلها الفنان سعدي اللبان

٢. رثاء الآلهة

عرف الأدب في العراق القلم نمطاً من المراثي، لم ينتشر ويتسع في الشرق، إلا وهو نذب الآلهة والتوسل إليها، واستثارة رحمتها وعطفها من أجل الناس. وكانت هذه النصوص قصيرة وليست طويلة جداً، حتى يتمكن الناس من حفظها بسرعة وسهولة، وانتقالها من جيل إلى آخر، وترديدها مع الكهنة في مناسبات خاصة.

وأشار د. سامي سعيد الأحمد إلى أن قصائد نذب الآلهة كانت سلاحاً بيد الكهنة لإيقاف غضب الآلهة، وتقرأ في تقويم أوروك القطع الشعرية التي كانت تتلى في كل شهر وخصوصاً في الأيام الأولى والسابع والرابع عشر والعشرين من كل شهر وخلال شهر نيسان وكانون أول وفي السابع من كل شهر يتلو الكهنة خمس قطع.

ثلاث منها إلى الإله آنو، وواحدة إلى سين وأخرى إلى عشتار. أما قصيدة النذب من نوع "إيلوم كوسونا" فإنها تتلى في معبد الإله آنو بمدينة أوروك، في اليوم السابع عشر، وتتسع المراثي وتعمق طقوس النذب في العراق، ولأهميتها تُنتج معها طقوساً خاصة، ذات هيمنة دينية، تثير الخوف والهلع في نفوس المواطنين، وحتى الكهنة، وخصوصاً المراثي التي تقدم إلى الإله لحظة ما يريد المتعبد تحقق شيء له، أو عندما يُزال معبد الإله لأغراض التجديد، فإن مثل هذه المراثي، يقدمها الكهنة وحشد

من الناس، ومن أهم النصوص في هذا المجال، ما يقدم إلى الإله "إنليل" توسلاً له لتخفيف الكوارث والمآسي. ويتألف^(*) كل نص من ثلاثة عناصر أساسية، المدح / والأحداث / والأهمية. وأكثرية المحتويات مكرسة إلى مدح الإله وإخلاص المتعبدين إليه، ثم تروي سوء أوضاع البلاد وانفجار الطبيعة والغزوات التي لم يوقفها الإله. ثم يصف ردود أفعال الأحداث على الآلهة ويندب مصير البلاد ومعابدها وشعبها. ثم قيام بعض الآلهة بمحاولات توسط لدى "إنليل" من أجل الأمة. وأخيراً حث الإله لإعادة حبه وحفظ المعابد والمدن من الدمار. ويظهر أن قصيدة الندب كانت تتلى إلى الآلهة وقت تقديم الأضاحي. وكانت سلاحاً بيد الكهنة لإيقاف غضب الآلهة.

ويقدم د. سامي سعيد الأحمد تحديداً لعدد من النصوص الدينية، وهي بحق من أهم النصوص / المراثي ويؤسس تقسيماً للمراثي، معتمداً بذلك على المتن الداخلي للنص، وليس على عنوانه القصيدة، وأحياناً يأخذ موضوع الندب من مقطع واحد في النص ويؤسس توصيفاً دقيقاً له.

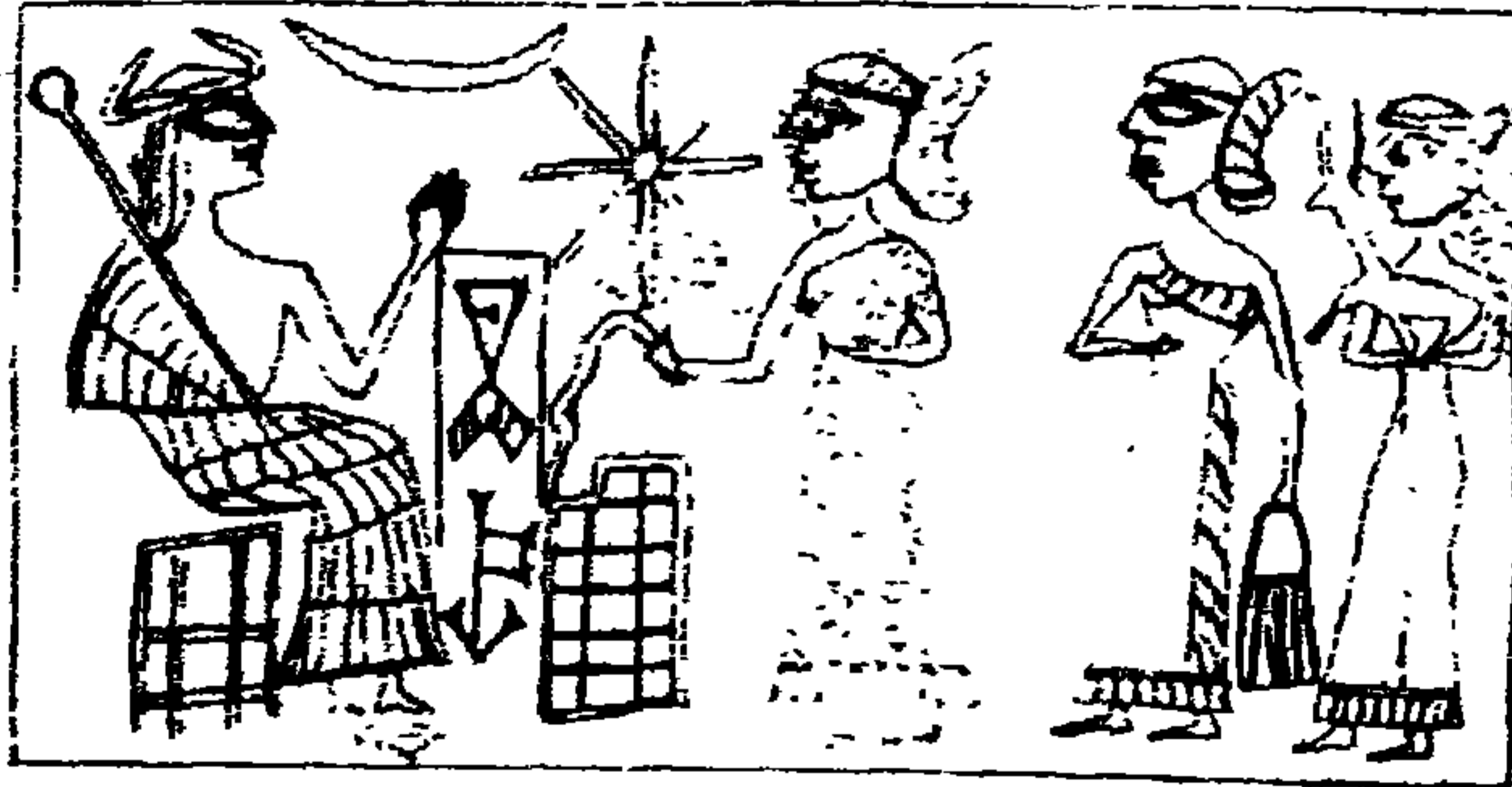
إن مراثي الآلهة^(**) التي ذكر موتها السنوي في عقائد العراق القديم، تميل في معظمها إلى تقليد مراثي (دوموزي) بالرغم من انعدام وحدة الموضوع، بين موت الآلهة وموت "دوموزي"، وهكذا الحال بالنسبة للإله "نورتا" الذي اعتقد العراقيون القدماء بأنه تعرض للموت ونزل إلى العالم الأسفل، إذ وجد نص من مدينة "أداب" يذكر باسم (ليل) الذي هو أحد ألقابه، ويصف رثاءه من قبل أمه الإلهة "نخرسك" وأخته الإلهة "أكي" حيث أن الأخيرة تندبه بالشكل التالي:

قم من قبرك يا أخي فأملك في لهفة عليك

(*) د. سامي سعيد الأحمد، الأدب في العراق القديم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠، ص ٦١.

(**) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط ٢، ١٩٨٦،

أمك "ننخرساك" في لهفة عليك
 إنها تلهف لسماع شفيتك العذبتين
 إنها تتسع لفمك اللبق.
 أيها الفتى، لا تدع أمك تجلس باكية
 لا تدع أمك "ننخرساك" تجلس نادبة
 قم من قبرك ولا تجلب عليها الويل
 قم من قبرك يا (ليل) ولا تجلب عليها الويل. فيجيبها بحزن:
 حرريني يا أختي
 لا توبخيني يا أختي، فما أنا بالطويل الذي تمكن رؤيته
 لا توبخيني يا "أكيمي" فما أنا بالطويل الذي تمكن رؤيته
 لا توبخيني أيتها الأم ننماخ / ننخرساك"، فما أنا بالطويل
 الذي تمكن رؤيته
 إن قبري من تراب العالم الأسفل، وأني اضطجع بين الأشرار
 إن نومي كرب وإني اضطجع بين الأشرار
 يا أختي! إني لا أستطيع القيام من قبري



شكل (٥): ختم أسطوانتي وتبدو فيه الإلهة حاملة صولجاناً مع رموز أسطورية أخرى

إن معاناة الآلهة والحداد عليهم يمثل تعبيراً^(*) عن التوتر الذي يميز ديانة بلاد وادي الرافدين القديمة، بسبب القلق المتأصل من المصير المجهول والحزن على حتمية فقدان الحياة، مع محاولة التشبث بها هرباً من الموت، ولا يمكن لنا أن نأخذ النصوص التي تعالج ذلك الموضوع بحرفيتها، نظراً للمعاني الرمزية التي يحملها الكثير منها. ومن المستطاع القبول عموماً بأن البطل فيها لا يبدو أنه إله "ميت" كما اعتبر من قبل بعض الباحثين، وهو لا يجسد بمخلوق بشري يتعرض للقتل، وإنما كان إله يموت في دورة الفصول الاعتيادية، أو الطقوس الخاصة ثم يعود للحياة. لقد اعتبرت العبادات القديمة موت الآلهة السنوي، ظاهرة طبيعية في صراعها مع الطبيعة والموت، إذ تنتصر الآلهة في آخر الأمر، فلا يؤثر بأي حال من الأحوال على خلودها.



شكل (٦): بعل من أوغاريت

(*) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، سبق ذكره، ص ٧٢.

ومن النصوص التي يتلوها الكهنة إلى الآلهة^(*):

* الثور في حضيرته:

وهي مكرسة إلى الإله "إنليل"، وكانت تتلى في مدينة أوروك في الأيام الخامس عشر والعشرين من الشهر وهي للإله أنو وفي اليوم الحادي عشر من عيد الأكيو وبمدينة آشور، تتلى يوم الرابع عشر من شباط، وتقدم في كل مدينة باسم إله معين

الثور في حضيرته يندب بكل حزن

إله الأمة قد وضع للحراسة راعياً لا ينام

الإله موليل (إنليل) جعل أبناء سومر يصعدون الجبال

في مدينتك الأم لا تعرف ولدها

في بابل الفتاة لا تعرف أخاها

ويلاحظ من خلال هذا النص، الأسباب الكامنة وراء تعميم هذه المرثية، وهي ذات صلة وثيقة مع الخصوبة واستمرار الثروة الحيوانية، حيث حازت على استهلال النص، ومن بعد اتسع النص ليشمل نظام الخصوبة، حيث الأم لا تعرف ولدها والفتاة لا تعرف أخاها / زوجها، وسبب ذلك يعود لحجم الكارثة التي حلت بالمدينة، ويذكر هذا النص بمرثية أور. ولأن المرثية هذه غير محددة بمدينة ما، فإنها تعتبر مرثية لكل مدن العراق القلم.

أما الإله "موليل - إنليل" فلا ضير أن يكون ضمن هذا النص، لأنه، الإله الوحيد الذي بإمكانه إيقاف الدمار وإنقاذ الناس، والسعي لتجديد الحياة، وكل شيء

(*) د. سامي سعيد الأحمد، الأدب في العراق القديم، سبق ذكره، ص 61-65.

فسيها. ولهذا السبب، نجد بأن كل المراثي قد تضمنت دوراً خاصاً بالإله "إنليل" إذا لم يكن متمركزاً، كما في مرثية أور ونفر وأكد. والمرثية التالية تضيء جانباً مما أشرنا له.

* كلمته عويل عويل:

وهي ندب إلى الإله إنليل. وكانت تتلى في مدينة أوروك في اليوم السابع من كل شهر. وتركزت هذه المرثية على الخراب الذي سببه إنليل للبلاد وبعد ذلك استسلم لنوم وظل الخراب مستمراً. لذا سارعت الإلهة "أنانا" إليه من أجل إنقاذ الموقف، وعندما وصلت مدينة نفر. أوقفها البواب عند باب الإله إنليل، طالباً منها القيام ببعض الواجبات، كي يسمح لها بالدخول، وفعلاً تمكنت - بعد ذلك - من الدخول إلى حضرة الإله إنليل وحاولت إيقاظه.

وللإله إنليل دور كرسه عبر التالي، دور تعميم الأوبئة والخراب والطوفان ومحاولته إبادة البشر. وفي الأدب العراقي القديم كثير من النصوص التي تشير إلى ذلك، ولعل أهمها وأكثرها بقاءً في الذاكرة هو ملحمة جلجامش / رثاء أور / نفر / وتثير هذه النصوص سؤالاً مهماً وجوهرياً له صلة بالعناصر الأثوية للإلهة أنانا / عشتار حيث نجد دورها إيجابياً وفيه ملمح واضح من وظائف الأم الكبرى، وهو مسعاها لإيقاف الخراب والدمار. وتشير إلى ذلك ملحمة جلجامش إشارة واضحة جداً.

أجل تشتم الآلهة عرفها الطيب^(*)

فتجمع الآلهة على صاحب القربان كأنهم الذباب

ولما حضرت الإلهة العظيمة "عشتار"

رفعت عقد الجواهر الذي صاغه لها (أنو) وفق هواها

(*) طه باقر، ملحمة جلجامش، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ص ١٦٠.

وقالت:

أنتم أيها الآلهة الحاضرون: كما أنني لا أنسى

عقد اللازورد هذا الذي

في جيدي

سأظل أتحسس (أذكر) هذه الأيام ولن أنساها أبداً

ليتقدم الآلهة إلى القرابين

أما "إنليل" فحذار أن يقترب من القرابين

لأنه لم يتروّ فأحدث عباب الطوفان

وأسلم أناسي (خلقي) إلى الهلاك

هذا العنصر الواضح في شخصية الآلهة أنانا / عشتار عنصر أمومي، لم تؤكد

النصوص السومرية / والآكدية ولم تحز هذه الإلهة على هذه الخاصية. وقد تمكن د.

نائل حنون من دراسة هذا الأمر الحيوي وتوصل إلى رأي مختلف تماماً عن الآراء

الغربية التي أكدت على الصفة الأمومية للإلهة أنانا / عشتار.

* محارب البلاد الرفيع

وهي قصيدة ندب إلى الإله "نورتا" وفي الوجدتين الأوليتين تمدح القصيدة

ننورتا ثم تدعوه إلى صد الأعداء ونقل الحرب إلى أرض العدو، ودحر جيوشهم وفي

الوحدة الثالثة تصرخ المدينة بوجه زوجة ننورتا - نكرزو التي كانت تتجول بين

أطلال المدينة تندب خراب كل شيء.

* الفيضان الذي أغرق المحصول:

تتلى إلى الإله "نركال" وفي الوحدة الأخيرة إشارة إلى الطلب الصريح لنركال بالذهاب إلى الإله إنليل، والتوسل إليه لإيقاف تخريبه البلاد ويصمم نركال على القيام بالمهمة:

سأسكب الجعة من وعائي إليه

مثل الحصان سأقدم رقبتى إليه

وسأخبره أن مدينته قد تهدمت

يكشف هذا المقطع القصير جداً من هذه المرثية، الغطرسة التي تلبست الإله إنليل وعجرفته ورغبته في التدمير المستمر، وهذا ما يعنيه كلام الإله نركال ضمناً. لأنه - من الإلهة الكبيرة / المتجبرة في العالم الأسفل، وهو زوج الإلهة أرشكيجال، وإله موجود في العالم الأسفل، يعني تعايشه مع الخراب / الموت، بحيث لا يمثل ذلك مشهداً أمراً غريباً أو مفاجئاً. وعلى الرغم من كل ذلك، نجده يقدم الجعة من وعائه الخاص قرباناً للإله إنليل، وارتضى -نركال- أن يمد رقبتة، مثل الحصان، اعترافاً بطاعته والمثول بين يديه، كل هذا من أجل أن يقول له بأن نركال قد تهدمت وخيم عليها الدمار الشامل.

٣. مراثي الإله دوموزي / تموز

هي مجموعة من أشهر المراثي، وأكثرها أهمية في الأدب العراقي القلم. وربما اكتسبت أهميتها هذه، من التواصل واستمرار طقوسها، كما أنها مرثية على لسان أنا / عشتار العاشقة / المجنونة برغباتها، حيث كان غياب تموز، تعطلاً للأنوثة في جسدها، وتأتي أهميتها من كون الإله تموز إلهاً شاباً / جميلاً / وسيماً، ويمكن الاعتماد عليه بكونه أصلاً لنظام الألوهة الشابة القتيلة، التي عرفتها حضارات الشرق لاحقاً. ومنها الآلهة الأكثر بروزاً / ووضوحاً الإله أدونيس / دويونيسيس / أوزيريس / آتيس / يوسف / يسوع / الحسين... الخ.

لهذا صاغت مراثي الإله تموز جزءاً حيويًا من وجدان الناس، وخصوصاً الشباب، وعبر مجموعة من القصائد الخاصة وفرت الأسباب التي أشرنا لها جواً خاصاً ورسخت أنماطاً من العلاقة مع الناس، وتواصلت. ولأن العزاء والندب مستمر ولأسباب كثيرة، فإن قصائد تموز تتلى فيها. وتحولت تدريجياً إلى مهيمنة واسعة وراسخة، تتبدى به، ومن خلاله كل الخسارات، من خلال الوفيات أو استذكار الأموات. لهذا كانت طقوس التلاوة مستمرة، وتعتبر أبدية.

وتتميز قصائد رثاء / وندب الإله الشاب / دوموزي / تموز بأنها مكتوبة بلسان
الإلهة إنانا / عشتار، لأنها أخته / وزوجته، وإحساس المرأة بالخسارة أكبر وهي
الوحيدة، التي تدرك عمق المرارة التي يتركها غياب الزوج / الأخ / العشيق، لذا ظل
كل الذي قالته النساء عبر التاريخ حياً ومؤثراً، ويطغى عليه حزن ومرارة.

ويغلب على هذه القصائد تكرر صدر أو عجز البيت وفي مرات أخرى يتكرر
البيت الأول من القصيدة، بعد عدد من الأبيات:

راح قلبي إلى السهل نائحاً نائحاً

إني أنا سيدة معبده - أي - أنا - تحطم بلاد الأعداء

راح قلبي إلى مكان الفتى

راح إلى مكان دوموزي / تموز. إلى العالم السفلي، موطن الراعي

راح قلبي إلى السهل نائحاً نائحاً

إلى المكان الذي ربط فيه الفتى

إلى المكان الذي احتجز فيه دوموزي

وفي قصيدة أخرى، تتجسد الحالة النفسية للإلهة إنانا / عشتار لحظة غياب

تموز، وهي تعبر بوضوح تام عن الصدمة التي تواجه المرأة عند غياب زوجها

تبكي السيدة بمرارة على زوجها

تبكي إنانا بمرارة على زوجها

تبكي ملكة زبالم بمرارة على زوجها

وأسفاه على الدار، وأسفاه على المدينة

على زوجها الذي أسر، وعلى ولدها الذي قتل..

راح زوجي، زوجي الطيب

راح ولدي، ولدي الطيب

زوجي الذي راح ينشد الطعام

زوجي الذي راح ينشد الماء فسلم إلى المياه

* قصائد ندب الأفراد:

يقدم د. سامي سعيد الأحمد رأياً مهماً وجديداً حول قصائد ندب الأفراد ويؤشر وجود قصيدتين فقط^(*) واحدة عن شخص اسمه (لودين كيرا) يندب فيها والده الذي مات بعد إصابته بجروح، في خصام شخص. والثانية يندب فيها شخص زوجته "نويرتم" وكان أسلوبهما الشعري متميزاً:

الأب الذي يعيش في المدينة قد تمرض

العالي الفطن الذي نجد قرينه في الجبال قد تمرض

رجل الحق والتقوى قد تمرض

البطل الزعيم لم يقدر أن يسير على قدم..

قد فارق الدنيا في نفر

من الجروح التي حصلها في الخصام

سكب الابن دموعه وألقى بنفسه في التراب

(*) د. سامي سعيد الأحمد، الأدب في العراق القلم، سبق ذكره. ص ٦٤.

٤. الحداد والأثر الاجتماعي للموت^(*)

لابد من معرفة الحالة، التي يكون عليها أهل وأقارب المتوفى ومعارفه في العراق القديم، وما هي الطريقة التي يعبرون بها عن أحزانهم ومشاعرهم نحو المتوفى؟ لذلك ما هي الحالة الاجتماعية العامة التي تكون عليها المدينة و الدولة، بعد موت الملك أو أحد أفراد الأسرة الحاكمة، أو الشخصيات الهامة في الأيام التي تعقب الوفاة مباشرة.

كان التعبير وفقاً لعقائد ما بعد الموت عند سكان العراق القدماء، عاملاً مؤثراً في كلا الطرفين، الأحياء الذين فقدوا أحد أقاربهم أو أصدقائهم من جهة، والمتوفى نفسه من الجهة الأخرى، فبالنسبة للأحياء من عائلة المتوفى وأقاربه وأصدقائه والمجتمع الذي عاش فيه، كان الحداد عاملاً مساعداً على تخفيف الحزن والقلق والإحساس بالتوتر الذي يغمرهم، وبالنسبة للمتوفى كان الحداد والحزن الحاصل بعد وفاته يعتبر بمثابة ضمان بعدم انقطاع ذكر الشخص، بين الأحياء بعد موته. وبالتالي يصبح أمراً موحياً بالطمأنينة للفرد إزاء الموت. وقد ظهر هذا الاتجاه بأشكال متعددة مثل إقامة الطقوس الجنائزية وفي الأخص منها طقوس "ذكر الاسم" Shuma Zakaru.

(*) نائل جنون، عقائد ما بعد الموت، سبق ذكره، ص ٢٩٠.

وإضافة إلى ذلك كله، كان الاعتقاد السائد بين سكان وادي الرافدين، أن دموع الأحياء ومراثيهم يمكن أن توفر للموتى بعض الراحة.

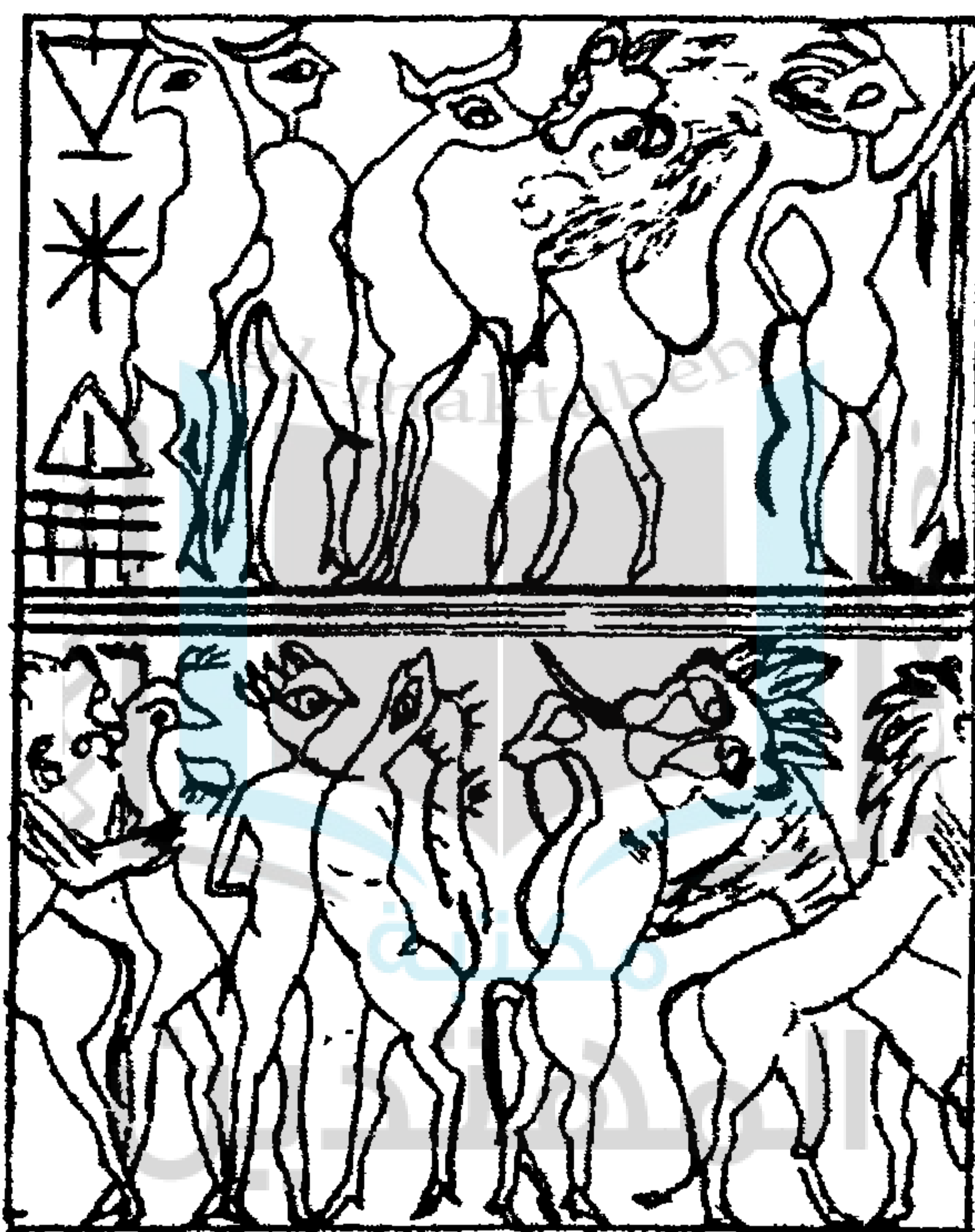
ويمكننا تلمس أثر الحداد في تخفيف حدة أثر الموت، على نفس الإنسان في نص ملحمة جلجامش، على لسان الإله شمش وهو يهدئ من روع "إنكيديو" حين مرض وواجه الموت إذ يخبره:

وسيجعل "جلجامش" أهل أوروك يكونك

ويجعل الموسرين من الناس يقربون ويصلون إليك

أما هو نفسه فبعد أن يودعك القبر سيطلق شعر

ويلبس جلد الأسد ويهيم على وجهه في الصحارى



الشكل (٧): ختم أسطواني عن صراع الأبطال مع الحيوانات

وفعالاً يطمئن "إنكيدو" ويخف جزعه من الموت كما يتضح^(*) من الأسطر السابقة بالرغم من أن الإله "شمش" لم يعده بتخليصه من الموت. وقد كانت مراسم الحداد، تختلف باختلاف مكانة الشخص المتوفى، ودوره في المجتمع، كما هي الحال بالنسبة لسائر الطقوس الجنائزية الأخرى. إذ كان بالنسبة لعامة الناس مقتصرة على عائلة الميت وأقاربه وأصدقائه، وبالطبع كانت درجة الحزن، مختلفة من شخص لآخر باختلاف درجة قرابته من الميت، أما بالنسبة للملوك والشخصيات المهمة في الدولة فقد كانت لهم شعائر خاصة.

ويوجد عدد من الكهنة المختصين بالقيام بمراسم الحداد - بطلب من أسرة المتوفى - بتلاوة المراثي. وهؤلاء الكهنة على ثلاثة أصناف. وتعزف الألحان الحزينة بمصاحبة المراثي، التي يلقيها هؤلاء الكهنة، حيث ورد في أحد النصوص من مدينة "ماري" ما يلي:

كاهن المناحة يرثم برفقة طبل. وفي نص آخر: كاهن المناحة يرثم أنشودة، كاهن المناحة ينشد بإطراء السيادة العليا، كاهن المناحة ينشد بمصاحبة القيثارة.

وكان الموسيقيون الذي يعزفون على الناي والقيثارة كثيراً ما يظهرون في المشاهد المصورة على الأختام الأسطوانية، التي تمثل الولايم الجنائزية. وبالإضافة إلى الكهنة هناك بعض الكاهنات يشتركن في المآتم ووردت الإشارة إلى اشتراك كاهنتين في مراسم الحداد الخاصة بالشخص المدعو "نانا".

يا "نانا"^(**) عسى أن تسر روحك ويستقر قلبك. عسى الإله "أوتو" سيد العالم السفلي العظيم بعد أن ينور الأماكن المظلمة، أن يحكم قضيتك "بعطف" عسى الإله

(*) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، سبق ذكره، ص ٢٩٣.

(**) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، سبق ذكره، ص ١٤٠ - ١٤١.

"ننا" أن يقرر مصيرك (برحمته) في يوم النوم. عسى "نركال" الذي هو (إنليل) العالم
الأسفل.. عسى الموكلون بالطعام أن ينادوا باسمك..

* * *

عسى السقاة أن يرووا ضماك بالماء المنعش
عسى جلجامش أن.. قلبك بالقوة
عسى "نيدو" و"إيتانا" أن يكونا شفيعيك
عسى آلهة العالم الأسفل أن يرفعوا الدعوات لك
عسى أن يقول إلهك الشخصي كفى، عسى أن يقرر
مصيرك برحمته

عسى إله مدينتك...

عساه أن يمحي عهدك وديونك
عساه أن يغفر إثم العائلة من الحساب
عسى الأرواح الصالحة أن يحموك
عسى الأطفال الذين أنجبتهم أن يحظوا بالقيادة
عسى كل بناتك أن يتزوجن
عساه أن يلف الشر المخطط ضدك..

عسى أن يكون الذين تركتهم وراءك سعداء
عسى أن تمكث زوجتك براحة ويتكاثر أقاربك

عسى أن يحظوا بالثروة والنعم يوماً بعد يوم

عسى أن لا تنقطع الجعة والشراب وكل الأشياء

الطيبة عنك

عسى أن يضم دعاء عائلتك إلى دعاء إهلك الشخصي

وأشار الباحث والعالم الأثاري د. نائل حنون إلى المراثية المهمة والخاصة بـ "نورتم" زوجة "لو - دنكرا" لأنها تضيء نوعاً جديداً له صلة مع المواطن العادي، وتقدم كشفاً عن شعائر الحزن وتقاليد الدب، ووجدت الدراسة بأن هذه المراثية مختلفة، لأنها مكتوبة عن المرأة، والمراثي عن النساء قليلة ونادرة.

لقد أطلق - كما قال الباحث نائل حنون - سكان العراق القدماء مصطلح (شقو) على الحداد وهو مصطلح أكدي قريب من كلمة "الشقاء" العربية، ولعل المقصود من إطلاق هذا المصطلح على الحداد، الإشارة إلى الحالة التي يكون عليها الحزاني في فترة الحداد. حيث يغمر الألم نفوسهم وتملاً الحسرة صدورهم، وتتم طريقة الإعلان عن الحداد بترك الشعر أشعث أو بتنفه تعبيراً عن الحزن، والنواح بأصوات عالية واللطيم على الوجه، وإلقاء اليدين على الأرض وتمزيق الثياب، كما وردت الإشارة في حوليات الملك (سرجون) في معرض وصف حزن العراقي عند وفاة أحد معارفه بأنه كان: يلقي بنفسه على الأرض ويمزق ثوبه، ويجرح نفسه بسكين وهو مستغرق في العويل. ومن طرق الإعلان عن الحداد عند سكان العراق القدماء أن يرتدوا ثياباً خاصة، وينشروا الطين على رؤوسهم. وبقوا طيلة أيام الحداد مطأطأي الرؤوس، كما يتضح من نص (شاهد قبر أدد - كبي).

وبالنسبة لشعائر الحداد على الموتى، من الملوك أو الشخصيات المهمة في الدولة، تستمر فترة الحداد الرسمي لمدة سبعة أيام يتوافق في أثناءها من مختلف المدن وكذلك

الملوك والحكام من الدول الأخرى. ولم يكن جثمان الملك المتوفى يدفن بعد موته مباشرة. وإنما كان يمدد على سريريه في قصره الخاص، حيث يتجمع حوله أفراد أسرته للبكاء عليه في حين يتجمهر أهل مدينته حول القصر، وهذا ما يوضحه النص السومري المعروف باسم (موت أور - نمو) وكذلك من إحدى الرسائل الآشورية الموجهة إلى الملك الآشوري "سرجون" تطمئنه على الامثال لأوامره بأن يعرض جسد سلفه لمدة ثلاثة أيام، ثم ينقل إلى مدينته أربيل ليعرض يوماً واحداً فيها.

وحينما يكون جسد الملك مسجى على سريريه^(*) تستمر عملية تحضير الضريح للدفن وإنشاد الترانيم الجنائزية - كما ورد في إحدى الرسائل الآشورية عن المراسم التي أقيمت بعد انتحار (شمش - شوم - أوكن) بعد فشل ثورته في بابل على أخيه الملك آشور - بانيبال حيث تذكر الرسالة: (لقد بنينا الضريح، ورددنا مع سيدة قصره بسلام، لقد انتهت الترانيم والمرثي وأحرقت القرابين، كما تمت مراسم المسح بالزيت وأقيمت مراسم الانتهاء في بيت الاستحمام وبيت التطهير وتلاوة التعاويذ وإنشاد التراتيل الجنائزية.



شكل (٨): الملك آشور ناصر بال الثاني

(*) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، سبق ذكره، ص ٣٠١.

٥. رثاء الزوجة

كنا قد أشرنا - قبلاً - عن أهمية مرثية "ناورتم" وتميزها بالكشف والإيضاح، عن طقوس الموت وشعائر الندب والحزن، ونعتقد بأن لهذه المرثية جانب آخر، يتمتع بأهمية بالغة، لأنه رثاء عن امرأة عادية والنصوص في هذا المجال قليلة جداً.

يوم الشؤم على الزوجة...^(*)

على السيدة الجميلة، الزوجة العطوف، العين الشريرة وقعت على العصفور وعلى عشه وقعت الشبكة.

الأم الولود، الأم الكثيرة الأبناء، وقعت بالفخ على حين غفلة البقرة الصغيرة الزاهية، البقرة الوحشية المخصبة، سقطت محطة مثل إناء (كاكول).

"ناورتم" البقرة الوحشية المخصبة، سقطت محطة مثل إناء "كاكول"

وهي التي لم تقل أبداً "إنني مريضة" ولم تقلق

وهي التي لم "تلس" الموضع القدسي

(*) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، وزارة الثقافة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦،

كانه موضع راحتهم، اندفعوا.. ولم تكن..
لقد غمرت "نفر" العتمة، وفي المدينة
أطلق كل الناس صرخة الحزن..
وغمرهم العطف على نهاية حياتها القاهرة،
وتأملوا لتمددها كتمثال ذهبي،
فمن الذي ينظر إليها ولا يملكه الحزن
النساء الباقيات "رددن" أروع ترانيم الشعراء ذات الكلمات
العذبة. والتي أطلقت في كل مكان ندباً ورتاءً
لأن .. عاد .. أنشدوها حزناً عليها
لأن التي "لم تزل" صغيرة
.... حجر..

لأن أيامها في حضن زوجها لم تطل، لم ينقطع البكاء
لأن من .. لم يرجع إليه "نورتا" صيحة البهجة
لأن محبوبتها كاهنة الـ "إينتو" لم تدخل الـ "كيبار"
لم يقبل الحمار، الذي اختار الفرس له، كقربان،
لأن... جلب إلى النهاية بجنبه
بسمو وعطف أطلق مرثية لأجلها، لأمها التي أنجبتها.. لأجلها
وجاءت أرواحهم قدامها، وتمزقت أجسادهم الشريرة

... العاملون والأقارب..

لأن ... من الركبة..

لم يقفوا...

كل حسناهم كن..

....

مثل رجال غاضبين، الأحجار ... مرض

الثور في مدينتها من العلى... لم يزد

وحينها "كان" زوجها الحبيب وحيداً في مدينته "نفر" ..

"لو - دنكرا"، زوجها الحبيب "كان" وحيداً

في مدينته، في "نفر" ..

دنا منها بقلب جريح في... موضع السكن العظيم

أخذوا يده وقلوبهم مفعمة بالحزن

... قطع الغذاء... ونفسه مكظوم

وأطلق العويل كالبقرة ولم "يرتد" ثياباً...

إنه يتألم ويندبها: "أواه! أين "أنت" الآن أندبك

أين الآلهة "ميمي" الآن والروح الفاتنة! إنني أندبك

أين الفم العطوف الآن. الفم الساحر، الفم الكريم! إنني أنعاك

أين سلاحي البهي الآن، الكنانة الزاهية! إنني أنعاك

أين "أنت" الآن. إشراقتي البهية! إنني أنعاك

أين الأغاني العذبة التي تبهج القلب الآن! إنني أنعاك

أين سلاحى البهي الآن، الكنانة الذهبية التي تنير الروح!
إنني أنعيك.

أين رقصي، رقص "اليد المرفوعة" والمرح! إنني أنعاك
عسى أن لا يمحي ذكرك في الحياة، وعسى أن يذكر
اسمك في الأيام القادمة.

وعسى خطيئة عائلتك أن تمحي. وعسى ديونك أن توفى.
عسى زوجك أن يبقى طيباً، وعساه أن يفعل الخير ككل رجل
عسى أن يبشر أطفالك بمصيرهم السعيد، وعسى أن يكتب
لهم المستقبل السعيد.

عسى عائلتك أن تتقدم للأمام وعسى أن يكون
مستقبلها زاهراً

عسى الإله "أوتو" أن يجلب عليك النور من العالم الأسفل
هو الذي "يرعاك"

عسى الإله "ننكرا" أن يطلق كلمة لأجلك. عساها أن ترفع عالياً.
لأن الريح العاتية قد هبت ضدك، عسى أن يرجعها الأفق

وعسى اللعنة القاسية أن تطلق على الشيطان الذي مدّ يده ضدك

ولأنك الزوجة العطوف، قد تمددت مشرقة كالنور، فهذي مرثية مريرة

لأجلك.



الشكل (٩): الإله شمش ويده الحلقة المدورة وعصا القياس



شكل (١٠): ختم أسطواني من مدينة أور



المفتدين

٦. رثاء أور

يعتبر "رثاء أور" من أقدم المراثي التي عرفها العراق القلم وبلدان الشرق. وبها تأسس جنس خاص في الكتابة. وللأهمية التي يتمتع بها هذا النص الشعري، والذي حاز على خصائص الشعر السومري القلم، سنحاول التعريف به بشكل متكامل، والإشارة إلى أهم ما يتوفر عنه في التداول. ولهذا سنقدم في هذه الدراسة ترجمة د. عوني كرومي عن الألمانية والإفادة من آراء العلماء والخبراء الذين درسوها، وكذلك الإشارة لآراء حديثة عن "رثاء أور" مع تدوين لمقاطع منها. وهذا التوسع وتسجيل الملاحظات سيقودان الدراسة نحو المراثي اللاحقة التي عرفها الشرق، وحصراً الرثاء التوراتي مع إشارات لعناصرها وخصائصها. والفروقات التي لحقت بها. وسيكون اهتمامنا برثاء أور متأثراً من أسباب عدة. أهمها:

لأنه النص الأول الذي عرفته الحضارة العراقية القديمة، وتأسس به لون كتابي، تكرس أكثر في حضارة العراق. وذلك بسبب تحقق الكثير من الويلات والدمارات/ بسبب الكوارث الطبيعية والحروب التي شهدتها دويلات المدن. لسبب ديني أو سياسي.

وكما تلاحق الدراسة - عبر ذلك - التأثير التوراتي بالأدب العراقي القديم، وهذا ما أشرنا له كثيراً في عدد من دراساتنا^(*). وتأكيد الدور التأثيري وفاعلية الحضارة العراقية القديمة.

إن نص "رثاء أور" والذي يعود إلى مرحلة قديمة جداً، يمثل إرثاً إنسانياً وبالإمكان الاشتغال عليه عبر عدد من المجالات الفكرية والفنية وتوظيف عناصره الأساسية في العديد من الأعمال الأدبية والفنية، ولذا كان لنص الذي ترجمه د. عوني كرومي مثيراً للانتباه، باعتباره نصاً مسرحياً، وهذا ما توضحه وتؤكد عناصر النص الفنية. كان الرثاء جنساً أدبياً، عرفه الأدب العراقي القديم. وعلى الرغم من قلة النصوص الخاصة بالرثاء، شكل هذا الجنس حضوراً في تاريخ الأدب العراقي، وتميز بمكانة مهمة ولافتة للانتباه. ويعتبر رثاء أور من المراثي الأولى. وتكرس حول غزو هذه المدينة وتدميرها من قبل العيلاميين / والسوباريين الذين أسهموا مع الأموريين في إنهاء حكم السلالة الثالثة المشهورة جداً في حكم العراق القديم، والتي انتهى مجال سيطرتها عام "٢٠٠٢" ق.م وحدد الأستاذ طه باقر في كتابه "مقدمة في أدب العراق القديم" فترة نظم هذه المراثية في الألف الثاني ق.م وخلال العصر البابلي القديم. ويرقى زمن أقدم نسخ لنصوصها التي وصلت إلينا إلى عهد حكم الملك السابع من سلالة بابل الأولى "١٧٤٩ - ١٧١٢" ق.م وجمع نصها الكامل عن نحو (٢٢) لوحاً وتضمنت زهاء ٤٣٦ بيتاً، وانتظمت في إحدى عشرة قطعة، غير متساوية في عدد أبياتها.

وأول ما يشير إلى الخراب المرتقب، انتقال الآلهة المقيمة فيها، باعتبارها مركز عبادتها. وأول هذه الآلهة، الإله "إنليل" وكان لهذا الإله مع الإله "آنو" دور واضح في قتل وإبادة سكان المدينة وتخريبها، ولم يخفف الإلهان (إنليل - آنو) من غضبهما بعد

(*) ناجح المعموري، الأسطورة والتوراة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، ٢٠٠٢.

توسلات الآلهة (ننكال) وهي إلهة المدينة، والتي تطوعت لاستعطاف الإلهين (إنليل + أنو) نيابة عن زوجها "نانار".

اهتمامي برثاء أور، هو السبب الذي دفعني لدراسة الرثاء التوراتي، ومحاولة الإمساك بالمجال المتشاكل بين الخطابين، العراقي والتوراتي. لأن العراق ظل فترة طويلة، حاضنة لليهود في فترات تاريخية معروفة، واستفادوا فيها من العقائد والطقوس والشعائر والنصوص الشعرية الكثيرة، بحيث وصل تأثيرهم لدرجة التطابق الكلي.

وشغلي نص "رثاء أور" باعتباره نصاً ملحمياً، تنوعت العناصر الفنية فيه، وكان للبشر دور مهم وحيوي، بالإضافة إلى الآلهة.

ولابد من إشارة بسيطة، لها صلة بالمستوى الفني للترجمة ووضوح التباين بين النصين المترجمين.

وعلى الرغم من ذلك فإني ميال لهما معاً. وسيساعدان المتلقي والمهتم بتاريخ الحضارات على رسم صورة مهمة عن النذب العراقي القلم وبالذات المراثي.

٧. المرجع التاريخي للنص

لقد تمثل النص مجموعة من المرجعيات التاريخية وقدمها بهذا الشكل الفني الرفيع. وتتبدى في النص مرحلة من أهم المراحل السياسية، التي تميزت بها السلالة الثالثة، التي حكمت مدينة أور، وحصراً الفترة التي حكم فيها الملك "أبي - سين" عندما هوجمت هذه المملكة ودمرت.

والذي حدث، هو أن المدن سقطت^(*) واحدة إثر أخرى حتى تمكن البدو الرحل في النهاية "١٩٥٠ ق.م" أن يحتلوا المدينة ويأسروا ملكها. فعندما سقطت هذه المدن، ضعفت سلطة عاصمة المملكة السومرية، ولم يعد الأمراء يقدمون القمح إضافة إلى هجمات البدو والفلاحين، فضلاً عن تكاليف الحروب وما رافقها، كان سبباً في تمزق الحالة الداخلية، كانت في خارج العاصمة الهجمات شرسة. وقد انفصل أحد الأمراء عن السلطة المركزية لمدينة أور، وهو نفسه حررها بعد سقوطها بيد العيلاميين.

إن الصراع بين مدن المملكة السومرية التي كان لكل منها إله^(**) أو آلهة خاصة بها، قد انعكس في النص وعلى شكل صراع بين الآلهة وانتصار الآلهة الجديدة. ذلك

(*) د. عوني كرومي، رثاء أور - الأعلام - ٦ - آذار ١٩٧٠.

(**) د. عوني كرومي، سبق ذكره، ص ٩.

لأن صراع الآلهة وما يرافقه من كتابة أدبية أو درامية، ما هو إلا انعكاس للواقع. لهذا نجد في هذا النص كشفاً دينياً لشخصيات النص، إنليل + آنو + الآلهة الكبيرة التي كانت غاضبة على الإله نكال والإله نانا. وفي تلك الفترة حاول الملك "أبي - سين" أن يعقد^(*) اتفاقية صلح مع العيلاميين، لكن الاتفاقية لم تدم. وما حدث هو سجن وأسر الكثير من أفراد الشعب. إلا أن تدمير وتخطيم أور لم يدم طويلاً، بل أعيد بناؤها وتشبيدها من جديد. وربما - كما قال العالم "ميتشل" - تكون فترة كتابة النص الدرامي هي فترة تشييد وتعمير المدينة، وضمن فترة الانتصار والعودة إلى المدينة. وربما - كما قال ميتشل أيضاً - بأن تقدم هذا النص كان بمناسبة إعادة بناء معبد نكال ونانا أو بمناسبة تحرير أور.

وصار نص رثاء أور، نصاً دينياً / سياسياً، ولعب دوراً مهماً في صياغة طقوس دينية وشعائر ثابتة في مملكة أور. مثلما ساهم ببلورة ذاكرة مرتبطة بحياة الناس وتاريخ المدينة لأنه - النص - لعب دوراً وبفاعلية متميزة في إثارة الناس لحظمتما تتعرض مملكة أور إلى الدمار أو السقوط، حيث يكون للنص فاعلية حركية وبلورة متصاعدة للمشاعر، من أجل اليقظة والنهوض، لمقاومة السقوط، والمحتل. ومن خلال الأحداث التاريخية، ظهر لنا^(**) بأن مدينة أور قد تم تدميرها وتخریبها مرات عديدة، وثم إعادة بنائها وتعميرها. فرثاء أور كنص ساعد السومريين من أجل تفهم سبب دمار المدينة، كما سيساعد شعب أور على العمل لتحرير مدينتهم، فيما إذا سقطت تحت سيطرة الأعداء.

ووجود الآلهة المركزية في المرثية، دليل على تكريس هذه الآلهة واعتمادها كآلهة الرئيسة في العراق ومدنه وممالكه. وقد لعب الآلهة دوراً - مهماً - في حياة

(*) د. عوني كرومي / سبق ذكره، ص ٩.

(**) د. عوني كرومي، سبق ذكره، ص ٩.

المدن ودويلاتها، وتميز هذا الدور سياسياً / ودينياً، وسنلاحظ صعود هذا الدور في المراثي التوراتية، حيث حصل اختزال لأدوار الآلهة العراقية القديمة. بشخصية الإله اليهودي / اليهودي، وهذا ما ستكشف عنه مراثي إرميا والتي سندرسها لاحقاً.

لقد استمر الإلهان "إنليل + أنو" بالتعبير عن غضبهما الكاسح على مدينة أور. وظلت الآلهة "ننكال" مستمرة وساعية بكل قوتها الدينية من أجل إيقاف الدمار الكلي / الشامل. وتقدم الآلهة ننكال أنموذجاً للعلاقة بين الألوهة المؤنثة والمدن / الممالك، لأنها تطوعت مكتفية بذاتها / من أجل إيقاف الدمار، وموت الناس، ويبدو هذا الموقف واضحاً بسبب صفة الألوهة وصلتها مع الأمومة / والتعلق الموجود مع الخلق. ولهذه الصفات، حاولت الإبقاء على الحياة والانبعاث.

نشر رثاء أور عن النسخة الألمانية له فوائدها عديدة، لم يوفرها النص المترجم عن الإنكليزية، وأول تلك الفوائد مسرحة النص والمحافظة على عناصره الداخلية والخارجية. وهذا ما يؤكد دقة الرأي الذي أشار إلى أن النص يقدم في المناسبات السياسية والدينية في أور القديمة بعناصر الحياة الأساسية أو ما يشير لها في مملكة (أور). إلا أن الدمار استمر، واتسعت مساحة الإبادة وكان الخراب كلياً، داهم المدينة كالإعصار (وامتلات الطرقات والأبواب بجثث الموتى وتكدست بها. وتعالى أنين الجرحى وصراخهم، ولا من يغيثهم ويسعفهم. لقد هلك الأقوياء والضعفاء جوعاً، ومات كثير من الناس في حرائق بيوتهم، وجرفت المياه الأطفال والرضع. وأنكرت الأم طفلها وتخلت عنه. هجرت الزوجة وتبذت الطفل والتهمت النيران المخازن والأهراء وعملت الفؤوس الضخمة في المعبد / ذلك الطود الشامخ / المنيع. لقد امتهنته ودنسه العيلاميون والسوباريون الذين أحلوا الدمار والخراب في المدينة).

هذا ما انطوت عليه رثائية (أور) مضافاً إلى عدد آخر من المجالات الأخرى /

فكرية / وفنية.

٨. نص رثاء أور^(*)

المقدمة:

عن معاقله وخلف أسواره تواری	رئيس الجوقة
والعاصفة تزجر عاتية في المدارات	الجوقة
الثور الوحشي خلف حضائره وأسواره تواری	رئيس الجوقة
والعاصفة تزجر عاتية في المدارات	الجوقة
سيد البلدان عن معاقله وخلف أسواره تواری	رئيس الجوقة
والعاصفة تزجر عاتية في المدارات	الجوقة
زوجة "نليل" خلف الأسوار توارت	رئيس الجوقة
والعاصفة تزجر عاتية في المدارات	جوقة النساء
الإله عن أسوار معبدها-كيور تواری	رئيس الجوقة
والعاصفة تزجر عاتية في المدارات	الجوقة
نانار الأوري خلف الأسوار تواری	رئيس الجوقة
والعاصفة تزجر عاتية في المدارات	الجوقة

(*) د. عومي كرومي، رثاء أور، سبق ذكره.

الإله سن وراء معبد أكشنوكال توارى	رئيس الجوقة
والعاصفة تزجر عاتية في المدارات	الجوقة
زوجة الإله نيكال خلف الأسوار توارت	رئيس الجوقة
والعاصفة تزجر عاتية في المدارات	جوقة النساء
الإله نيكال من معبد أنيونكوك توارى	رئيس الجوقة
والعاصفة تزجر عاتية في المدارات	الجوقة
سيد مدينة كنيرشاك خلف الأسوار توارى	رئيس الجوقة
والعاصفة تزجر عاتية في المدارات	الجوقة
تموز خلف معبد كنيرشاك توارى	رئيس الجوقة
والعاصفة تزجر عاتية في البحارات	الجوقة
وسيد مدينة كوابي توارى	رئيس الجوقة
والعاصفة تزجر عاتية في المدارات	الجوقة

المشهد الأول:

العاصفة تجثم في تخوم المعازل تصخب هادرة في المدارات	رئيس الجوقة
البقرة التي تحس العاصفة هجرت حضيرتها، ومنازل النبلاء مبعثرة في العراء "تصاحبهما الألحان	رئيس الجوقة
أواه أيتها المدينة أرثي نفسك مر الرثاء واهمري الدمع	نانار
البكاء مرير على خرائب المدن، البكاء مرير على أور الدمار	الجوقة
بكاؤك مرير.. إلام يرثيك سيدك الحزين بمر البكاء، إلام يبكيك نانار الحزين عظيم البكاء.	نانار

رئيس الجوقة أواه يا أسوار أور احزني واهمري الدمع الغزير. آه أيتها المدينة التي حملت اسم إلهها وانتزعت معه من الأرض. أواه أيتها المدينة تلك أسوارك التي حمتك طويلاً، ورفعت إلهك هاهي تنتزع من الأرض أواه يا مدينتي أنت نعجة حزينة سلب حملها.

أواه يا أور الجلييلة أنت نعجة انتزعوا جنينها من الأحشاء. أواه أيتها المدينة تماوت مقدساتك المتلاثلة واستحالت ضيعاتك فيما بينها أعداء.

نانار بكاؤك مرير. إلام يبكيك سيدك المفجوع أمر البكاء إلام يبكيك نانار الحزين عظيم البكاء؟

المشهد الثاني:

رئيس الجوقة إلام البكاء ضارب على خرائب المدن، فاجع البكاء ضارب على أور الدمار "ترافقها الألحان"

رئيس الجوقة تراكم الحزن على المدينة. من نانار اغتصبت الأرض وعصف بأور الرثاء، وسيدة المدن الشرعية ترثي أور الحبيبة. الآلهة ننكال مضطربة البال.

المعلق هاهي ننكال تقترب من المدينة، تبكيها مر البكاء. وعند سيد المعبد الخرب تدفق نواحيها المرير تبكي معبد مدينة الدمار، السيدة تضع آلة النواح الناي على الأرض وتأخذ في الصراخ.

ننكال شردني عويل العاصفة، أنا التي يوجب داخلي إعصار الرياح. الريح تعصف بوجهي طوال النهار.

ارتجف خوفاً مشلولة في قبضة الأيام.

عاصفة البؤس هذه حملت أسيادي الأحران

يعصف في عواء الرياح

ارتعب خوفاً من وحشة الليل، مشلولة في قبضة الريح

الرياح طرحني بعيداً في ليل المعسكرات فاقدة الحياة

وفي أتونها اكتشفت الصراع والكفاح

لا.. لا قوة تسلبني إرادة النضال

شردت من بلدي، لكنني أرفض الانحلال

الفقر والبؤس اجتاحا بلدي كطاعون وأنا أجهد

كبقرة ترضع وليدها خلف الأسوار

لا.. ولن أسلم بلدي إلى الطغاة

الفقر والبؤس اجتاحا وطني كطاعون

وأنا كطائر فوق مدينتي يخفق في السماء

وفي الصحراء صرخت بها غضبي

إلى الوراء أيتها العاصفة إلى الوراء

وأسفاه الهزال يهدني في مقارعة هبوب الرياح

أنا امرأة سيدها راعي معبد أنو المقدس

الذي لم يعمر طويلاً في الحكم

أغرقوني مع معبدي ومدينتي بالدموع والرتاء

أين أنت؟

أواه أيها الشعب ذو الرؤوس السوداء

لقد قرعوك باحتفالات طافحة بالحزن والغضب

أواه أيتها العاصفة الشريرة، أنت تحرميني من

رؤية معبدي الشرعي الخرب وأججت في دخلي

مرارة النوح

معبدي الشرعي الذي شاده السيد

تهاوى نو كال. بيتي الحقيقي

بيتي الملكي غرق بالحزن والدمع

استحال خراباً ورماداً

وإعادة تشييده أمر عسير

هكذا القدر أرغمني في هذا المصير

معبدي دفعته العواصف في برزخ قفر

ككوخ هشيم تنهشه عواصف المطر

أواه يا معبدي

أواه يا أور يا مدينتي الغنية

أور ملكي رحابها تغرق

نهبوا غلالها واكتسحت كحضيرة راع رميمة

المشهد الثالث:

المعلق أور غارقة بسيل الدموع "يرافقها اللحن"

الجوقة عندما حلت العاصفة كحاكم متجبر

وأودت بالمدينة وسيدها في الحضيض

ننكال طردت من أرضي، تركت مدينتي

ولأنني عزلاء من السلطة والنفوذ

وأمام أور سكبت الدموع

توسلت إلى "إنليل" الإله

قلت لهم مدينتي لن يمسه الخراب

أور لن يمسه الدمار

شعبي لن تقهره الرياح

لكن أنو لم يوقف الأخطار

ولم يستطع "إنليل" وآلهته

أن يشفوا قلبي من الحزن المرير

وثانية في الإجتماع في المكان العالي الرفيع

جلس أنو مهيمناً يؤدي الواجب الإلهي

بسطت ساقى وذراعي ممدودة شاكية هكذا

الجوقة أمامهم سكبت الدموع، توصلت إلى شخص "إنليل" قائلة

ننكال مدينتي لن يمسه الدمار

شعبي لن تقهره الرياح

لأن أنو لم يوقف الإعصار

ولم يستطع "إنليل" وأهته

أن يشفوا قلبي من الحزن المرير

وصدر للعواصف أمر إلهي

أوامر قاطعة لتخريب أور

أوامر قاطعة لقتل شعبها الكبير

كأنني حددت لهم الموعد القريب

شردوني من مدينتي، سلبوا مني أور

لا رغبة للإله أنو بتغيير القرار

ولا رغبة للإله "إنليل" بتغيير القرار

المشهد الرابع:

رئيس الجوقة الإله إنليل استعان بكيبك وأنادي

على الريح السماوية الهائلة

صرخ "إنليل" بالعاصفة أمراً

أعطى لها صلاحية الدمار الرهيب

العاصفة الشريرة نادت على الرياح المدمرة

حملت بيدها المخطط الرهيب

العاصفة الشريرة تزجر في السماء

العاصفة البغيضة تهدر في الفضاء

العاصفة الشريرة طردت رياح سومر الطيبة

طردت روح البلاد

الرياح الشريرة لا يمكن صدها كموج عات

تهجم سفينة المدينة

تدفع بها ممزقة إلى القرار

الشعب عند الأفق يجمع شتاته

وأمام العاصفة يتناثر كالنيران

العواصف والزوابع الإلهية

تطرد بالنار المطر

تقصف الأرض لهيباً

رئيس الجوقة الريح تعصف بالشعب ذي الرؤوس السوداء

وعلى سومر يهجمون بالعصى الغليظة

حجزوا الشعب داخل الأسوار الشاهقة

انقضوا عليه يلتهمونه

نكال العاصفة الشريرة لا يطردها الرجاء

العاصف البغيضة قيدت الشعب

شيدت على الأرض العبودية

تمركت العاصفة دوالياً

تمتلك أعراض النساء

الجوقة سلط الرعب على الشعب كنار حارقة

عاصفة "إنليل" البغيضة

اقتحمت المدينة من الشباك

صبت الرعب على المعابد والأسوار

المشهد الخامس:

المعلق هجمت العاصفة الهادرة

صبت غضبها على المدينة

واستحالت أنقاضاً رميمة

الجوقة مدينة نانا الرب

تحولت إلى ركام بغيض

طردت من البلاد الريح الرحيمة

الشعب مبعثر في البراري الرحبية

رئيس الجوقة في أسوار المدينة حدثت ثغرة كبيرة

الجدران أصبحت بوابة مفتوحة وحيدة
جرجروا الشعب إلى ساحة الاحتفال
وفجأة ظهر القدر أفعى حثيثة
تساقطت الجثث في الساحات ثكلى غزيرة
إلهة النار تدفع بكتل الأجساد
في مصهر الرصاص والنحاس
ذائبة كشحم الخراف على أتون الشمس النارية
الذين ألقوا بفؤوس القتال بعيداً
أصبحوا كخرقة بالية
مثل غزال مصاب الساق
مرغوا أفواههم بالتراب
والمصابون بالرماح
لم يسعف أحد تلك الجراح
كنّ يصرخن كصراخ الولادة
كصراخ أمهات في احتضار
الذين ألقوا بأسلحة الآلهة جانباً لم ينالوا الرحمة ولا الطعام
وقبل تجرع الثمالة
سقطوا صرعى على الأرض

المعلق

ضحايا السلاح، هم الموتى العزل
أما الرجال الأحياء فوققوا بصمود شامخ
ضد هدير العواصف الهوجاء
الجوقة
في أور سحق الجوع الضعفاء والأقوياء
أقفلوا البيوت على الآباء والأمهات
الصغار مستلقون في أحضان الأمهات
سبحوا في عرقها كما يسبح السمك في الماء
رئيس الجوقة
الحراس الأقوياء فقدوا القوة
سيد البلاد أصابه الخراب
حاكم البلاد سقط في الفرار
أشاحت الأم بوجهها عن الأطفال
هرب الآباء عن الأبناء
الجوقة
على أرصفة المدينة مرغوا الأزواج على التراب
على أرصفة لمدينة ضربوا الأطفال
وفرضت الضرائب وانتهكت الأملاك
هرعت الوجوه السوداء مذعورة
تبحث عن مأوى في سائر الأرجاء
رئيس الجوقة
هربت سيدة المدينة مثل طائر آفاق نكال هربت من المدينة كطائر

آفاق

ننكال هربت من المدينة كطائر آفاق

يد الخراب هدّت البلاد

رئيس الجوقة

وشبت النيران في الغلال

وهدّ جييل الرجل الباهت اللون القنوات

الجوقة

بفؤوس قاضية

العلاميون والبرابرة حصلوا على ثلاثين قطعة نقود

المعلق

جزاء وحشية الأفعال

سلطوا على المعابد الشرعية آلات الدمار

رئيس الجوقة

أحالوا المدن إلى خرائب حقيقية

وتصرخ السيدة من خلال الدموع

آه يا مدينتي، آه معبدي

ننكال

ننكال تصرخ حزينة غارقة بالدموع

رئيس الجوقة

آه يا مدينتي، آه يا معبدي

ننكال

أنا امرأة مدينتي خراب

وبيتي ركام

آه يا نانا شعب أور قتيل وشريد

آه يا نانا مدينة أور في دمار

المشهد السادس:

رئيس الجوقة	النساء تنوح خلف البيوت والأسوار
	العاصفة الشريرة دمرت المدينة "أناشيد"
رئيس الجوقة	دخلت إلى المدينة نكال كعدو خلسة
	وناحت على مقدسات المعبد بالصراخ
	ناحت على مقدسات أور بالخراب
نكال	سلط أنو اللعنة على مدينتي
	وحلّ الخراب
	"إنليل" اغتصب معبدي
	وسلط الدمار
معلق	ومن تحت الأسوار قذف المدينة بالنيران
نكال	آه يا مدينتين لقد هدهما الخراب
المعلق	ومن الذرى قذفها الإله إنليل بسيل النيران
	ومن خارج الأسوار قذفها بسعير النيران
نكال	آه يا مدينتي يتحتم عليّ الصراخ
المعلق	ومن الجوف حطمت النيران المدينة
نكال	آه يا مدينتي يتحتم عليّ الصراخ
المعلق	ومن الجوف حطمت النيران المدينة

نكّال	آه يا مدينتي يتحتم عليّ الصراخ
	منازلي في المدينة استحالت إلى دمار
	آه يا مدينتي يتحتم عليّ الصراخ
	منازلي في ضواحي المدينة استحالت إلى قفار
	آه يا أور يتحتم عليّ الصراخ
امراة (١)	مدينتي لم تعد كأم حنونة
الجوقة	آه يا مدينتي لم تعد أماً حنونة
	كنعجة تواري عنها راعيها الأمين
المرأة (٢)	أبقاري هربت من حضائرها
	واختفى بعلها الحنون
المرأة (٣)	أغنامي هربت من أسوارها
رئيس الجوقة	واختفى راعيها اليافع الرحيم
رجل (١)	غمر المطر قنوات مدينتي
	مملوءة كالقبور
رئيس الجوقة	اختفى وجف فيها سيل الماء العليل
رئيس الجوقة	اختفى الفلاح
نكّال	ولم تعد حقولي تنتج القمح
	حقولي يغمرها الموت

يملؤها مغشوش العشب
حدائقها العامرة بالعسل والخمر
تملؤها الآن عناقيد الشوك
جنائني الطافحة باللذائذ
استحالت مصهراً يقذف الموت
اختفى الرجال

كطير سقط من السماء جريح
آه يا رجالي لقد هربتم في منحدر
ومنحدر عميق

ننكال

وهكذا يتحتم عليّ القول
آه يا قومي، لقد تلاشيتم في الخضيب
هكذا يتحتم عليّ القول

تعبثت حلبيّ ومجوهراتي الثمينة
آه قومي، هكذا يحتم عليّ القول
جهلة لا يفقهون نادر المعادن

المعلق

رمدوا بها الأجساد
طيوري الحبيبة هربت من أقصائها
آه يا مدينتي هكذا يتحتم عليّ القول

ننكال

فتيان هربوا باكين

آه أحبتي هكذا يتحتم عليّ القول

ويحي أبنائي يحملون إشارات مدن غربية

نانار

أبطال سكان عدن

المرأة

في الغربية وفي السجن قابعون

ويحي مدينتي استحالت سراياً

نانار

وضاعت مني سلطتي

آه يا نانار

المرأة

أور فقدت الوجود

وأضعت فيها سطوتي

آه يا نانار

معبدتي تحول خراباً

مدينتي تحولت إلى الدمار

يا سيدتي الكبيرة أنا من بيني لك مدينة

غير هذا المعبد

نانار

لكن مدينتي تحولت قفاراً

ومعبدتي هذه الدمار

ننكال

لا لا بيني لك معبداً آخر

نانار

ننكال

غير هذا المعبد

ننكال

ويحي لقد تحطمت المدينة

واستحال المعبد إلى خراب

آه يا نانار

لقد هوت مقدسات أور

وذبح البرابرة الشعب

ويحي أين الجأ، أين أذهب؟

ويحي وأسفاه

لن تبني مدينة ولا معبد يقام

سيلدي

نانار

لا معبد ولا مدينة غيرها تقام

يشيد هنا في الرحاب

ننكال

لقد تشرذ القوم عن مدينتي

وعن جنائن عدن الخضراء

يا أبناء وطني هكذا يحتم عليّ الصراخ

تشرذ القوم من أور الحبيبة

الجوقة

آه يا معبدي

المرأة تستغيث من محبومة

المعلق

آه يا مدينتي... آه يا مدينتي

ننكال: تنتزع الشعر من الأقفاف

عينها مليتان بالدمع

المعلق

تنوح بأصداح الناي

ويحي لن تبني مدينة أخرى

ننكال

لن يشيدوا معبداً في الرحاب

لسيدتي الكبيرة يشيد معبد آخر

نانار

ويحي مثلي كبقرة أضاعت الحظيرة

ننكال

ويحي أنا السيدة الكبيرة

مثلي كراع تهاوى

من ذرى الأسوار جريماً

ويحي فقدت الأمل وراحة البال

طردوني من المدينة

ويحي أنا السيدة لا يحتضني مأوى

أهيم كغريب في مدينة غريبة

آه كنت أحيا هيئة

أما الآن فأسكن بؤس القفار

لأتفه بكلمة حول سيدة البلاد

المعلق

في هذه اللحظات تقترب إلى نانا

أواه يا أسوار أور

ننكال

الغارقة في السيل العارم

أواه يا معبدي الخاوي

أواه يا مدينتي الصامته كميناء مهجور

أنت تقبعين في الركام

نانا

كثور طريح جريح

ويحك هل إعادة تشييد المدينة

ننكال

أمر عسير

أواه أيتها المرأة

نانا

أواه يا مدينة أور

أواه أيتها المقدسات

دم القرابين في جفاف

أواه يا أنكولوك يا معبدي الطهر

كنت تميد بالحشد

واليوم يملؤك صفيح الرياح

أواه يا مدينة الضياع

أواه يا مدينتي الغارقة في القرار

أواه يا مدينة الاحتضار
أواه يا مدينة عصفت بها شر الرياح
أواه يا معبد سين في أور
إن خرابك مر

المشهد السابع:

المعلق آه يا مدينتي، آه معبدي
"أناشيد"

نانار سيدتي ستقيمين هنا

كما يحلو لك المقام

آه يا نكال ستقيم هنا

كما يحلو لك المقام

آه يا سيدتي الشرعية، لقد دمرت المدينة،

والآن عامرة تتألق بضوء النهار

نانار آه يا نكال، يا من عصفت بالمدينة هباباً

أما الآن فأحيا كما يطيب لك المقام

مدينتك هدها الطوفان

أما الآن فتشع بالضياء

وبعد غرق المعبد

أعيد شامخاً البناء
مدينتك كانت غربية
أما الآن فهي عامرة الأرجاء
هذا هو معبدك الذي أغرق بالدموع
أما الآن فانعم بظليل الأرجاء
مدينتك كانت غربية
واليوم تتألق بالبهاء
مدينتك كانت ركاماً
وأنتم مشردون في البراري القفار
أما الآن فانعموا بالراحة والاستقرار
معبدك الذي شيد من الحجارة شاهقاً
جموع الشعب بحاجة إليه
فاخرجوا راقصين باحتفال
لست بحاجة إلى مذبحه
كالتى وقع فيها شعب الرؤوس السوداء
لم تعودى بحاجة إلى المذبح الشنعاء
نضبت على الأرض الدموع والتوسلات
الأرض أنجزت الوعد وأخرست الأنين على الأفواه

مديتك كانت أنقاضاً

والآن تتألق بالبهاء

معبدك كان هشيماً

أما الآن فينعم بالرفاه

أور المقدسة، كانت تنهشها الرياح

أما الآن فهي زاخرة بالأفراح

بشيشو لم يعرف التآلق

والآن ينعم بالضياء

لم يحافظ على جيار سالمة

السيدة:

أما الآن فينطلق بالقناعات

سارق المقدسات يرجعها ثانية

إلى شعبك ذوي الرؤوس السوداء

ويعيد الجنائن المقدسة

الأب نانار

وسيدي العظيم في كيكون لم يعد متلفلاً

لم يعد متلفلاً في خرقة من قماش

والسيد الشرعي الحبيب

الآن، يحيا باسماً في أشنيكار

والسيد الأعظم جذل لم يغادر الأسوار

المعلق	الزينة لم تنجز في (أهو) مقام الاحتفالات
	ولم يبدأ النقارون ولا الضاربون الاحتفال
	وشعبك ذو الرؤوس السوداء لم يغسل الأدران
	كقبعان الأواني السوداء
	أما الآن تنعم الهيئة بالبريق والجمال
نانار	أما أغانيك الحزينة فلتصبح طروبة تصدح في الآفاق
ننكال	ليتم تنفيذ الأمر سريعاً
المعلق	موسيقى الشعب النائمة تحولت إلى الأفراح
الجوقة	أبقارك عادت إلى حظائرها
	وستنعمين بالألبان
	أغنماك عادت إلى حظائرها
	وستنعمين باللحم والأصواف
	وعمال الحظائر الذين لم يقدموا العطاء
	أما الآن فينتظرون الإشارة
	والرعاة الذين لم يجلبوا رضائع الأغنام
	أما الآن فيمثلون لصاحبة المقام
	والسماكون الذين جفت أنهارهم
	الآن ينتظرون مشيئة الأرباب

والصيادون الذين أصابهم الكفاف
هم الآن طوع سامية المقام
ومياه أنهارك الناضبة
الآن عامرة بمواكب السفن
تروي حقول الزنبق والأقحوان
دروبك المليئة بعناقيد الشوك
تمخر رحابها العربات
مدينتك تنتظر كأم حنون
عودة ملكة التخوم
أور تبحث في الأرجاء
كطفل هائم يبحث عن أمه الحنون
معبدك يمد اليد إليك
كلهفة رجل يحتضر
أسوار المعبد الشرعي تنادي
أين أنت ... أين أنت
سيدتي.. لقد أحبيت شعبك
هل تعتزمين الرحيل عن المدن
الأم نكال كبقرة في الحظيرة

المعلق

الأم نكال كخروف في الحظيرة
الإله الأكبر أنت معنا كبقرة في حظيرتك القديمة
أنت هنا كبقرة في حظيرتك القديمة
أنت امرأة يافعة في مخدعها الوثير
إنك قديسة في معبدك القدير
"أنو" سيد الآلهة ملزم منك
بانتزاع قناعة الرجوع
"إنليل" ملك البلاد ملزم
أن يقرر المصير
مدينتك الشرعية الشامخة
يعود الإله إليها في سلطانه العظيم
أور الحبيبة الشامخة
يعود الإله إليها في سلطانه العظيم

المشهد الثامن:

المعلق لقد تغير قدري

- أناشيد -

رئيس الجوقة آه أيتها العاصفة البغيضة

لقد دحرك شعب البلاد

عواصف السماء الهائلة

زجرت في ضروب الزمان

زرعت الألم في أرجاء البلاد

دحرها شب البلاد

الجوقة

العواصف التي هدّت المعابد والمدن

رئيس الجوقة

دحرها شعب البلاد

الجوقة

العواصف دمرت شاهق الأسوار

رئيس الجوقة

وأطلقت عباب المياه

دحرها شعب البلاد

الجوقة

العواصف التي نالت بالأيدي القذرة محارم المقدسات

رئيس الجوقة

دحرها شعب البلاد

الجوقة

العواصف التي أجهضت الطيب في البلاد

رئيس الجوقة

دحرها شعب البلاد

الجوقة

العواصف التي شردت الشعب ذوي الرؤوس

رئيس الجوقة

السوداء

دحرها شعب البلاد

الجوقة

"أناشيد"

٩. شخصيات النص (*)

يمكن تقسيم الشخصيات المتصارعة في النص إلى:

الآلهة التي دمرت مدينة أور وهي / إنليل / آنو / مونليل:

أما الشخصيات الأخرى التي كافحت من أجل المدينة: الآلهة نكال وناناز / وشعب أور. ونجد من خلال الأخبار في نهاية النص، أن مواقع الصراع تتغير ويصبح الإله الغاضب راعي المدينة وحامياً. وبهذا يحقق فعل التحول في بنية الشخصوس، خلال الصراع. مثال ذلك الإله "إنليل" الذي هو في النص كبير الآلهة، مثلما هو حقيقة في مجلس الآلهة "البانثيون" العراقي، قد حطم المدينة مع جماعته، وكذل أعيد بناؤها بأمر منه. لكن هذه الشخصيات ليست واضحة وضوحاً درامياً / وتاريخياً (**)، لذا نرى أن "إنليل" في الأصل هو إله العاصفة / أو الريح، وهو رئيس مجلس الآلهة عند السومريين / والآكديين، وهو الأقوى والمسؤول عن كل شيء وباستطاعته أن يقوم بكل الأعمال الخيرة والشريرة، ونانار ابن كبير الآلهة إنليل ونليل ويقابله عند الآكديين الإله "سين"

(*) د. عوني كرومي، سبق ذكره، ص ٩.

(**) د. عوني كرومي، سبق ذكره، ص ٩.

ونانار هنا إله القمر وزوجته نكال - كما تقول الأسطورة - وقد خلقوا الإله - أوتو - إله الشمس.

أن الإلهين الزوجين كانا إلهي مدينة أور، وبالرغم من أن هناك شواهد على أنهما - في بعض السلالات - كانا إلهي مدن أخرى.

إن الشخصيتين المركزيتين "نكال ونانار" يمثلان بعضاً من وظيفة الآلهة "أنا / عشتار" إلهة الرغبة والحب وكذلك الإله دوموزي / تموز، ولهذا أعتقد ميتشل ونوح كرىمر من أن النص يعود للإله دوموزي / تموز وطقوسه المعروفة. واستناداً إلى هذا الافتراض نستطيع أن نعود بأذهاننا إلى عروض الزواج المقدس، وما تطورت عنه من نصوص درامية، مثلما تطورت دراما موت تموز عند البابليين بمأساة الإله "بعل / مردوك".

نعرف من خلال نص "رثاء أور" أن الشخصيات الرئيسة للدراما هي الآلهة، وأنصاف الآلهة / والشعب. ويؤكد الأستاذ "ميشل" بأن سبب هذا الاختيار للشخص، يعود لاعتقاد السومريين من أن الإله رمز لظاهرة مهمة وحاسمة في الطبيعة مثل النار / الماء / الريح، التي كانت تلعب دوراً أساسياً في حياة المجتمع القلم، والسبب الثاني، هو أن لهذه الآلهة ممثلين على الأرض حاولوا أن يمنحهم صفات الألوهة وخاصة الملك، ومن هنا يمكن أن نقول أن الصفة الدرامية للشخصيات هي تكثيف لرموز الصراع في الحياة.

عندما قرر الآلهة تدمير مدينة أور وبلاد سومر عطلوا العمل تماماً بالنواميس الإلهية المعروفة بالمى (ME) والتي كان غيرها تدار شؤون الحياة والكون، وبعد حصول الدمار وجفاف الحقول وجذب النهار، تعطلت علاقة الإله نانار بمدينة أور، وسمح

للأغراب بدخولها واحتلالها وأخذ ملكها (أبي - سين) أسيراً إلى بلاد عيلام، ولم يعد منها - كما قال العلامة طه باقر.

إن نص "رثاء أور وبلاد سومر"^(*) مختلف عن المراثيات الأخرى، في شكله الخاص ومحتواه. وقد انتبه مؤلف الرثاء إلى أهمية المفردة وانتقائها لتعبر عن محنة المدينة وحزن الناس العميق. لذا ظل المتلقي في صلب النص، مأخوذاً بقوته المأساوية وصعود عناصره الدرامية. ويشعر المستمع بكآبة وضيق صدر، تثقله رتابة النواح وتكراره وتنشد هذه المراثية، في مناسبات اللوعة والبكاء على ماضي ليس ببعيد، كانت تنعم فيه بلاد سومر ومدينة أور بازدهارها وبمجدها.

ويبدو أن سبب طغيان نيرة الحزن والتفجع المرتفع، هو المصير الذي آل إليه الملك (أبي - سين) وهو حفيد الملك "شولكي" وترك مصيره في الأسر حزناً كبيراً وهموماً واضحة في نفوس الناس. ولهذا السبب كانت المراثي، وخصوصاً هذه المراثية الطويلة، المشحونة بالحزن والتفاؤل والانبعاث أيضاً. وتضمن هذا النص - كما قال طه باقر - أسماء الكثير من المدن السومرية التي اجتاحتها الخراب والدمار، وبلغ عددها أكثر من أربعين مدينة ابتداءً بمدينة كيش / وأريدو / أور / وسومر.

وأكثر الأصوات إثارة للمشاعر والتكافل، صوت الآلهة الأم / السيدة العظيمة - ننكال - النادية لمدينتها العظيمة أور / وهلاك أهلها، ويشد حزنها وهي ترى الخراب يكتسح مملكة أور وبلاد سومر كلها. لذا ارتفع صوت الأم العظيمة بالبكاء والعويل.

(*) قاسم الشواف، ديوان الأساطير، سومر وأكاد وآشور، الكتاب الثاني، الآلهة وابتشر، قدم له: أدونيس، دار

الساقى، ١٩٩٧، ص ٢٨٣.

ويقف مواجهاً للأم العظيمة نكال، الإله المتغطرس "إنليل" الذي يحتفظ بتاريخ معروف في الولايات وتسبب الطوفان والأوبئة، يقف ضدّاً للأم نكال، حيث رفض وبعنف توسلات الإله "نانار" وتضرع الأم "نكال" واكتفى بمراقبة ما يجري من دمار / موت وانتهاء كامل للحياة. ويستمر إنليل برفضه لتوسلات الإله "نانار" واستغاثاته المتكررة من أجل إنقاذ مدينة أور، والحفاظ على معبده فيها. ولم يكتف (إنليل) برفض الطلب، وإنما أسمع قاسي الكلام ووبخه على تشفعه لمدينة أور / التي كتب عليها الدمار في مجمع الآلهة، وهو قرار لا يبدل ولا يرد. فإن أور استوفت نصيبها من الملوكية. وينبغي نقلها إلى مكان آخر، لأنه لم يقدر أن تدوم الملوكية في بلد واحد. وأمر "إنليل" إله المدينة أن يتخلى عن مدينة أور. قال الأستاذ / العلامة طه باقر: فهجرها على عجل ومع زوجته - نكال - وبقية آلهة المدينة. وعندئذ أسلمت أور إلى أعدائها، فاعملوا فيها الدمار والقتل والنهب، وأضاف الأستاذ - باقر - وسلط على من بقي منهم حياً القحط والمجاعة واستسلم المدافعون عن المدينة وفتح أبوابها إلى العيلاميين.

وفي المشاهد الأخيرة، يضيء النص لنا مأساة مملكة أور، وما عاشته الآلهة نكال، وهي ترى بعينها خراب المدينة واكتساح معبدها.

إنها بكائيات "نكال" / الأم في أور وهي ترى انهيار كل شيء.

وفي المشاهد الأخيرة، تتضح قوة المراثية وصدمتها وفجيرة الإلهة الأم وخسارتها. إنه مشهد درامي مثير، لا تقوى النفس على ضبط إيقاعها وهي تقرأ هذه الأناشيد.

ويرتفع رثاء الأم العظيمة / السيدة التي تكلمت^(*) بحزن عن مدينتها والأسباب التي دفعت إلى تحطيمها، ويشند تأسى الشعب، وتساعد الأزمة العامة سياسياً / ودينياً.

(*) د. عوني كرومي، سبق ذكره، ص ١٠.

فالنساء ييكن أمام "ننكال" التي تأثرت وارتفع فعلها المأساوي، حيث تماوت القوة التي استهدفت المدينة. ويتجسد الفعل المختلف حيث الأم "ننكال" ومن خلال مأساتها تحت شعب أور على الوقوف أمام هذا القدر. ويوحى النص بأن مأساة الأم العظيمة "ننكال" ستتغير حتماً. بعدما يبدأ الإله "نانار" بحاله التكافلي مع الأم العظيمة، والسيدة "ننكال" وتقرب من الإله "نانار" مثل شخص يشتكي لشخص أكبر منه. ويبلغ النص في هذا ذرته السببية / الدرامية.

ويدخل شعب أور طرفاً مهماً بالمشاركة مع الإله نانار، ويرثيان حتى الآلهة التي أخطأت وغادرت المدينة المهدامة والتي اجتاحتها الوباء، وخيم عليها الخراب الكامل وتلعب الأم دوراً جديداً، ومهماً متمثلاً بصرختها للآلهة كي ترجع إلى أور، ومن أجل إعادتها لحظيرتها الأولى / السياسية / والدينية، ويعاد البناء والإعمار ويعالج كل الذي دمره الخراب.

وفعالاً يتحقق فعل العودة / ولم يكن فعلاً مجرداً، وإنما مترامناً مع الإصلاح والتشييد، وعودة السكان إلى مدينتهم وهم يمارسون طقوس الاحتفال والنصر ثانية وسط مدينة لن تنسى أبداً ما حصل لها، حتى لا يتكرر ذلك مرة ثانية.

* * *

سنقدم بعضاً من مقاطع "رثاء أور" وبترجمة مختلفة لأنها تميزت بشعريتها العالية، والغرض من ذلك توفير فرصة أخرى للمتلقى في تعامله مع نص مثل "رثاء أور"

من حظيرته ولى وغاب، في حرمة^(*)

تنفخ الريح

الثور، من حظيرته ولى وغاب

(*) قاسم الشواف،/ ديوان الأساطير، سبق ذكره، ص ٢٨٣.

في حرمة تنفخ الريح
سيد كل البلاد، ولّي وغاب
في حرمة تعصف الريح
الإله إنليل من معبده في نفر
ولّي وغاب، في حرمة تنفخ الريح
المجموعة:

معبد الإله مُدَمَّر مدينته

أغرقتها الدموع

عند ذلك أيها الإله نانا، الناس

في بلدك تَمَّت إبادتهم

وأور ضاعفت تفجعاتها

الآلهة، السيدة المقدسة، لكي

تنوح علي مدينتها أور

ديوان الأساطير / ص ٣٩٤

* * *

في ذلك اليوم، عندما أصابت

العاصفة قلب الإله القمر "نانا"

المدينة، أمام سيدها، تم تخريبها

في ذلك اليوم، عندما أحزنت

العاصفة قلب الإله

وعندما أصدر الأمر بدمار مدينتي بكاملها

عندما أصدر الأمر بدمار مدينتي بكاملها

عندما أصدر الأمر بدمار أور بكاملها

وعندما أعطى الأمر بإبادة شعبها

في ذلك اليوم، أنا، من أجل

إنقاذ مدينتي، لم أراجع

عن بلدي، أنا، لم أحول قدرتي

أمام "آنو" سكبت دموعي

أمام الإله "إنليل" أطلقت

شخصياً تفجعي

يجب ألا تقدم مدينتي، قلت لهم

يجب ألا تقدم (أور) قلت لهم

يجب ألا يباد شعبها

ولكن "آنو" لم يستجب لهذه الكلمات و

والإله "إنليل" عندما قال "حسناً، حسناً"

لم يشف غليل قلبي

وللمرة الثانية، عندما عقد اجتماع

المجلس الموسع

وعندما اتخذ "الأنونا" الإلهيون أماكنهم

وهم الذين أصبح بواسطتهم

كلمات الآلهة ارتباطاً

* * *

أصدروا قرارهم بتدمير المدينة

بتدمير أور، أصدروا قرارهم

ولشعب "أور" قرّروا الإبادة

ديوان الأساطير / ص ٣٩٩ - ٤٠٠

* * *

أيتها السيدة، هذا ما يشعر به قلبك

هذا ما آلت إليه حياتك

أيتها الآلهة.. هذا ما يشعر به قلبك

هذا ما آلت إليه حياتك

أيتها السيدة المقدسة، أنت التي هدّمت

مدينتها، مثل ما نحن ننشد، هكذا أنت أنشدت

أيتها الآلهة... أنت التي دُمرت بلادها

هذا ما شعر به قلبك

بعد قهلم مدينتك، مثل ما نحن ننشد

هكذا أنت أنشدت

بعد تخريب معبدك، هذا ما شعر به قلبك

مدينتك أصبحت مدينة غريبة، ومثل ما نحن

ننشد، هكذا أنت أنشدت

معبدك أصبح بيتاً للدموع

هذا ما شعر به قلبك

ما عدت سيدة مدينتك

التي حولت إلى أنقاض

ما عدت تستقرين كساكنة في معبدك المقدس

الذي هدمه الفأس

ما عدت تقودين كعاهلة

شعبك الذي اقتيد إلى المذبحة

ما عدت تملكين دموعك

بلا دموع، وبلا ميراث

أصبح في بلد غريب ساكنوه

شعبك وكان الكلمات أتعبته

أبقي فمه مغلقاً

ديوان الأساطير / ص ٤١٤ - ٤١٥

* * *

يا للبؤس! يا للمصير! أريد أن أصرخ

مرّ هو مصير مدينتي

أنا السيدة، آه يا عبدي المهدم، أريد

أن أصرح، مرّ هو مصير معبدي

آه! يا جدار أور، يا جداري الذي هُدم

جداري الذي أصبح به!

يا معبدي المقدس، يا مدينتي التي تحوّلت إلى خراب

في أنقاض معبدك المقدس والمهدم

تمددت بالقرب منك "يا مدينتي"

مثل ثور مذبوح

عن جدرانك لا أستطيع الانسلاخ

يا للكارثة! بناؤك كان خداعاً

ومرير هو خرابك

المشهد التاسع:

الجوقة العواصف التي تجهل مكانة الآباء

دحرها شعب البلاد

رئيس الجوقة العواصف التي تجعل رابطة الأزواج

الجوقة دحرها شعب البلاد

العواصف التي تجهل رابطة الأزواج	رئيس الجوقة
دحرها شعب البلاد	الجوقة
العواصف التي تجهل حنان الأخوات والأخوان	رئيس الجوقة
دحرها شعب البلاد	الجوقة
العواصف التي تجهل بؤس الفقراء	رئيس الجوقة
دحرها شعب البلاد	الجوقة
العواصف التي تجهل سمو العقلاء	رئيس الجوقة
دحرها شعب البلاد	الجوقة
دحرها شعب البلاد	الجوقة
العواصف التي اجشت الأطفال والأحياء	رئيس الجوقة
دحرها شعب البلاد	الجوقة
العواصف التي زرعت بغيض الأفعال	رئيس الجوقة
دحرها شعب البلاد	الجوقة
العواصف التي فجرت العنف في البلاد	رئيس الجوقة
دحرها الشعب	
الشعب ذو الرؤوس السوداء	
أيها الأب نانا	السيد
تخطيم العواصف الهوجاء حتمي كالضياء	

ونوقف تشريد شعبك ذوي الرؤوس السوداء
ونمنع هبوب العواصف
كمطر من السماء
وليعم الحب السماوي على الشعب
ولنزل أحداث الحزن
في تلك الأيام
وتغلقها كبوابات الليل الكبيرة
ويجب إهمال ذلك الضرب من الأيام
وتعليقها على خطاف خارج بيت - إنليل - الجليل

المشهد العاشر:

الجوقة لقد ولت أيام العاصفة المريرة
والمستقبل يبدأ بعد الانتصار
"أناشيد"
الجوقة البلاد شيدت منذ زمن قديم
وعبد الشعب يا نانار دربك بالقرابين
وضمخ الطيب الشعب ذا الرؤوس السوداء
الذي يكن لك عميق الحب والاحترام
مدينتك التي كانت ركاماً

ترفع إليك قدسية الابتهاال

آه يا نانار

المدينة المشيدة

تعود إليك الآن شامخة ساطعة

تقترن بك بشكل أزلي

ملكة المدينة المشردة

الجوقة

توسل إليك كقرايين ضارعة

أيها الرب

الملكة

أيها الملك العظيم

يا من تحمل أقدار المدن

هاأنذا أتحرر طليقة من مرارة الحزن

الإلهة الأم استحوذت على حقه

المعلق

ستملاً قلبها الطمأنينة

الملكة بحاجة قصوى إلى عطفك الإلهي

وفي وجهها الذي حمل التضحية دوماً

تجد الصدق

آه يا نانار

الملك

إن نظرتها تعيد الأمل في قلوب الجموع

ويشفي شعاعها الألم المرير

وتحيا أزلية في القلوب

آه يا نار. يا نار العظيم

مدينتك شيدت شامخة

تلهج لك خاشعة

بثناء الشكر والمديح



المفتدين

<http://al-maktabeh.com>

١٠. رثاء الأصدقاء

عرفت التوراة المرثية الفردية مع تميزها الواضح بلغة شعرية عالية، متماثلة مع بعض الأسفار الشعرية التي عرفتھا التوراة ومرثية شاول ويونathan تمثل نموذجاً للتركيز والمحافظة على البنية الأساسية للغرض الذي كتبت من أجله. وانطوت هذه الرثائية على عناصر لم تتعد كثيراً عن عناصر رثائية الملك جلجامش لصديقه إنكيدو. وتكاد رثائية داود تتطابق مع رثائية إنكيدو المشهورة، والتي صاغت بعضاً مهماً وفاعلاً في نص ملحمة جلجامش المعروفة. ولا بد من الإشارة لأهم العناصر المشتركة بين الاثنين ولو بشكل سريع:

١. كلاهما ملكان "جلجامش / داود"
٢. ارتبط كل منهما بصداقة حميمة جداً مع الآخر.
٣. التزم كل منهما بميثاق مع الآخر في رحلة العمر الطويلة المحفوفة بالمخاطر والأهوال.

٤. طلب جلجامش من الصناع والصفار إعداد تمثال لصديقه ووضع في مدينة أوروك تخليداً له ولبطولاته الطويلة. أما الملك داود، فقد أمر بأن يتعلم "بنو يهوذا" مراثية شول ويوناثان.

٥. لقد حقق إنكيدو أكثر من انتصار لمدينة أوروك متعاوناً مع صديقه الملك / جلجامش

ونادى صناع المدينة وصاح بهم:

أيها الصفار والصائغ والجوهري

ونحات الأحجار الكريمة اصنعوا لي تمثالاً. لخلي ثم نحت لصديقه تمثالاً جاعلاً صدره من اللازورد وجسمه من الذهب ونصب منضدة من الخشب القوي

وإناء من اللازورد مملوءاً بالزبد

وقرب ذلك إلى "شمش"

وشرع يندب صديقه ويرثيه

الملحمة / ص ١٢٧

"ورثي داود شاول ويوناثان ابنه بهذه المراثية وأمر بأن يتعلمها بنو يهوذا".

صموئيل ٢ : ١ : ١٧

٦. لعب الدور السياسي / والديني مجاله الواضح في تحقق فعل القتل / الاغتيال. حيث قرر الإله "إنليل" ولوحده في مجلس الآلهة اغتيال إنكيدو. وأصيب الملك شاول ويوناثان في حرب انهزم فيها الجيش وقتلا في النهاية. ولموتهما سبب سياسي / ديني / وعسكري.

٧. كان للإله إنليل - كما قلنا - دور فاعل وأساسي في اغتيال إنكيديو. وحتماً كان للإله اليهودي دور هو الآخر في الذي حصل ومثلما تشير الأسفار للصلة بين يهوه والوقائع الحاصلة. فكل الذي يتحقق من انتصار وهزائم، خراب ودمارات، كلها بإيعاز من الإله اليهودي.

٨. تدخل الذات الملكية / المقدسة والرجال في وظيفة الندب والبكاء على الخسارة الكبيرة والفجيعة التي حلت

يا إنكيديو إن أمك ظبية وأبوك حمار الوحش
وقد ربيت على رضاع لبن الحمر الوحشية
لتندبك المسالك التي سرت فيها في غابة الأرز
وعسى ألا يبطل النواح عليك ليل نهار
وليندبك شيوخ أوروك، ذات الأسوار

الملحمة / ص ١٢٥

لييكك من عظم أسمك في أريدو
ومن مسح ظهرك بالزيت المعطر وسقاك الجعة
ولينح عليك من أطعمك الغلة
ولتبكك الأخوة والأخوات

الملحمة / ص ١٢٦

اسمعوني أيها الشبية وأصغوا إلي
من أجل "إنكيديو" خلي وصاحبي، أبكي

وأَنوح نواح الثكلى

الملحمة / ص ١٢٦

فجس قلبه فلم ينبض

وعند ذاك برقع صديقه كالعروس

وأخذ يزأر حوله كالأسد

وكاللبوة التي اختطفت منها أشبالها

وصار يروح ويحيى أمام الفراش وهو ينظر إليه

ويتنف شعره ويرميه على الأرض

مزق ثيابه الجميلة ورمها، كأنها أشياء نجسة

الملحمة / ص ١٢٧

فأمسك داود ثيابه ومزقها، وكذلك فعل

جميع الرجال الذين معه. وناحوا وبكوا وضاموا إلى

المساء على شاول ويوناتان ابنه

صموئيل ٢ : ١ : ١٢

يا بنات إسرائيل أبكين على شاول

كان يكسوكن الحُلل القرمزية

ويرصع ثيابكن بحلي الذهب

بسقوط الجبابرة في القتال

صموئيل ٢ : ١ : ٢٤

٩. كل من إنكيديو ويونانان بشري / إنسان

١٠. للملك جلجامش علاقة مثلية "جنوسة.. مع صديقه إنكيديو وللملك داود علاقة

مماثلة بيونانان

والمرثية في نص ملحمة جلجامش تضيء المستوى الفكري / الفلسفي الذي تمتع به البنية الذهنية والأسطورية في العراق القلم، وتكشف أيضاً موقف العراقي القلم في قضية الموت وصلتها كطرف ثان في موضوعه الخصب وعقائد الحياة، والقوة الانبعاثية الكونية. ولم يكن الموت بالنسبة لجلجامش ظاهرة اعتيادية / عابرة وإنما فتح في نص الملحمة مداراً للصراع الحيوي والفاعل، الصراع الجسد لفاعلية النظرة للحياة والتي بلورت جانباً من حياة الإنسان الملاحق بالاندثار، وظل إلى الأبد ملاحقاً بالقوة الميتافيزيقية في الكون. ولذا حاول الملك جلجامش مقاومة الموت، والمصير المحتم له من أجل تحقيق خلوده الأبدي، ولم يستطع على ذلك، وأدرك بأن الموت قوة مدمرة للإنسان، والفقدان المفاجئ يمارس ضغطه في تعطل الفرد، لكنه لا يستطيع إيقاف القوة الانبعاثية في الحياة والكون.

أما المرثية التوراتية فإنها تتمحور حول الإحساس الآني بفجاعة الخسران ودراما الغياب ولم تكن سبباً من أجل البحث ومحاوله حيازة الخلود، والذي تبدى في قناعة جلجامش وسعيه من أجل خلود سياسي / اجتماعي، لأن خلود الآلهة الذي يريد، صعب ومستحيل.

ويتضح من خلال القراءة السريعة، الموقف الديني وعلاقة ذلك بالموت، كذلك إمكان الإحالة إلى ما هو أعمق ضمن مجال الهموم الميتافيزيقية، وهذا ما يؤكد انشغال

الإنسان في العراق القلم بما هو داخلي / أعمق في النفس الإنسانية، ولذا كان للدين فسحته الظاهرة في كل الممارسات، حتى الاجتماعية، لأن ما يمارسه الإنسان ويتواتر على تقديمه، يأتي بالمحصلة النهائية في المحيط الديني، إذا لم يكن مركزاً له. لأن الدين في العراق القلم، ومنذ مراحل الأولى / المبكرة، صاغ نظام الحياة الأول. ومن ثم السياسي / الاجتماعي / الاقتصادي، وظلت الهيمنة له على كل مجالات الثقافة، لأنه هو الذي صاغها وبلورها.

ولهذا لم يكن فعل الموت / وحسراً موت إنكيديو ظاهرة عابرة، وإنما هي في الحقيقة مزدحمة بعقائد وطقوس وشعائر، بالإمكان الاطلاع عليها في النصوص الأسطورية الكثيرة. لكن بالإمكان الإشارة للطقوس والعقائد التي انطوى عليها رثاء إنكيديو والتعامل وإياه باعتباره مرآة تقدم لنا ممارسات الإنسان العراقي القلم. لحظة الوفاة، ومن تلك الطقوس، محاولات استعادة التاريخ الشخصي / البطولي للفرد المتوفى، والتغني بأمجاده، حتى ولو كانت نسبية. وهذا ما ظل إلى الآن مستمراً في الوجدان الشعبي. حيث نجحت المرآة في توصيف لحالات عامة، تتوزع في المحيط الاجتماعي الواسع. وتشكل بما يشبه الخزين، يمكن العودة إليه لحظتها اقتضت ضرورة الندب والرثاء.

وعبر هذه العقائد / والطقوس، حاول الإنسان^(*) وما زال الاقتراب من مسألة الموت عن طريق ابتكار مجموعة من الرموز عبرت عنها الأسطورة في القلم. وتعبير عنها أحلامه في الزمن الحديث. وبدراسة ما أنتجه فكر الإنسان عبر العصور، نجد أن الموت لم يكن أبداً مرحلة نهائية من شأنها وضع حد لوجود الفرد بجميع صورته بل

(*) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ط ٤، ١٩٨٥، ص ٢١٩.

اعتبر دوماً بمثابة عملية تؤمن عبور الإنسان لحالة أخرى من الوجد، تختلف في كليتها عن الحالة التي ألفها في حياته على الأرض.

وسواء أكانت هذه الحالة أفضل من سابقتها أم أسوأ فإن وجودها في فكر الإنسان وخيالاته ولا شعوره كان دائماً مترافقاً مع وجود فكرة الموت. ولا نجد مطلقاً في أي نتاج إنساني / فكري، أن فكرة الموت تقوم وحدها، باعتبارها النقطة التي ينتهي عندها مسار الإنسان. وعلى هذا فإن الخوف من الموت لم يكن أبداً خوفاً من العدم، بل كان خوفاً من المجهول، من مغادرة وضع نعرفه ونألفه إلى آخر نحن به جاهلون.

تتجسد في مرثية إنكيديو معرفة العراقي القلم بالدورة الكونية للحياة - الموت والولادة - حيث صاغت هذه المرثية بنية مركزية في العقائد / والطقوس / والشعائر .. بينما نجدها في مرثية داود مجردة تماماً ومكتفية بتسجيل المشاعر الإنسانية لحظة المواجهة الآنية للفجعية.

مرثية شاول / يونانان^(*):

مجدك يا إسرائيل قتيل على روايبك

فيا لسقوط الجبابرة!

لا تحكوا عن ذلك في جت

وفي ساحات أشقلون لا تعلنوه

لئلا تفرح بناتُ الفلسطينيين

لئلا تطرب بنات غير المختونين

(*) الكتاب المقدس / صموئيل الثاني - ١ : ١٩ - ٢٧. وللإطلاع أكثر يراجع كتابنا، الأسطورة والتواراة، المؤسسة

العربية للدراسات والنشر، عمان، ٢٠٠١.

يا جبال جلبوع
لا يكن فيك ندى ولا مطر
ومهجورة حقولك تبقى
لأن أبطالنا سقطوا هناك،
ترسُ شاول سقط في التراب، ولم يُمسح
بزيت

عن دم القتلى وشحم الجبابرة
قوس يونانان لم ترتد إلى الوراء
وسيف شاول لم يرجع خائباً
شاول ويونانان محبوبان مُحبيان،
معاً في الحياة، معاً في الموت،
أسرع من النسور هُما وأقوى من الأسودِ
يا بنات إسرائيل أبكين على شاول
كان يكسوكن الحُللَ القرمزية
ويرصعُ ثيابكن بجُلي الذهب
يا لسقوط الجبابرة في القتال
يونانان قتيلٌ على روايبك
يا أخي يونانان يا أعزُّ صديق

مليئاً بالألم والحزن أبكيك

لأن صداقتك لي أولى من حب النساء

كيف سقط الجبابرة

إلى الأبد سقطوا

* * *

تمثل مرثية داود للملك شاول وابنه يونانان نصاً مهماً ضمن المراثي التوراتية، واختلاف الترجمة، يساعد القراءة على تجميع الملاحظات الخاصة بالملك داود وصفاته الاجتماعية ونزواته الجنسية وميوله اللوطية التي يشف عنها هذا النص، كاشفاً ميوله وتخيالاته الحلمية كما قال جان بوتيرو الذي درس هذه المرثية ومن خلالها قدم وصفاً دقيقاً وجريئاً عن الملك المدوّخ بالعواطف واللذائذ الحياتية ويبدو لي النص التوراتي منفتحاً أكثر في كتاب جان بوتيرو ولدرجة تقترب من الوضوح المؤكد لملاحظتنا عن العلاقة الشاذة بين الاثنين ولتعزير هذه القراءة سأقدم النص مرة أخرى وبترجمة منقولة عن الفرنسية، من أجل أن يتمكن المتلقي من صياغة مفهوم محدد عن ميول ونوازع الملك الماغن / والفاسق، والذي لم يخجل من اعترافه بالشذوذ.

واحسرتاه ! المجد لإسرائيل^(*)

الظهي يا إسرائيل مجدل على روايبك

كيف تصرعت الجبابرة؟ لا تخبروا في جت

ولا تبشروا في أسواق أشقلون. لئلا تفرح بنات الفلسطينيين

(*) جان بوتيرو، ولادة إله التوراة والمورخ، ت: عبدالمهدي عباس وجهاد الهواش، دار الحصاد، ودار الكلمة،

دمشق، ١٩٩٩، ص ٤٨.

وتطرب بنات الغلف. يا جبال الجلبوع

لا يكن فيكن ندىً ولا مطر

ولا حقول تقاوم

لأنه هناك

رحمُ مجنُ الجبابة

مجنُ شاول كأنه لم يُمسح بدهن

عن دم القتلى وعن شحم الجبابة قوسُ يونانان

لم تنكص إلى الوراوعوسيف شاورول

لم يرتدُّ نحائباً

شاول ويونانان محبوبان شهيان

في حياتهما وفي مماتهما لم يفترقا

أسرع من النسور وأشد من الأسود

يا بنات إسرائيل

ابكينَ على شاورول الذي كان يكسوكنُ القرمز ترفاً

ويُرصع لباسكُنُ بحلي الذهب

كيف تصرعت الجبابة في وسط الحرب؟

يونانان مجدُّلُ على روايبك

قد ضاق ذرعي عليك يا أخي يونانان

لقد كنت شهياً إليّ جداً

وكان حبك عندي أولى من حب النساء

وقد أحببتك حباً أم لابنها الوحيد

كيف تصرعت الجبايرة وبادت آلات الحرب^(*)

صموئيل الثاني: ١ : ١٩ - ٢٧

وأشار العالم الأثاري المعروف جان بوتيرو إلى داود واعتبره ذلك المعلم المحب، الكبير القلب، كان شهماً "ميكافيلياً" وفي الوقت نفسه، كان شجاعاً إلى مالا نهاية في الحرب. كان مستعداً لمقاومة كل شيء إلا أهواءه الحارقة بما في ذلك شهوات الحب مما كان يجعله أقرب إلى الناس. كان يتمتع بكل ما يجعله من أصحاب تخيلات الحلم، كل شيء حتى النفس الحساسة والشاعرية. وتظهر شخصيته الجذابة بكاملها في الأغنية المأساوية التي ألفها عندما علم بموت صديقه القلم... شاول ويوناثان الذي كان يعتبره أخواً له ويحبه حباً جماً.

(*) ويلاحظ التناسق بين النص التوراتي وملحمة جلجامش لما يؤكد التأثير والتطابق الذي وصل لمستوى النقل: وقبل أصحابي قدميه... / أحببته وانحنيت كما أنحني على امرأة / الملحمة ص ٨٦: وأما أنك أحببته فانحنيت عليه كما تنحني على امرأة / فمعناه أنه سيلازمك ولن يتخلى عنك / ص ٨٧ يا أمي رأيت رؤيا ثانية / في أوروك، المحصنة، رأيت فأساً مطروحة / تجمع أهل أوروك عندها وازدحم الناس حولها / أحببتها وانحنيت عليها وكأنها امرأة / ... إن الفأس التي رأيت رجل / وأما أنك أحببته وانحنيت عليها كما تنحني على امرأة / والتي سأجعلها أنا نظير لك / فتعبره أنه صاحب قوي يعين الصديق سيأتي إليك / ص ٨٧.

١١. مراثي إرميا

ومراثي إرميا، هو السفر الرابع في مجموعة "لفائف"^(*) وتعيد اليهودية هذا الكتاب للنبي إرميا. وهو بلغة العهد القديم "قنوت" القنوط في العربية، أي اليأس من الخير. أما الاسم الأصلي للسفر، أي (عيكه) وهو الكلمة الأولى في الإصحاح الأول والمترجمة للعربية (كيف)، علماً بأن المفردة تستخدم أيضاً للتأوه، أي (آخ) بالعربية وينظر لهذا السفر على أنه مرثاة لتدمير أورشليم أولاً على يد قوات بابل، ثم على يد القوات الرومانية. لذا فإن الاحتفال به يعتبر بالإضافة إلى رأس السنة المسمى (يوم كفور)، أي (يوم الكفارة) أو (يوم الغفران) أهم يام الصوم في تيار اليهودية السائد حالياً والمعروف بالفريسي وبمقارنة أسلوب النص في الأصل فإن هناك قناعة بأن السفر يعود لمجموعة من المؤلفين.

تقسم المراثي إلى خمسة إصحاحات ويطلق على الأولى منها اسم (الأغاني الأبجدية) لأنها مرتبة اصطناعياً وفق الأبجدية، أي "عيجد / هوز / حطي" وتشكل الأحرف الأولى من كل جملة من النص الأصلي للإصحاح الخامس جملة قائمة بذاتها.

(*) زياد منى، جغرافية العهد القديم، بنو إسرائيل، جغرافية الجنور، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٥، ص ٥٧.

الأناشيد الخمسة التي في هذا السفر تتمركز حول بنية واحدة، إنها بنية الخراب والتدمير، خراب أورشليم أثناء اجتياح الجيش البابلي لها سنة ٥٨٧ ق.م وقد كان لدخول الجيش البابلي لمدينة أورشليم أثر مهم في إنها مملكة يهوذا التي كانت دولة مستقلة.

وتقدم هذه الأناشيد الشعرية / الرفيعة في مستواها الفني، وازدحامها بالرموز والمجازات، وتمائلها مع سفر أرميا أيضاً صورة واضحة للحصار الذي تعرضت له أورشليم وما رافق فترة الحصار الطويلة من مأس كثيرة وهذا ما تضيئه الإصحاحات (٢: ٢٠، ٤: ١٠، ١: ١١، ١٥، ١٩، ٢: ١١-١٢، ١٩، ٤: ٤ - ٥، ٩) وتكرس الطريقة التي سقطت فيها المدينة وما رافق سقوط المدينة من أحداث، لا تختلف كثيراً عن الوقائع المصاحبة لاحتلال أية مدينة في التاريخ (١: ٤ - ١٠، ٢: ٢-٩، ١٣: ٢٠-٢٢، ٤: ٢٠) وعن السبي والمنفى (١: ٣، ٥ - ٧، ١٨، ٢: ٩) وعن عزلة مدينة أورشليم، حيث نفر عنها الجميع ولم يجد من يتضامن معها (١: ٢-٩، ١٧-٢١).

ولقد^(*) نسب التقليد اليهودي، وبعده التقليد المسيحي المراتي إلى النبي، بناء لما جاء في (٢ اخ ٣٥: ٢٥) ولكن إذ كان أرميا هو كاتب المراتي أم غيره، فمما لاشك فيه، هو أنها كتبت في وقت قريب من الأحداث، لأن الشعب نشرها قبل الرجوع من

(*) الكتاب المقدس / جمعية الكتاب المقدس، لبنان، ١٩٩٥، وأرميا ابن حلقيا الكاهن من عتاتوت وهو أحد الأنبياء العظام وتاريخه متضمن في سفر، ويظن أن نهايته كانت في أرض مصر، إذ أخذ قسراً إلى مصر (٤٣: ٥-٧) حيث الحديث عن وجوده في مصر. دعي للخلمة النبوية وهو صغير، فاعتذر بصغره ولكن الرب شجعه وقد بدأت خدمته في السنة الثالثة عشر من حكم الملك يوشيا سنة ٦٢٩ ق.م واستمرت لما بعد خراب أورشليم وقد دعي "النبي الباكي" إر ١: ١٣ وسفر المراتي دليل على ذلك. والنبوات في سفره غير مرتبة ترتيباً تاريخياً ولكن بحسب قصد الروح القدس "القاموس الموجز، للكتاب المقدس، ج. مورش، ١٩٨٣.

بابل سنة ٥٣٨ ق.م. كان وحده^(*) و كاد يكون ضد جميع الشعب، لكنه ظل أميناً حتى النهاية للمهمة التي أوكلها الله إليه، وبهذا يشبه إلى حد بعيد الرسول بولس الذي عاش هذه الكلمات: قوّتي تظهر نتائجها كاملة حين أكون ضعيفاً "٢ كور ١٢: ٩" وتنبأ إرميا لمدة أربعين عاماً وفي أكثر الأوقات اضطراباً في تاريخ اليهود.

كانت إمبراطورية آشور تسيطر على منطقة واسعة جداً من الشرق. لكنها بدأت تتراجع أمام هجمات البابليين.

وعندما وصل البابليون إلى أورشليم عام ٥٩٧ بقيادة نبوخذ نصر، أخذوا عدداً من اليهود مع "يوياكين" الذي خلف أباه "يوياقيم" ونصبوا ملكاً ضعيفاً اسمه "صدقياً" وحاول هذا الملك الخروج عن طاعة الإمبراطورية البابلية فكان رد فعل الملك نبوخذ نصر سريعاً، وحاصر المدينة لمدة سنة كاملة وأخيراً استطاع الدخول إليها في تموز ٥٨٧ ق.م واقتاد ملكها أسيراً وأحرق هيكلها، وأخذ إلى بابل عدداً كبيراً من السبايا. وبعد هروب عدد من السكان من يهوذا، لجأوا إلى مصر، وأخذوا معهم النبي إرميا رغماً عنه. وهناك مات في المنفى بعيداً عن أرضه.

إن إرميا الرسول الأمين والمضطهد يشبهون به يسوع فيما بعد "مت ١٦: ١٤" إرميا النبي الذي حدثنا عن العهد الجديد، يردد كلماته يسوع ليلة العشاء الرباني فيقول: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يراق من أجلكم (لو ٢٢ - ٢٠ - أكو ١١: ٢٥).

مكتبة
المفتدين

(*) الكتاب المقدس / سفر إرميا.

١٢ . نص مرآثي إرميا

١ . كيف جلست وحدها

المدينة المملأى بالناس

صارت كأرملة بغتة

وهي العظيمة في الأمم

السيدة في البلدان

صارت تحت الجزية

تبكي بكاءً في الليل

ودموعها على خديها

لا معزي لها

من جميع محبيها

كل خلافا غدروا بها

وصاروا لها أعداءً

سببت يهوذا من البؤس

وشدة العبودية

سكنت بين الأمم

ولا تجد راحة

يحيط بها أعداؤها

ولا مهرب لها

طريق صهيون في نواح

لا أحد يحضر أعيادها

جميع أبوابها مهجورة

وكهنتها يتنهدون

صباياها متحسرات

وهي في مرارة

صار خصومها أسياداً

وأعداؤها في ثراء

الرب هو الذي أذلها

لكثرة معاصيها

صغارها ساروا إلى السبي

أمام وجه العدو

زال عن بنت صهيون
كل بمائها
رؤساؤها كأبائل
لا تجد مرعى
هربوا ولا قوة لهم
أمام وجه الطارد
أورشليم تتذكر الآن
في أيام بؤسها وضياعها
جميع ماعز لها
منذ أيام القدم
وقعت في يد الخصم
وما أنجدها أحد
خصومها نظروا إليها
فضحكوا على سقوطها
خطئت أورشليم كثيراً
فصارت كشيء نجس
جميع مكرميها ازدروها
لأنهم رأوا عورتها

أما هي فتنهدت

وغطت وجهها خجلاً

نجاستها علقت بأذيالها

وما فكرت في مصيرها

سقوطها كان رهيباً

ولا معزي لها

انظر يا رب إلى مذلتني

لأن العدو انتصر

بسط العدو يده

على كل عزيز لها

رأت الأمم يدخلون

إلى هيكلها المقدس

وكنت أمرت أن لا يدخلوا

في مجمع لك

كل شعبها ينوحون

وهم يطلبون طعاماً

يقايضون ما عز لهم

بما يسدُّ الرمق

أنظر يا رب وتأمل
كم أنا ذليلة
ويا عابري الطريق
انظروا أنتم وتأملوا
هل من كآبة ككآبتي
هذا الذي أصابني
رمانى به الرب
في يوم حدّة غضبه
من العلاء أرسل ناراً
إلى عظامي فسرت فيها
مدّاً لرجلي فخأً
فأوقعني إلى الأرض
جعلني مهجورة عليلة
نهاراً وليلاً
شدّ ذنوبي نيراً
وبيده حبكها
فثقلت على عنقي
وهدّت عزيمتي

وضع الرب على الأيدي
فلا أقوى على النهوض
أبطال شعبي جميعاً
تهكم عليهم الرب
دعا عليّ جيشاً
ليحطم به شُباني
وداس كما في معصرةٍ
على العذراء بنت يهوذا
فها أنا أبكي
وعيناي تسكبان الدموع
المعزّي الذي ينعشني
ابتعد كثيراً عني
بنيّ فقدوا كلّ شيءٍ
والعدو تغلب عليّ
بسطت صهيون يديها
ولا معزي لها
أمر الرب على بني يعقوب
عداء من كل صوب

فصارت أورشليم بينهم
كشيء كله نجاسة
الرب إله عادل
لكني عصيت أمره
اسمعوا يا جميع الشعوب
وانظروا إلى كآبتي
فتياني وفتياتي
ذهبوا على السبي
استنجدت بأحبائي
فرفضوا بنجدي
كهنتي وشيوخي
ماتوا في المدينة
وهم يطلبون طعاماً
ليسدّوا رمقهم
انظر يا رب إلى محنتي
أحشائي امتلأت مرارة
وقلبي مضطرب في صدري
لأنني تمردت عليك

إن خرجت قلني السيف
وبقائي في البيت أشبه بالموت
اسمعوا أني أنوح
فما عزاني أحد
جميع أعدائي فرحوا
لنكبتني التي أنزلتها بي
أين يوم وعدت به
أن يصير أعدائي مثلي
أحضر كل شرهم أمامك
وافعل بهم كما فعلت بي
جزاء جميع ذنوبي
نواحي طال فقلبي عليل
٢. عقاب أورشليم
كيف غطى غضب الرب
بنت صهيون بالظلام
ورمى من السماء إلى الأرض
بأمجاد إسرائيل
فلم يذكر موطن قدميه

في يوم غضبه

أفنى الرب بلا شفقة

مساكن بني يعقوب

وفي غيظة دك الأرض

حصون بيت يهوذا

وعلى المملكة ورؤسائها

أنزل الرب لعنته

حطم في حدّة غضبه

ما لإسرائيل من قوة

رد يمينه إلى الوراء

من مجاهدة العدو

وأشعل في بني يعقوب ناراً

ملتهبة أكلت ما حولها

شدّ قوسه كعدو

وسدد يمينه سهامه

وأتلف كل شيء لنا

تشتيه العيون

وفي مساكن بنت صهيون



صبَّ غيظه كالنار
صار الربُّ كعدو
وسحق إسرائيل سحقاً
جميع قصورها دمرها
وخرّب لها حصونها
وفي بيت يهوذا
أكثر النواح والأين
أزال سياج جنته
وقوض دعائم هيكله
أنسى الربُّ شعبه
العيد والسبت في صهيون
ونبذ الملك والكاهن
في حدة غيظه؟
سثم الرب مذبجه
وتخلّى عن بيته المقدس
سلم أسوار قصورها
إلى يد العدو.
فهتفوا في بيت الرب

كما في يوم عيد
قصد الرب أن يدمر
أسوار بنت صهيون
مد الخيط وما رد يده
عن أن يمحقها محقاً
فأبكى الأبراج والحصون
حتى ذبلت جميعاً
غاصت في الأرض أبوابها
دمر وحطم أبقالها
ملكها ورؤساؤها في الغرب
ولا شريعة هناك
حتى أنبياؤها لا يرون
رؤيا من عند الرب
شيوخ بنت صهيون
يقعدون على الأرض صامتين
ألقوا رماداً على رؤوسهم
واتزرروا بالمسوح
وعذارى أورشليم يحنين

رؤوسهن إلى الأرض
كَلَّت من الدموع عيناى
وأحشائى امتلأت مرارة
كبدي انسكبت على الأرض
لخراب بنت شعبي
الأطفال أغمى عليهم
في ساحات المدينة
يقولون لأمهاتهم:
"أين الخبز والماء"
أغمى عليهم كالجرحى
في ساحات المدينة
أو فاضت أرواحهم
في أحضان أمهاتهم
بماذا أصفك وأشبهك
يا بنت أورشليم؟
من ينجيك ويعزيك،
يا عذراء بنت صهيون؟
خرابك كالبحر لا حد له

فمن الذي يشفيك؟
أنبياءك رأوا لك
رؤى الكذب والباطل
وكشفوا عن إثمك
ليردوا عنك سبيك
كانت رؤاهم عبثاً
وأكاذيب وأوهاماً
يصفق عليك بالكفين
هزءاً جميع العابرين
يصفرون ويهزون رؤوسهم
على بنت أورشليم
أهذه أجمل المدائن
وبهجة الأرض كلها
جميع أعدائك يفتحون
أفواههم عليك تمكماً
يصفرون ويقلبون شفاههم
ويقولون: "ابتلعناها
هذا يوم كم انتظرناه

والآن نلمسه ونراه"

فعل الرب ما قصده

وتمم ما أوعد به

منذ قديم الزمان

هدم بغير شفقة

فاشمت بك العدو

وأعلى شأن خصومك

اصرخي عالياً إلى الرب

يا أسوار بنت صهيون

أسيلي دموعك كالنهر

نهاراً وليلاً

لا تعطي نفسك راحة

ولا تغمضي حلقة عينيك

قومي رغي في الليل

في ساعات الظلام الأولى

اسكي قلبك كالماء

قبالة وجه الرب

ارفعي إليه كفيك

وتضرعي لحياة أطفالك
أغمي عليهم من الجوع
في رأس كل شارع
أنظر يا ربّ وتأمل!
هل فعلت بأحدٍ هكذا؟
أأكلُ الأمهات تمرهن:
أطفالهن الذين حضنهن؟
أبقت الكاهن والنبي
في مقدسك؟
انطرح الصبيُّ والشيخ
على الأرض في الشوارع
فتيتي وفتياتي جميعاً
سقطوا بحدِ السيف
قتلتَ في يوم غضبك
وذبحت بغير شفقة
دعوت الربَّ من كلِّ صوب
كما في يوم عيد
في يوم غضبك من ينجو؟

من يبقى على قيد الحياة؟

الذين حضنتهم ورببتهم

أفناهم عدوي

توبة ورجاء:

أنا رجل رأى البؤس

تحت عصا غضبه

قادني وأدخلني ظلمة

لم يكن فيها نور

يمدُّ يده عليّ

ويعيدها فمراً وليلاً

أتلف لحمي وجلدي

وهشم لي عظامي

حاصرني وأحاطني

بمرارة ومشقة

أسكنني في الظلمات

كالوتى من قلم

حبسني لئلا أخرج

وأثقل قيدي عليّ

اصرخ واستغيث
فيصدُّ صلاتي
سدُّ طريقي بالحجارة
وعوج مسالكي
يكمن لي كالدِّب
ويختبئ كالأسد
أضلُّ طريقي ومزقني
وجعلني وحيداً
شدُّ قوسه ونصبني
هدفاً لسهمه.
خرق كليتي خرقاً
بسهام جعبته.
صيرت ضحكة للشعوب
وأغنيةً نهاراً وليلاً
جرعني مرارات
وأرواني علقماً.
هشم بالحصى أسناني
ومرغني في الرماد

بعدت عن السلامة

ونسيت طعم الهناء

فأقول: "زال عنفواني

ورجائي في الرب"

ذكرُ بؤسي وضياعي

مرارة لي وعلقم

طلما تذكر نفسي

فتحنني في داخلي

وأردد هذا في قلبي

فأستعيد رجائي

رأفة الرب لا تنقطع ومراحمه أبداً لا تزول

هي جديدة كل صباح فما أعظم أمانتك!

فما أعظم أمانتك!

الرب حظي فأرجوه

هكذا قالت نفسي

الرب صالح لمن ينتظره

للنفس التي تشتاقه

خير له أن يحمل

نيره منذ صباه
يجلس وحده ويسكت
عندما يضع نيره عليه
ينحني بفمه على التراب
آملاً أن يجد الرجاء
يعطي خدّه لمن يلطمه
ويقبل أن يشبع تعبيراً
الربّ لا يتخلى
دائماً إلى الأبد

فهو ولو عاقب يحنو

بحسب كثرة رأفته

لأنه من كلّ قلبه لا يذلُّ

ولا يعذب بني البشر

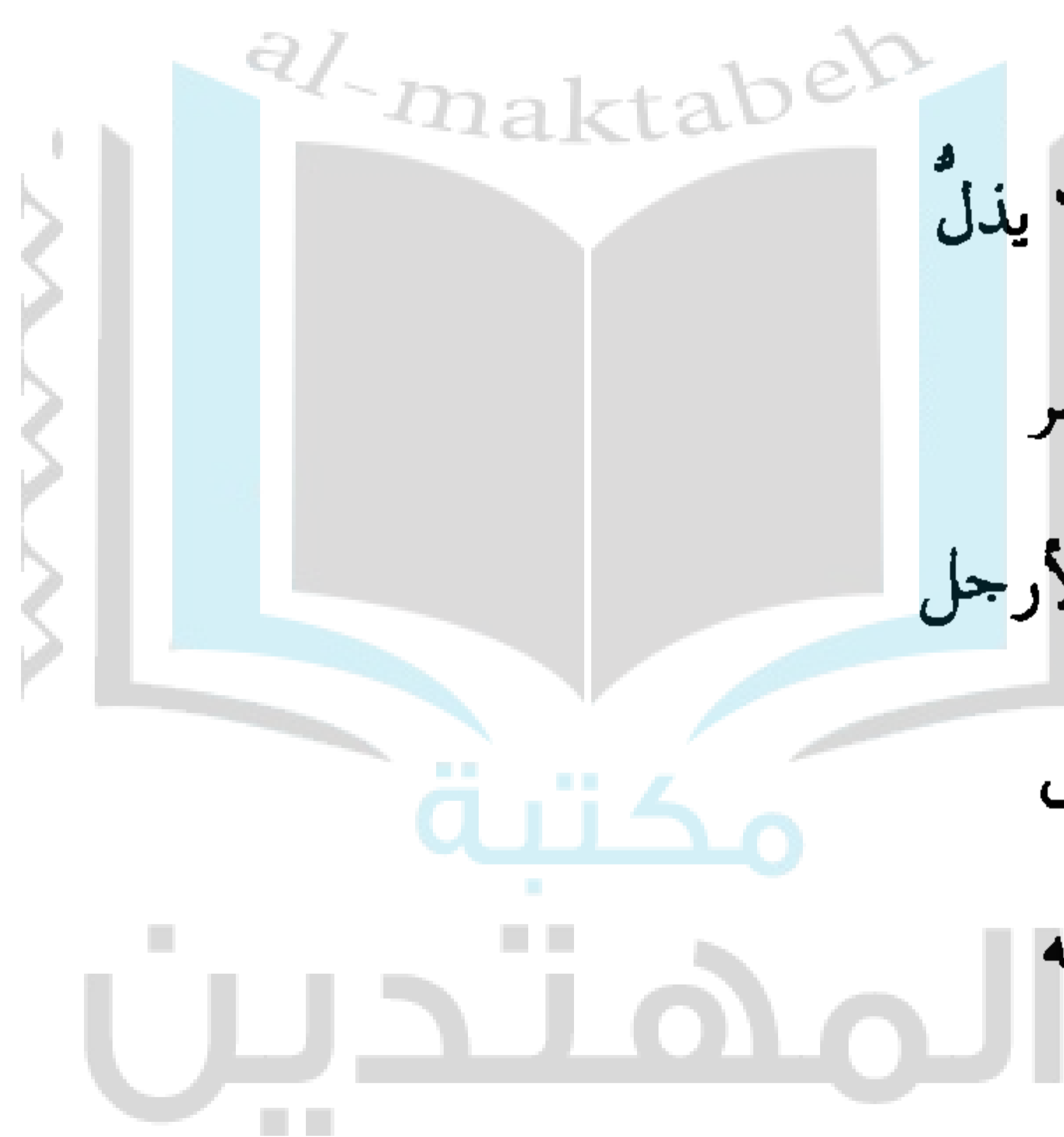
إذا انسحق تحت الأرجل

جميع أسرى الأرض

أو حرف أحد حقه

أمام وجه العليّ

أو حكم عليه ظلماً،



أفما يرى الرب؟
ومن الذي قال فكان
من دون أن يأمر الرب؟.
أما من فم العليّ
يخرج الشرُّ والخير؟
فلماذا يتدمر الأحياء
إذا عوقبوا على خطيئة؟
لنمتحن طرقنا ونختبرها
ونرجع إلى الرب
لنرفع قلوبنا وأكفنا
إلى الله في السماوات
نحن عصينا وتمردنا
وأنت يا ربّ ما غفرت
تسترت بالغضب وطردتنا
قتلتنا بغير شفقة
سترت بسحابة كثيفة
لئلا تسمع الصلاة
جعلتنا أوساخاً وأقذاراً

بين جميع الشعوب
أعداؤنا جميعاً فتحوا
أفواههم علينا هزءاً!
حلّ الدمار والخراب
عيناي تسيلان أنهار دموع
على انسحاق بنتِ شعبي
إصطادني أعدائي كعصفور
وأبغضوني بغير سبب
طرحوني حياً في الجبُّ
ودحرجوا على شجراً
فاضت المياه فوق رأسي
وقلت في نفسي "هلكت"
دعوت باسمك يا رب
من أعماق الجبِّ
اسمع ولا تحجب أذنك
عن نداء استغاثتي
اقرب يوم أدعوك
وقل لي: "لا تخف"

خاصمت معي يا ربّ
وافتديت حياتي
رأيت يا ربّ ظلامي
فاحكم بإنصافي
رأيت انتقامهم كلّه
وجميع نياتهم عليّ
سمعت تعبيرهم يا رب
وجميع نياتهم عليّ
كلام المعتدين وأفكارهم
عليّ نهاراً وليلاً
في قعودهم وفي قيامهم
تراني أغنية لهم
جازهم شراً يا ربّ
بحسب أعمال أيديهم
اجعل على قلوبهم غشاوة
وأنزل بهم لعنتك
أطردهم بغضبك وأيديهم
من تحت سماواتك يا ربّ

أورشليم بعد سقوطها:

كيف أغبر الذهب

ونغير النضار الخالص

وانهالت الحجارة المقدسة

في رأس كل شارع

بنو صهيون الكرام

وهم الموزونون بالإبريز

كيف يحسبون آنية

صنعتها يدا خراف

حتى بنات آوى

تعطي ثديها لصغارها

أما بنت شعبي فقاسية

مثل النعام في البرية

يلصق لسان الرضيع

بحنكه من العطش

والأطفال يطلبون خبزاً

ولا من يعطيهم كسرة

الذين يأكلون الطيبات

ماتوا جوعاً في الطرقات

والذين تربوا في الحرير

ينبشون الطعام في المزابل

عقاب بنت شعبي

أين منه عقاب سدوم

تلك التي اهدمت في لحظة

على يد الله

كان شبانها أنقى من الثلج

وأكثر بياضاً من اللبن

وأزهى أجساماً من المرجان

ولون بشرتهم كاللازورد

وجوههم اسودت أكثر من السواد

فلا يُعرفون في الشوارع

جلودهم لصقت بعظامهم

ويست كالخشب

كان القتل بالسيف فيها

خيراً من القتل بالجوع

أولئك ماتوا بطعنة

من فقدان ثمار الحقل
حتى النساء الخنونات
طبخت أولادهن
فكانوا هن طعاماً
في نكبة بنت شعبي
حقوق الرب غيظه
وصب حلة غضبه
فأشعل ناراً في صهيون
أكلت أسسها
ملوك الأرض لم يصدقوا
ولا سكان العالم
أن الطغاة والأعداء
يدخلون أبواب أورشليم
فأنبيأوها خطئوا
وكهنتها ارتكبوا الآثام
سفكوا دم الأبرار
في وسط المدينة
تاهوا كالعميان في الشوارع

وتلطنحوا تلطنحاً بالدم
فلم يتحمل أحد
أن يلمس ملبسه
نادوهم: حيدوا أيها الأنجاس
حيدوا، حيدوا لا تلمسوا
فهربوا وتاهوا بين الأمم
حيث لم يسكنهم أحد
وجه الرب شتتهم
ولا يعود ينظر إليهم
فلا إكرام للكهنة
ولا رافة بالشيخ
كلت عيوننا عبثاً
من انتظار العون
من أبراجنا ترقبنا
نجدة أمة لا تُنجد
أعداؤنا ترصدوا خطوتنا
لثلا نسير في شوارعنا
اقتربت عاقبتنا وتمت أيامنا

لأن أجلنا وافي،
كان الذين طاردونا
أخفّ من نسور السماء
تبعوا خطواتنا على الجبال
وكمنوا لنا في البرية
مَلِكُنَا الَّذِي اخْتَارَهُ الرَّبُّ
أوقعوه في حبالهم
هو الذي قلنا: "في ظله نحيا
بين الأمم"
ابتهجي وافرحي يا بنت أدوم
أيتها الساكنة في أرض عُوصَ
عليك أيضاً ستمرُّ الكأس
فتسكرين وتظهرين عُريك
زال إثمك يا بنت صهيون
فلا يعود يسبيك الرب
لكنه يعاقب إثمك يا بنت أدوم
ويكشف عن خطاياك

طلب الرحمة:

أذكر يا ربّ ما أصابنا

تطلع وانظر عازنا

تحولت أرضنا إلى الغرباء

وبيوتنا إلى الأجانب

صيرنا يتامى لا أب لنا

وأمهاتنا أرامل

بالمال نشربُ مائنا

وندفع ثمن حطبنا

بالنير على أعناقنا تُساق

نتعب ولا نُعطي راحةً

إلى مصر مددنا اليد

وإلى آشور لنشبع خبزاً

آباؤنا خطئوا وزالوا

ونحن نحمل آثامهم

عبيد تسلطوا علينا

ولا أحد ينقذنا منهم

بأرواحنا نكتسب خبزنا

لأن السيف في البرية
جلدنا محترق كالتنور
من شدة حرارة الريح
يغتصبون النساء في صهيون
والعدارى في مدن يهوذا
بأيديهم يشنقون الرؤساء
ولا يحترمون وجوه الشيوخ
أرهقوا الشبان بالطحن
والصبيان رزحوا تحت الخشب
انصرف الشيوخ عن باب المدينة

والشبان عن أغانيهم
انقطع السرور من قلوبنا
وانقلب رقصنا مناخة
سقط التاج من رأسنا
ويل لنا لأننا خطئنا
لذلك اغتمت قلوبنا
وأظلمت منا العيون

وها جبل صهيون مقفر
والثعالب تتجول فيه
أنت يا رب باق
وعرشك ثابت مدى الأجيال
لماذا تنسانا على الدوام
وتخذلنا طول الأيام
أعدنا إليك فنعود
وجدد أيماننا كالقدم
والا تكون نبذتنا نبذاً
وغضبت علينا كل الغضب



الشكل (١١): نخرساک، الإلهة السومرية الأم. وتدعى أيضاً نماغ و ننگال

١٣ . الأم الكبرى وخسارة الأبناء

إن الإلهة "ننكال" التي لعبت دوراً مركزياً في النص، تستعيد حيوية الألوهة المؤنثة في التاريخ، وتقوم بدورها الأمومي العظيم باعتبارها أمّاً كبرى، لها وظائف دينية / وحياتية وعبر الأثنين يشف دور سياسي خفي وضميني. ولذا فإن دورها المتميز في النص، يمثل مسعاها الواعي / الذكي والجديد للقيام بدور مهم، غابت عنه، بعدما سيطرت السلطة البطرياركية وأزاحتها عن مركزها الديني / الحياتي / وتشكل المجال السياسي الذي دفع بها بعيداً وارتضت الاكتفاء بدورها / الهامش في الحياة الدينية. ولأن الآلهة ننكال مدركة وعارفة بالأسباب التي دفعت بملكة أور وبلاد سومر للانقيار، وهي أسباب لها صلة مباشرة بالذكرورة وخطابها العنيف والصراعات التي نشأت وتضاعفت بين الممالك، ومضافاً لذلك العدو الخارجي والتفتت من الداخل، هذا كله وغيره من الأسباب، هو الذي أنتج مأساة أور وبلاد سومر، أي أن السلطة البطرياركية ظاهرة وراء الخراب وكامنة فيه أيضاً، لهذا أخذت الأم العظيمة دور الأم العراقية الأولى وابتدأت نشاطها الفعال في الحوار مع الأب / الملك / إنليل، المستبد / والطاغية الذي كثيراً ما مارس عنفه في الإبادة / والحروب، والدمارات وكأنه بذلك يعلن عن خصائصه ويؤكد عناصره التي عرف بها في مجلس الآلهة العراقي.

تلك العناصر وتبدياتها العنيفة / والدموية هي التي أقنعت اليهود، وحازوا عليها وألصقوها بالإله اليهودي / يهوه وصار نموذجاً قريباً للإله إنليل، وسطاً على الكثير من وظائفه وسلوكاته / وتصرفاته. وليس بعيداً عن النبي إرميا (إن كان هو كاتب المراثي) نص رثاء أور، والاستفادة من التماثل الذي حصل لمدينة أور من دمار وخراب وعكسه على أورشليم، واختصار كل الآلهة - في نص رثاء أور - بالإله اليهودي يهوه.

والاختلاف بين النصين واضح والتشابه قائم، وسبب الاختلاف محاولة الكهنة والأخبار تدوير الشخصية العراقية ومسح ملامحها وإبدالها بالشخصية اليهودية. لكن هذا كله لم يغيب الهوية الأولى للأصل المنتج والذي صاغ رثاء أور والمراثي الأولى، والعراق هو البلد الأول الذي أسس هذا الجنس الأدبي، المرتبط مع النشوء الحضاري، ولولا النشوء المبكر المكرس بالجهد الكبير لما وجد العراقي القلم ضرورة إبداع المراثي، ليدون بها ومن خلالها علاقته مع المكان.

استطاعت الأم العظيمة "ننكال" في دورها ونجحت بأخذ مجالها الحضاري / الديني الأول، واستقطبت كل الطاقات في مدينة أور، وليس صعباً على الأم الكبرى من النجاح بذلك لأن الأبناء، سرعان ما يستجيبون لدعوتها. وما حققته الأم بعد خراب أور، يمثل نموذجاً فريداً في النصوص الأسطورية حيث انتظار الأم لفرصتها في أية لحظة، كي تأخذها دورها ومجالها الوظيفي / الديني، وبكاء ننكال وندبها، تعبير عن مرثيتها للأبناء الذين ولدتهم الأم العظيمة وقادهم الأب / الملك / السلطان الطاغية / إنليل إلى الدمار، فهو الذي استهدف الأم العظيمة بأبنائها كثيراً وهذا ما تؤكدته النصوص الأسطورية العراقية. لذا فإن ننكال تمثل قطباً معارضاً / ومختلفاً، لم يستجب لها إنليل في البداية. لكنها ظلت في مسعاها من أجل كبح إنليل وممارسة الضغط عليه

من خلال الآلهة الذكور. أي توسيع مجال الضغط عليه عبر السلطة القضيبية الضاغطة والتي تتمكن حتماً لأسباب التوحد الذكوري، تحت لواء سلطة واحدة.

وكشف "رثاء أور" مستويات الصراع العميق جداً بين الأم العظيمة / نكال وبين الآلهة القضيبية، والمستوى الداخلي لهذا الصراع، قد تمثل بانتصار السلطة البطرياركية وهزيمة السلطة الماترياركية وتعطيلها عن وظائفها الإخصابية / والأمومية، وتحول القضيب الإنليبي إلى عصا ممثلة رمزياً لسلطة الإله القامع، وإيقاف دوره. وبالتالي دور الأم في الإنجاب والإخصاب / والانبعث لأن العملية الإخصابية ثنائية المجال ولا تتم بشكلها البيولوجي اعتماداً على قطب واحد، وإن ظهرت العديد من الأساطير حول تخصيب بدون الاتصال الإدخالي، ومثل هذا التخصيب له أسبابه الفكرية / والمعرفية التي تبلورت في المراحل الحضارية المتأخرة، وهكذا تخصيب يعني استقلال الأم العظمى وجزعها من السلطة التي تمركزت حول قضيبها الذي تحول أيضاً إلى صولجان سياسي، فغادرت الأم العظيمة واعتمدت على قواها وطاقاتها الخلاقة السحرية^(*).

إن اتساع النشاط الأمومي أثناء ابتداء الدمار والخراب هو احتجاج على العصا الأبوية / القضيب الإنليبي الذي بطش بأور وبلاد سومر، تلك العصا الملوكية والصولجان السياسي، الذي فوضه مردوخ بالسلطة بعد انتصاره وانهيار الدور الأول للأم العراقية الكبيرة "تيامات" وأمام هذا الانهيار والصعود البطرياركي، تحققت للأم فرص قليلة جداً، لكنها وفي كل تلك المنوحات لها، لم تستطع حيازة دورها الأول واكتفت بالثانوي الذي يمثل مركزاً في العلاقة الإخصابية الموجودة في الحياة / والكون.

(*) درسنا هذا النمط من الاتصال في مخطوط "تأويل النص التوراتي: الاتصال الرمزي إنموذجاً".

وحيوية نينكال ذات هيمنة وحازت على دعم الألوهة المذكورة لها، وهذا الانحياز، اعتراف بالدور الذي كان لها سابقاً وعطلته هي عبر صرع مرير، قاد الذكورة إلى قتل الأم الأولى لكن سلطة الألوهة الذكورية، استعانت بجسدها ودمها (عنصرها الحيوي في التكوين) وخلقت البشر. وبهذا تعلن بشكل رمزي عن اعتراف بمجالها وطاقاتها الإحصائية / الانبعاثية، والهيمنة التي تبنت لنا - في نص أور - تقود القراءة إلى مستوى تأويلي أعمق، وهو أن نينكال استعادت عبر مجزرة مملكة أور والإبادة الجماعية، صورة المجزرة التاريخية الأولى في إبادة الأم الأولى واستمرار استهدافها بالعصا / القضيب الإنليلي الذي استعار خاصية رمزية غير التي حددتها الوظائف الإلهية المنضبطة والمهاتمة. العصا / والفأس التي علم إنليل الإنسان صناعتها من أجل العمل صارت - الفأس - وسيلته في تخريب مدينة أور،

"ما عدت تستقرين كساكنة في معبدك المقدس

الذي هدمه الفأس

ما عدت تقودين كعاهلة

شعبك الذي اقتيد إلى المذبحة"

لعنة الألوهة المؤنثة / نينكال واضحة ومريرة، لعنة لاحقت الأصل التكويني للحياة من خلال العصا / الفأس بعدما تغيرت وظائفها الإيجابية ومنحتها الألوهة الذكورية / والأبوية وظيفة أخرى ودموية.

يا للبروس! يا للمصير! أريد أن أصرخ

مرّ هو مصير مدينتي

أنا السيدة، آه، يا معبدي المهدم، أريد

أن أصرخ مر هو مصير معبدي

آه! يا جدار أور، يا داري الذي تهدم

جداري الذي أصبح به!

يا معبدي المقدس، ويا مدينتي التي تحوّلت إلى خراب!

في أنقاض معبدك المقدس والمهدم

تمددت بالقرب منك "يا مدينتي"

مثل ثور مذبوح

عن جدرانك لا أستطيع الانسلاخ

يا للكارثة! بناؤك كان خداعاً

ومرير هو خرابك

هذه المواجه الصادقة دليل ضمني وصريح عن الدور الموكول للآم في الديانة العراقية القديمة، دور صاغته البنية الذهنية الأسطورية وتمركز في المراحل الحضارية / المختلفة وصار مثابة في الديانات الشرقية المجاورة.

والنصوص المشحونة بإحساس صادق / وأمومي بالخسارة تمثل - أيضاً - تجلياً للآم في واحدة من وجوهها ومراياها العديدة التي كونت مدارها الثقافي / والديني الخاص به والذي احتفظت به بعد انهيار سلطتها وتعاملت معه باعتباره نتاجاً لها، وميراثاً للأجيال يتجسد في الكثير من الممارسات والعقائد. ولم تستطع سلطة الذكورة - لحظة قادت الخطاب - من إلغاء كامل للمتداول من متروكها العقائدي / الطقوسي / والشعائري.

والثابت علمياً أن التحول في العبادات الماترياركية التي^(*) قُدّست فيها ألوهة الإلهة الأم العظمى إلى العبادات الباترياركية المذكورة في أرجاء المنطقة الشاسعة من العالم القلم التي عرفت باسم الشرق الأدنى، كان تحولاً تدريجياً طويل الأمد نشأ أصلاً من اختراع الزراعة وتطور الجماعات البشرية على عباب ذلك الاختراع من نمط حياة الرعي إلى نمط الحياة الزراعية والعيش المستقر في قرى ثم في مدن انبني اقتصادها.

وبالتالي تنظيمها الاجتماعي، على الفلاحة وحتى الطعام بدلاً من الرعي وجمع الطعام^(**) وفي بداية ذلك التحول ظلت للإلهة الأم قداستها المعلاة من خلال امتداد قدرة منح الخصوبة جنسياً للبشر والماشية إلى قدرة منح الخصب زراعياً. وهكذا فإن التحول من الماترياركية إلى البترياركية عندما بدأ فيما بات معروفاً باسم "الحضارات العليا" في الشرق الأدنى القلم، بدأ في المجتمعات التي كانت تعبد لأزمنة طويلة الإلهة الأم العظمى بوصفها خالقة للعالم ومن فيه وما فيه، وبوصفها أيضاً السلف الأسطوري لشعوب تلك المجتمعات.

ولم يشر إرميا في مرثيته للأم الكبرى بشكل صريح وإنما اكتفى بشفرات تشير إليها وتعنيها. كما أن نصوص المرثية تقود القراءة للاقتراب تماماً مع الإلهة الأم في رثاء أور وفي ديانات الشرق الأدنى القلم.

وأعتقد بأن إلغاء اسم الأم الكبرى، يدخل ضمن مساعي اليهود في الإبتعاد عن السحر. لأن منح الإنسان رجلاً أو امرأة كنية، يعني تحقق الطاقة السحرية الكامنة في اسمه، بحيث يكون قد امتلك قوة التأثير. ويرى الأستاذ شفيق مقار بأن العبادة التي صاغها حول الوثن القضبي يهوه، فبجانب الرغبة المفهومة من جانب موسى في طمس

(*) شفيق مقار، الجنس في التوراة وسائر العهد القلم، الكتاب الأول، من الإلهة الأم إلى الإله الأب، دار يعرب،

دمشق، ١٩٩٨، ص ٢٦٩.

(**) شفيق مقار، الجنس في التوراة وسائر العهد القلم، سبق ذكره، ص ٢٦٩.

البعد الآخروي الذي كان كفيلاً بالكشف عن منابع ما اختلس لمعبوده، كان للاجتهاد في طمس كل وجود للآلهة الأم العظمى دور بالغ الفعالية في إخلاء عبادة يهوه تماماً من البعد الآخروي.

وهنا تكمن محاولة موسى في التخلص من تأثيرات الديانة المصرية التي تشبع بها. حيث كان المجال الحيوي فيها هو للأم الكبرى، على الرغم من انهيار سلطتها وصعود السلطة البطرياركية.

وكما هو واضح^(*)، وبصرف النظر عن "غيرة" يهوه المشهورة، كان هناك تناقض أساسي بينه وبين الإلهة المؤنثة. فهو وثني قضبي. والإلهة الأم العظمى عبادت بوصفها الرحم الكوني الذي وُلد منه الكون وكل المخلوقات، والكهف "القبر - الرحم" الذي يتلع كل المخلوقات، أي بوصفها المنشأ والمآل. وكما هو ملاحظ في العبادة التي صاغها موسى حول ذلك الوثني القضبي حلت تلك العبادة تماماً "أو بالأحرى أخلي كل ما اختلس لها من الديانة المصرية القائمة على مفاهيم الخلود والبعث" من بُعد المآل، واقتصر دور المعبود فيها على كونه "المنشأ" وهو - التفكير التشبيهي - دور القضيب في عملية الإخصاب، ذلك الدور الذي ينتهي بقذف المني في الرحم - في قمة هياج العاصفة - هزة الجماع التي يبلغ فيها التهيج الجنسي ذروته - يقذف منه الخالق للحياة في رحم الأرض.

وإدارة الظاهر للعناصر المركزية / المهيمنة في الديانة المصرية، يعني تأشير قطعة كلية، لكن موسى لم يستطع نهائياً تأسيس تلك القطيعة، ولذا نجده في بداية شتات سيناء منقاد نحو الراسب المصري في الذاكرة ومع كل محاولات موسى ورجاله، ظلت الديانة المصرية متشظية وموزعة في الخطاب الديني / التوراتي.

(*) شفيق مقار، الجنس في التوراة.. سبق ذكره، ص ١٠٤.

١٤ . عتبة أخيرة

لقد تأكد للدراسة استفادة اليهود من المراثي العراقية القديمة، وكانت متمثلة في أول استفادة عبر مرثية شاول ويوناثان ومن بعد ذلك في مراثي إرميا حيث كانت مرثية شاول ويوناثان، مرثية للأفراد وهي كثيرة في الأدب العراقي القلم، وأهمها مرثية جلعامش لصديقه إنكيديو. أما رثاء المدن - أور - فقد تبدت في رثاء أورشليم، على الرغم من الفروق الكثيرة بين أور / وأورشليم، من حيث قدمها التاريخي وعناصرها الحضارية وجاءت مرثية أور مشحونة بالفجعة المعبر عنها بتعدد الأصوات واختلافاتها الواضحة، وقدمت مرثية أور نموذجاً فريداً من خلال مشاركة العديد من الآلهة وطغيان صوت الأم الكبرى "ننكال" التي أضفت طابعاً تراجيدياً على دورها الفكري / والفني، ويكاد يكون صوتها فاعلاً وقد لعب دوراً في إعادة الموقف الإلهي - إنليل - إلى دوره الأول والطبيعي وما كانت مرثية أور لولا غضب الإله إنليل عليها الذي كثيراً ما ساهم بشكل أساسي بدمارات كثيرة كالطوفان والأوبئة وسقوط المدن والممالك. كانت مرثية إرميا بعد سقوط أورشليم. هذا الانهيار الذي حصل مادياً / واقعياً بسبب محاصرة الجيش البابلي لها وتدميرها عام ٥٨٧ ق.م وإنهاء الدور السياسي للملكة يهوذا.

ويمثل سقوط أورشليم هزيمة عسكرية أما الشخصوس في مرثية إرميا، في أحادية - كما هو معروف - تمركزت بشخصية إرميا فقط. لكن هذا لا يمنع من الإشارة لوجود شخصوس أخرى / مغيبة داخل النص، مثل الإله اليهودي يهوه مع إشارات ضمنية للأم اليهودية الزاحفة من حضارات الشرق.، لكن لم يظهر لهما دور في المرثية الخاصة بأورشليم.

ووفرت الشخصوس المتعددة لمرثية أور فرصة بلورة المستوى الدرامي لها، لهذا اتصفت بسمات مسرحية واضحة وهذا هو سبب الاهتمام بها في الحاضر وتقديمها عبر عروض مسرحية.

وبسبب المرحلة الحضارية ونوع الديانة السائدة كان للآلهة دورها في النص وغياها في نص إرميا، لأن اليهودية ديانة موحدة وإن انحدرت مرات عديدة نحو الإلهة الوثنية التي عرفتها الحضارات المجاورة. ولكن ظلت تلك المعرفة محدودة في الكثير من العقائد والطقوس.

صعدت مدينة أور نحو مجالها الحضاري مرة جديدة وهذا ما يؤكد المشهد العاشر من رثاء أور:

الجوقة لقد ولت أيام العاصفة المريرة

والمستقبل يبدأ بعد الانتصار

البلاد شيدت منذ زمن قديم

وعبد الشعب يا نانار دروبك بالقرايين

وضمخ الطيب الشعب ذا الرؤوس السوداء

الذي يكن لك عميق الحب والاحترام

مدينتك التي كانت ركاماً

ترفع إليك قدسية الابتهاال

آه يا نانار

المدينة المشيدة

تعود إليك الآن شامخة، ساطعة

تقترن بك بشكل أزلي

آه يا نانار

الملك

إن نظرتها تعيد الأمل في قلوب الجموع

ويشفي شعاعها الألم المرير

وتحيا أزلية في القلوب

آه يا نانار / يا نانار العظيم

مدينتك شيدت شامخة

تلهج لك خاشعة

بثناء الشكر والمديح

أما مدينة أورشليم، فقد ظلت خراباً واكتفى اليهود بصمتهم انتظاراً لما سيقوم

به الإله اليهودي / يهوه... ولم يأت منه الإنقاذ، بل جاء من الخارج / بلاد فارس:

خير أن ينتظر الإنسان

خلاص الرب بارتياح

وخير له أن يحمل
نيره منذ صباه
يجلس وحده ويسكت
عندما يضع نيره عليه
ينحني بغمه على التراب
أملاً أن يجد الرجاء

مراثي إرميا ٣: ٢٦ - ٣٠

توزعت مراثية أور على عشرة مشاهد، وإرميا على خمسة مشاهد، في مراثية أور مجموعة من الأنساق، تضافرت مع بعضها لتكوّن النص ومنها، الإنسان / الإلهة المذكورة، والإلهة المؤنثة / المجاميع ومراتبها المتنوعة / الأم الكبرى / المعلق الخارجي بينما نجد إرميا لوحده، هو السارد الوحيد في مراثيته وتوفرت خصائص فنية في رثاء أور وهذا ما توصلت إليه الباحثة "روزن كارتن" وتعتبر هذه الخصائص بمثابة النتائج الأخيرة وهي:

١. إن هذا النص يشابه في بنائه وشخصياته وقصته مسرحيات إغريقية مهمة جداً، مثل مسرحية الفرس (اسخيلوس) ومسرحية أجاممنون.
٢. الجوقة وأهميتها في النص، لها ذات الوظيفة التي عرفت بها الجوقة الإغريقية. فهي هنا تتحدث وترتل وتغني. جوقة تمثل العمل وتفسر. تصف أحياناً أداء الممثلين وتسلط الضوء على الأحداث ومستقبلها وتعلق على مستقبل الشخصيات.

٣. إن النص السومري مثل النص الإغريقي يعرض نتائج تاريخية وأفعال وسلوك وحياء الآلهة من خلال سلوكية البشر^(*).

٤. الصلاة والدعاء، لم يكن لهما وظيفة دينية بقدر ما هما خاتمة للمسرحية والفعل الدرامي وبهذا حصل تشابه - أيضاً - بالشكل والبناء.

٥. النص السومري، نص أدبي بشكله الأساسي.

٦. إلى جانب الأغاني والأناشيد يصاحبها عزف على الآلات الموسيقية، كما أن العرض تخلله فعاليات صامتة تلعب دوراً مهماً في تجسيد قصة النص، كما نجده واضحاً بالأفعال والعزف الذي تؤديه الإلهة نكال.

■ تميزت مرثية أور بشعرية عالية، تبتد في الانزياحات والرموز الكثيرة. كذلك مرثي إرميا.

■ تهيمن على نص أور بنية كلية للخراب كذلك نص إرميا ويوحد نص أور نظام ديني / وثقافي واحد، وهذا ما وفر له وحدة وتكاملاً واتصالاً. بينما نلاحظ في نص إرميا وجود توقفات / وانتقالات ذات مواضيع خارج كلية الخراب والدمار. وهي ذات صلة بالإله يهوه وإسرائيل وترديد الشكوى.

■ مرثية أور مشحونة بالحنين إلى المكان المزدهر والحضارة وأنسقاها العديدة التي ساهم الإنسان العراقي القلم بإنتاجها وتكريسها، أما نص إرميا، فإنه يطفح بالعدوان والكراهية للأعراق الأخرى، وكأنه امتداد للعدوانية والإبادة التي عرفت بها الأسفار الأخرى. والعرقية والعنصرية التي انطوى عليها نص إرميا، يقدم لنا

(*) لم يكن النص السومري مماثلاً للإغريقي وإنما العكس هو الصحيح. ويلاحظ في نتائج "روزن كارتن" الانحياز إلى المركزية الغربية واعتمادها أصلاً. والتعامل مع الآخر باعتباره هامشاً. وقراءة "روزن كارتن" مغالطة لا تقبل النقاش والاختلاف بسبب العمق التاريخي، الزمني لنص أور.

الشخصية اليهودية مكبرة لأنها ومع هزيمتها وانكسارها وضعفها، ظلت تنظر للشعوب الأخرى نظرة الحقد وانتهاز الفرصة من أجل الإبادة. فالشخصية اليهودية وإن لم تتوفر لها فرصة التدمير / والقتل فإنها تحن لهما.

■ كسب الكهنة رثاء أور تحت موجهات البنية الذهنية الأسطورية ومشاركة العلاقات الاجتماعية بها أيضاً. أما نص أرميا، فهو - كما يبدو - نتاج شخصية واحدة فقط ويقدم رثاء أور في المناسبات الدينية والأعياد والاحتفالات استعادة لكارثة حصلت في زمن مضى. وتقدم هذا النص وغيره من النصوص والملاحم في الطقوس، يعني رغبة الشعب الحي لاستذكار تاريخه والتذكير به، كما أن عرضه في الطقوس يمنحه تحييناً - كما قال مارسيا الياد - لكن نص إرميا، مكثف باعتباره مدونة شعرية حازت على عناصر سرد دقيقة وذكية عبر الاختزال والانرياح والاستعارة والإكثار من الرموز والشفرات التي اختصرت المؤثرات الدينية وانساقها. وخصوصاً تلك التي لها علاقة بالإخصاب / والعذرية. وبالإمكان قراءة "مراثي إرميا" باعتبارها امتداداً تكملياً لسفره المعروف باسمه. ويبدو بأن مراثيه، مستلة من السفر الأول، اعتماداً على وحدة الموضوع، مع الإبقاء على ما يومي للأصل.

■ تتحكم المرجعية التاريخية بالنصين. وتبديت المرحلة الحضارية وأشكالها الشعرية التعبيرية واضحة، في نص أور وأهمها، التكرار / التركيز / واستعادة المقاطع / والعناية بالشكل المدور، مما يؤكد كون هذا النص - وقبل أن يدون - مروية أيضاً. ويمكن اعتبار نص أور نصاً مؤسساً في آداب الشرق. أما مراثية إرميا فقد تبديت فيها عناصر الإنشاء الذي عرفته الحضارات المجاورة. لما يؤكد مرحلته التاريخية / المتأخرة، حيث تخلصت النصوص من الظواهر الشعرية الأولى وعندما كانت نتاجاً للعقل الشفاهي.

■ يعتبر نص أور أصلاً في المراثي التي عرفتها آداب الشرق أما نص إرميا فإنه لاحق ونص نقلي، امتدت إليه أنساق عراقية / وأوغاريتية واضحة. واللحظة التاريخية لمدونة أور لحظة عراقية واضحة، أما مرثية إرميا فإن لحظتها خارج المكان الخاص بالمرثية.

■ المنتج / الكهنة لنص أور أحرار في مدينتهم والصراع الحاصل بين الآلهة والسكان. ومن الممكن أن تكون مرثية إرميا نتاج السجن - ظل إرميا سجيناً لفترة من الزمن - أو الغربية في مصر وهي تجسيد لصراع بين بابل كإمبراطورية واسعة وقوية وبين المدينة.

■ ظل المقدس ناشطاً في نص أور، ولذلك لعبت الآلهة دوراً - نكال - بارزاً ومهماً وكان للقداسة مجالها الواضح من خلال المعابد كمقرات للآلهة. أما مرثية إرميا فلا وجود لمكان مقدس فيها بدأً، على الرغم من أن اليهودية استقرت ديانة توحيدية، كذلك يمكننا الإشارة إلى أن نص أور، تحول من شفاهية ومرويات إلى مدونة ثابتة، لكن نص إرميا ظل شفاهياً وخضع للتغيرات الكثيرة. ولهذا لم يكن هناك تأثير على نص أور باستثناء المجال التاريخي / الواقعي / والجغرافي، بينما اتسع نص إرميا لإضافات متتالية وهذا ما يؤكد النص، من خلال ضعف الوحدة العضوية، لما يؤكد حصول شطب وإضافة في المراحل التدوينية التي عرفتها التوراة. ولا يختلف هذا النص عن غيره من النصوص التوراتية والتي انطوت على إشكالية الاختلاف / والتناقض / والتزوير.

■ رثاء أور، يضيء مرحلة حضارية / دينية ويكشف عناصرها ونظمها السياسية. أي أنها مدونة عن لحظة تاريخية معروفة وبتفاصيل دينية، ذات صلة واضحة مع البنية الذهنية الأسطورية السومرية. وقد كرست الآلهة - التعدد - هذا النص وصعد في مرات متأخرة كمرثية نفر / وبابل / أما رثاء إرميا فإن الهزيمة والعرقية

هي التي كرسته نصاً في كتاب حاول اليهود إضفاء القداسة عليه. وامتد نص أور في جغرافية، هي التي أسسته وكرسته. وحاز على عناصرها فقط. أما رثاء إرميا فإنه ممتد كالشليلة نحو فضاءات - الشرق القديمة، وتلك هي التي بلورته وصاغته.

مراجع الباب الأول

١. الكتاب المقدس.
٢. أ.د. نائل حنون، الكشف المختصر للنصوص الأدبية العراقية، المشهد الثقافي الجديد، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب، النجف، ٢٠٠٠.
- ب) عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد النهرين القديمة، وزارة الثقافة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦.
٣. طه باقر / ملحمة جلجامش، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٨٠.
٤. د. سامي سعيد الأحمد، الأدب في العراق القلم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠.
٥. ناجح المعموري، الأسطورة والتوراة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، ٢٠٠١.
٦. د. عوني كرومي، رثاء أور، محلية الأقلام - العدد - ٦، آذار، ١٩٧٠.
٧. (أ) قاسم الشواف، ديوان الأساطير، سومر وأكاد وآشور، الكتاب الثاني، الآلهة والبشر، قدم له أدونيس، دار السافي، ١٩٩٧.
- (ب) أخبار أوغاريتية، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٩.
٨. فراس السواح / مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ط٤، ١٩٨٥.
٩. د. زياد مني، جغرافية العهد القلم، بنو إسرائيل، جغرافية الجنود، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٥.

١٠. ج. مورش، القاموس الموجز للكتاب المقدس، القاهرة، ١٩٨٣.
١١. شفيق مقار، الجنس في التوراة وسائر العهد القديم، الكتاب الأول، من الإلهة الأم إلى الإله الأب، دار يعرب، دمشق، ١٩٩٨.
١٢. جان بوتيرو، ولادة إله التوراة والمؤرخ، ت: عبدهادي عباس وجهاد الهواش، دار الحصاد ودار الكلمة، دمشق، ١٩٩٩.
١٣. الأختام الأسطوانية منقولة من رسالة ماجستير "الكتابة على الأختام الأسطوانية غير المنشورة في المتحف العراقي" وهي رسالة ماجستير غير منشورة، ربا محسن عبدالرزاق الحاج يونس، كلية الآداب، قسم الآثار، ١٩٨٧.

الباب الثاني

١. تأويل النص التوراتي

كانت الوصايا العشر بداية حقيقية للعلاقة بين الإله اليهودي وشعبه. في الشتات. حيث مثلت نظاماً جديداً وسط الصحراء. وكما تكشف الوصايا العشر عن ظهور واتساع علاقات سلبية / وسيئة بين القبائل اليهودية، وصارت ظواهر أخلاقية، تركزت عبر التداول. لهذا كانت تعبيراً عن نشوء منظومة للعنف والقوة الرادعة من أجل الانضباط والتقييد. وقراءة الوصايا وحدها كافية للإشارة إلى الظواهر التي عرفت فيها القبائل وصارت سلوكاً لها. وأسباب نشوء تلك الممارسات هو الشتات والضياع والسكن الرعوي والتجاور وانعدام العازل الكامل بين العوائل والأسر، لذا نشأ الاختلاط ومعه ممارسات جنسية لم تؤسس لها ضابطاً وتحريماً. وكل الوصايا الحادة / الآمرة / والصارمة هي تجسد لنشوء مظاهرها الحياتية السلبية: فالعلاقات الصحراوية والمجاعات والانتقال المستمر، ساهم بإيجاد مثل ممارسة الزنى والسرقة والقتل. وقد اعترفت النصوص التوراتية ببعض الأخطاء وأشرفها بشكل صريح، وهذا ما سنتحدث عنه لاحقاً. وخضعت الوصايا في إنتاجها وصياغتها، لطبيعة المرحلة الدينية / الاجتماعية / الاقتصادية. وقد تبنت من خلالها كل تلك العوامل والصراعات الداخلية، والتي عرفت فيها القبائل اليهودية، بحيث لم يستطع موسى قمعاً لها، وتحديداً

لاتساعها، على الرغم من قسوته ودمويته، حتى أنه لم يعد قادراً على مراقبة الحشود، وما يحصل بينهم. ولم يتمكن من حسم مشاكلهم اليومية / الحياتية، لكثرة الاختلاف فيما بينهم، للأسباب التي أشرنا لها، لذا اضطر إلى تعيين القضاة، وهي مرتبة قبلية أيضاً، أوكلت لها مهمة التدخل في حسم الاشكالات والقضايا التي بينهم، لأنه ما عاد قادراً على تلبية حاجات الحشود في حسم القضايا، ووجد موسى، بأنه سيظل مكرساً للمشاكل فقط، ويترك الجانب الروحي / الدين، وهو أمر في غاية الأهمية، وعليه أن يوليه اهتماماً استثنائياً، لا سيما وأن الديانة ما زالت في بدايتها، وواجهت الكثير من المشاكل والتذبذبات، لذا قرر تحديد واختيار القضاة كي يحسموا الأمور والمشاكل التي تحدث بينهم.

"وجلس موسى في اليوم الثاني ليقضي للشعب فوق الشعب أمامه من الصباح إلى المساء، فلما رأى يثرون كل ما كان على موسى أن يفعله للشعب قال له: ما هذا؟ وما بالك جالساً وحدك لتقضي لجميع الشعب وهم واقفون أمامك من الصباح إلى المساء؟ فأجابه موسى: يجيء إليّ ليعلموا إرادة الله. إذا كانت لهم دعوى يجيئون فأقضي بين الفريقين وأعرفهم فرائض الله وشرائعه. فقال يثرون لموسى: لا خير في ما تعمل. فأنت تتعب نفسك وتتعب هذا الشعب معك. لأن الحمل أثقل من أن تحمله وحدك. والآن اسمع نصيحتي فيكون الله معك:

.... اختر من الشعب كله رجالاً أكفاء يخافون الله وأمناء يكرهون الرشوة. وولهم على الشعب رؤساء ألوف ومئات وخمسين وعشرات. يقضون للشعب في كل وقت ويرفعون إليك كل أمر خطير ويحكمون هم في كل أمر صغير فيحملون الحمل معكم ويخففون عنك."

سفر الخروج ١٧: ١٣ - ٢٣

يضيء هذا النص مستوى العلاقات الاجتماعية الموجودة بين القبائل وأفرادها وتردي الأصول التي أخذوها معهم عندما خرجوا من مصر. ويؤكد هذا النص العوامل التي أشرنا لها وهي الاجتماعية / الدينية / الاقتصادية، التي كانت وظلت وراء المشاكل الحاصلة بينهم. وكانت المشاكل ذات طبيعة اقتصادية / واجتماعية، أما الدينية فهي إضافة من الكتبة الذين دونوا التوراة، من أجل تلطيف المأساة الحاصلة وتخفيف حدتها، عندما وزعت المشاكل على ما هو ديني أيضاً.

ولكن الحقيقة التي يقدمها سفر الخروج متعلقة بالعلاقة الموجودة بين العوائل والتجمعات الأوسع، وكذلك اجتماعياً واقتصادياً. حتى أن موسى لم يعد قادراً على أن يكون وسيطاً ممتلكاً لسلطة الحسم الفوري.

لذا استعان بالقدرة الإلهية / اليهودية من أجل وضع الضوابط القادرة على كبح الحشود وترويضها وتأديبها أيضاً. لهذا أنزل الإله اليهودي / اليهودي وصاياه بعد ثلاثة أشهر من مغادرتهم مصر. ونزول الوصايا كقيل لبيان مستوى العلاقة القائمة وسط صحراء لا يملك فيها اليهود كل شيء. وعرفوا عبرها الجماعة / والأمراض / الأوبئة / السرقات / الاغتصابات، وممارسة المحارم المتنوعة وستضيء دارستنا الاختلاف الحاصل بين المراحل التي استدعت الوصايا العشر في المرة الأولى (في سفر الخروج) وفي المرة الثانية (سفر التثنية) بحيث تبدت خصائص كل مرحلة من المرحلتين وإن كانت الاختلافات بسيطة، إلا أنها كشافاً للمتغيرات الحاصلة.

ويبدو الارتباك واضحاً على موسى، بحيث لم يستطع معالجة تلك الأمور وكيفية حسمها، عبر الاستعانة بالجماعات الواعية، القادرة على إصدار القرار والحكم. وكان يثرون منقداً لموسى من تلك الفوضى، التي لو ظلت مستمرة لخلقت له كثيراً من المصاعب والمتاعب. ولأن مقترح يثرون مصيباً وجد صداه سريعاً واستجاب له موسى. وكانت استجابة ممثلة لمنقذ لم يكن في تصور موسى. وكان اختياره للقضاة

معبراً عن متاعب ومصاعب وصراعات مرحلة الابتداء في المغادرة والدخول إلى سيناء. وتعيين القضاة، أشر - أيضاً - استحالة إمكان الفرد في قيادة كل القبائل والسيطرة عليها والتحكم بتصرفاتها، وسلوكها اليومي، ومراقبة طقوسها وطرق تنفيذها لعقائدها الجديدة / والقديمة المنقولة معها عند الخروج. ومرحلة نزول الوصايا العشر، معقدة ومضطربة بسبب العامل الاجتماعي / والاقتصادي، لهذا كان الإله ينبه إلى ضرورة التقيد بالأوامر والوصايا. حتى كان كلام الإله يهوه لبني إسرائيل في سيناء هادئاً ومرناً ومعبراً عن مغامرته ومجازفته من أجل إنقاذهم.

"والآن إن سمعتم كلامي وحفظتم عهدي، فإنكم تكونون شعبي الخاص بين جميع الشعوب. فالأرض كلها لي وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة."

سفر الخروج ١٩: ٥-٧

واستطاع الإله اليهودي النجاح في خطابه الموجه لبني إسرائيل حيث حضي بالقبول والانصياع له والاستجابة لكل ما قاله ونقله لهم موسى. عندها حصل تغير في الخطاب الإلهي / اليهودي، واختلفت لغة الحوار حيث أراد تحضيراً لوصاياهم وهيئة لبني إسرائيل، نفسية وجسدية.

"قال له الرب: اذهب إلى الشعب وقل لهم: طهروا نفوسكم اليوم وغداً واغسلوا ثيابكم، واستعدوا اليوم الثالث. ففي اليوم الثالث أنزل أمامكم على جبل سيناء."

سفر الخروج ١٩: ١٠-١٢

تبدو واضحة لغة الإبلاغ والطلب إلى موسى أن يهئ بني إسرائيل روحياً (نفسياً) وجسدياً، لأنه يعرفهم جيداً من خلال المشاكل التي حصلت وما أثاروه من

اضطرابات وانتفاضات، كسرت حاجز المهابة الإلهية الذي كان موجوداً عبر علاقتهم مع موسى. وما أبلغه إلى موسى يمثل محاولة من الإله اليهودي للتمهيد من أجل خطابه الإلزامي الذي سيطلقه موجهاً لبني إسرائيل وملزماً لهم به.

"فترل موسى إلى الشعب وأمرهم أن يطهروا نفوسهم ويغسلوا ثيابهم وقال: كونوا مستعدين لليوم الثالث ولا تقربوا امرأة."

سفر الخروج ١: ١٤ - ١٥

كلام موسى واجب التطبيق، لأنه إلهي / يهوي، بدون أن يقدم حلاً لأزمة الماء في الصحراء وشكواهم من العطش، وحصول انتفاضاتهم المشهورة في سيناء. كما يقدم النص إشارة إلى قذارة بني إسرائيل وتراكم الأوساخ عليهم. ولعل أمر الإله بعدم تقربهم لامرأة يعني عدداً من المشاكل التي بالإمكان الإشارة لها وأهمها:

- تزايد ممارسة بني إسرائيل للمحارم فيما بينهم لذا اشترط عليهم عدم التقرب لامرأة وبدون تحديد لما تعنيه المرأة في هذا النص (وسندرس ذلك ضمن الوصايا).
- وضع هذا الشرط محاولة من الإله لجس مستوى استجابتهم لطلبه، وانصياعهم لأمره الإلهي.
- إرسال شفرة يهوية عن أهمية وخطورة اليوم الثالث وقداسته، بحيث تحول التثليث إلى مبدأ حيوي في الديانة اليهودية، وهو مبدأ فيه قداسة ارتحلت إليه من ديانات الشرق القديم، لقد انتقل لهم من مصر كجزء من ثقافة غادرت معهم وتعاملوا معها باعتبارها جزءاً من إرثهم الثقافي وانطوت هذه الشفرة على وجوب التحقق كفعل إلهي لا بد منه ولا يمكن له أن يتأخر لليوم الرابع مثلاً. وفي ذلك إضفاء

القدرة الخلاقة والمخارقة على يهوه الذي لوحده يحدد ما سيكون وسيحدث بحيث يقول له كن فيكون.

■ أول إشارة مهدت للعلاقة مع المرأة التي صارت تابواً. مثلما عبرت عن كونها دنساً، لأن الاقتراب منها وإقامة اتصال ثنائي جنسي وإياها يعتبر خرقاً لناموس الإله يهوه الذي هيئ له وسيلعن عنه لاحقاً.

■ ومن هذا النص، ابتداءً التابو الأنثوي يخترق حياة بني إسرائيل وتؤسس حوله عزلة، لتفقد / المرأة بعضاً من خطاها، وتظل أسيرة الخطاب الذكري. وتحقق لها العزل في الحياة الاجتماعية والدينية. وإشارة الإله لضرورة تعطل الاتصال مع المرأة، تعني أيضاً تبلور موقف ديني جديد، مثلما تحسد اتساع مساحة ممارسة المحارم بين الجماعات. لذا كان طلب الإله - المشار له - تعطيلاً لفعل ممارسة المحارم.

وستكشف لنا الوصايا هذا التابو وتؤكد به باعتباره ظاهرة أخلاقية شائعة جداً.

وعلى يهوه أن يظهر جبروته وقوته وعظمته قبل أن يرسل وصاياه من أجل أن يضمن الاستجابة لها والقبول بها والالتزام بتنفيذها. لأنه يدرك جيداً همجية بني إسرائيل ووحشيتهم وأخلاقهم الصحراوية. وأكد جيمس برستيد على أن بني إسرائيل بدو رحل طبعت الصحراء الثقيلة أخلاقهم و سلوكهم بطابعها. وطغت عليهم القسوة والصلابة، عرف الإله يهوه بأن شفرة التهديد ضرورية جداً. وهذا ما حصل له في تجلية فوق جبل سيناء، لأنه كان تجلياً له وظيفه ردعية، وهو رأسمال رمزي للديانة الجديدة به ومن خلاله يحصل ضبط بني إسرائيل. ولهذا لجأ موسى إلى تحشيد بني إسرائيل عند جبل سيناء، كي يروا في اليوم الذي حدده الإله - الثالث - الرعود والبروق والسحاب الكثيف على جبل سيناء، وصوت بوق شديد، أثار الرعب في الحشود. إنه الإعلان اليهودي وبطريقة الإله الخاصة للإمساك بالحشود وتحديد حركتهم

وتقليص تمرداتهم لأن الإله اليهودي، كثيراً ما واجه المتاعب مع نبيه بسبب الانتفاضات والثورات التي أربكت مسار الديانة الجديدة.

كان إثارة الرعب عند بني إسرائيل هو المطلوب من يهوه، عندها أخرجهم موسى - لملاقاة الإله - لكنهم لم يتحركوا أكثر من حافة الجبل الذي يلفه الدخان، هذه الصورة السريالية الشتوية التي طبعت الجبل كانت بسبب نزول الإله فوقه والرعود والبروق والأصوات هي تبدييات الإله المرافقة له لحظة نزوله فوق جبل سيناء / حوريب، وهي ذاتها عناصر العديد من الآلهة في الشرق الأدنى القديم^(*) وهذه العناصر ضرورية للإله، أنها ساهمت بصياغة الموقف النفسي / الروحي لبني إسرائيل وموقفهم الجديد.

لقد اختفى الجبل بالسحب والدخان. وكأنه أتون مشتعل، وصوت الرعد يترفع وموسى يتكلم، لكننا لا نعلم بالذي قاله موسى مع الإله أو مع الحشود الموجودة أسفل الجبل. ولا ندري كيف تسنت الفرصة لموسى في التحاور مع يهوه وسط تلك الفوضى والضجة، التي كان الإله يعمقها بالتالي الرعدي المستمر لقد نزل الإله فوق الجبل، وبني إسرائيل وسط الدهشة والذهول والخوف. ولم يصعد إلا موسى في البداية، لأن الإله نادى عليه ويبدو بأنه لا يستطيع الحديث من على مسافة إلى موسى، لأنه صعد إليه بعد أن طلب منه ذلك. وقال له انزل واطلب من بني إسرائيل أن لا يقتربوا من الجبل ولا ينظروا إليّ لأنهم يهلكون. السؤال، ألم يكن باستطاعة يهوه إخبار موسى بذلك، حيث يوفر عليه متاعب الصعود فوق الجبل والتزول ثانية لإبلاغ بني إسرائيل بالأمر اليهودي. لقد منع الحشود من الاقتراب إلى الجبل، وطلب من الكهنة / مؤسسته الدينية التخلص من وساختهم وملابسهم القذرة والتقدم إليه. وتحصل

(*) درسنا هذا في "كتابنا - أقنعة التوراة والصادر عن الدار الأهلية للنشر / عمان، ٢٠٠٢.

المفارقة أمام بني إسرائيل لحظة طلب الرب من موسى بالترول مرة ثانية والصعود مع هارون. وربما هذا الصعود - هارون - هو الذي ساهم بصياغة أصول الموقف الديني لهم بعد صعود موسى طويلاً فوق حوريب، والطلب إلى هرون صنع عجل ذهبي لعبادته. لأنهم عرفوا بالعلاقة التي يتمتع بها هارون عند الإله، ولم يكن طلبهم خروجاً على الرب وإنما تاصيلًا لقناعة وإيمان بشخصية هرون. ولم لا يأتمرون بهرون وهو على هذه الدرجة من الحضوة عند الإله يهوه؟

ولم يقدم النص التوراتي تبريراً لصعود هرون. ووضع الحد على بني إسرائيل والكهنة؟ وهل كان هرون شاهداً على الحوار الدائر بين الإله وموسى؟ أم أنه - هارون - سيستلم مع موسى الوصايا العشر؟ وهذا أمر غير ممكن، لأن الوحي خاص بموسى. وعلاقة يهوه معه فقط. هل أدرك الإله اليهودي / اليهودي ضعف شخصية موسى، وحاجته إلى دعم معنوي وقوة رمزية، وسمح لهرون بصعود الجبل كي يحترمه العبران ويخافون منه ويصير قوة مساندة لموسى.

٢. الخصوبة اليهودية المسروقة

لأن الإله عرف موسى جيداً أمام انتفاضات بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، لم يأخذهم نحو حياة سعيدة وراحة واستقرار، وإنما قادهم نحو الجوع والعطش. وكان رد فعلهم قاسياً على موسى و على الإله وكان آنذاك أول تحدٍّ للإله يهوه. وكشف له ولموسى بأن بني إسرائيل وضعوا أمامهم المتحقق في مصر، والموجود في سيناء، وأدركوا بأن وجودهم هناك - مصر - كان سعيداً، ويوفر لهم كل ما تحتاجه النفس. أما الشتات، فقد علمهم الجوع / العطش / الرشوة / الزنى / ممارسة المحارم... الخ. وجسدت انتفاضة بني إسرائيل خيبة موسى وإحساسه بالفشل وإمكان بقاء الثورات التي ستأكل كل شيء، وتبوء مهمته بالفشل. وعلينا أن نتصور شخصية موسى وهو يحوز على البطولة مع النبوة عند إخراجهم من مصر وبواسطة الضربات المعروفة ويرتل نشيد نصره في سيناء، يواجه ذلك التمرد الموضوعي الذي وضع بني إسرائيل أمام مواجهة جديدة وحادة جداً. لذا استجاب الإله لهم، استجابة أعادت صياغة أساطير الشرق الخاصة بمنظومة الخصب.

"... فألقوا اللّوم على موسى وهرون في البرية وقالوا لهما "ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، فهناك كنا نجلس عند قدور اللحم ونأكل من الطعام حتى نشبع، فلماذا أخرجتانا إلى هذه البري لتميتنا هذا الجمع كله بالجوع".

سفر الخروج ١٦ : ٢-٣

يمثل هذا الكلام رفضاً لما هو كائن، وتحدياً لهرون وموسى لأنهما يريدان قتل الجموع عبر الجوع، واعترف بنو إسرائيل بجياهم داخل مصر، وكانوا يفضلون الموت بيد الرب على الخروج إلى سيناء، ويموتون فيها بالجوع.

"فقال الرب لموسى " الآن أمطر لكم خبزاً من السماء وعلى الشعب أن يخرجوا ليلتقطوه طعام كل يوم في يومه. بهذا امتحنهم، فأعرف هل يسلكون في شريعتي أم لا ويكون ما يلتقطونه في اليوم السادس ضعف ما التقطوه في كل يوم قبله."

سفر الخروج ١٦ : ٤-٥

لقد تحققت أسطورة الإله اليهودي باستنزال الخبز مطراً من السماء ووضع ضابطاً لهم، ورادعاً ينظم علاقة الجائع مع خبز لم يروا مثيلاً له من قبل حتى يعرف سلوكهم والتزامهم.

"فأعرف هل يسلكون في شريعتي أم لا" ويبدو هذا الطلب غرائبياً ولا يصدر إلا من إله أرعن، وقامع، لأنه يريد من الجياع أن تأخذ قليلاً وهي التي كادت تموت جوعاً.

ولأن المنّ أنقذهم وخلص الإله يهوه من قطيعة معه، وأسعد موسى من خلال أسطورة ما زالت مشهورة. أمر موسى هرون تقلب المنّ أمام تابوت الرب.

"وقال موسى لهرون: خذ جرة واجعل فيها ملء الغمر مناً وضعه أمام الرب محفوظاً مدى أجيالكم فوضعه هرون أمام تابوت العهد محفوظاً كما أمر الرب موسى"

سفر الخروج ١٦: ١٣-٣٥

ظل المنّ محفوظاً في تابوت العهد ويأكل منه العبران خلال فترة شتاتهم، يزودهم الإله يهوه به حتى دخولهم كنعان. ولأول مرة يحدث في أسطورة دينية، تتداخل معها وقائع، بعضها تاريخي، أن يتغذى شعب كامل بخبز سماوي لمدة أربعين عاماً. تعبيراً عن رعويتهم وعدم تملكهم لأرض يمارسون عليها نشاطهم. لذا توقف خبز الرب بعد دخولهم إلى كنعان.

وفي نص لاحق، كان المنّ محفوظاً مع عصا اللوز في تابوت العهد علامة تشير إلى مرحلة من مراحل الشتات الصحراوي.

وأجد بأن أمر الرب الذي نقله موسى إلى هرون القاضي بوضع المنّ في تابوت العهد مع عصا هرون تعبير رمزي عن سعي يهوه لحيازة الطاقة الجنسية التي تقترن بها فاعلية الحياة. وأجد بأن المنّ هو ماء يهوه وطاقته الجنسية / الذكورية "المني" كعنصر من عناصر منظومة الخصب التي عرفتھا الديانة العراقية القديمة. لأن حيوية الطاقة وقدرتها على التخليق صفة الآلهة التي حازت صفة الخلق. وهذا ما سرقه يهوه من الإله السومري أنكي ومن دوموزي أيضاً في أناشيد الحب السومري.

أشار الأستاذ شفيق مقار إلى أن - الشرخ في ظل ذلك الاختلاس الأسطوري لألوهة المعبودات القضيبيية لأخرى المنافس كهنوتها لكهنوت يهوه - ناجم عن التناقض الجذري بين الإصرار على اختلاس القدرات القضيبيية لتلك المعبودات والإصرار - إبان عملية التحرير والتثيت بالنصوص التي تواكبت مع جعل يهوه إلهاً محتجباً أثرياً لا مشخّص، ولا جنسي ورفعه إلى ما فوق الخلد. السومريون والبابليون، والكنعانيون،

الذي جرى ذلك الاختلاس منهم، لم يكونوا قد ابتلوا أنفسهم أو ابتلاهم صانعوا أسطورياتهم بدءاً التطهيرية المكذوبة العضال والذي ابتليت به عباده يهوه في الصياغة الكهنوتية بحكاية آدم وحواء "الخطيئة الأصلية" ولم يكونوا قد فصلوا في وعيهم الجمعي بين الدين ومتاعبه الجنسية، ولذا فإن كان بوسعهم أن يرموا لـ "الأب إنكي"

وهو واقف بخيلاء كثور عارم

رافعاً قضيه قاذفاً منيه مالئاً دجلة بالماء

الزلال

ودجلة مستسلم له كبقرة برية لثور لا يغلب،

إنكي رافعاً قضيه قاذفاً مهر عروسه

مفعماً بالنشوة مياه دخلة كثور فحل في لحظة

الإخصاب

مريقاً ماءه، نبيذه حلو المذاق،

منبتاً الغلال، الغلال الوفيرة ليقنات البشر،

وليملاً بيت إنليل بالخيرات

بإنكي إنليل يسرّ وتبتهج نقر

ولأن الحضارة العراقية القديمة معنية بالحياة، واستمرارها وبقاء الخصب فيها شرطاً، اهتم الآلهة بذلك، الآلهة المهمة في الباشيون وصار الخلق واحداً من وظائفهم وتنوعت تلك المنظومة الخصبية في التعبير عنها والإشارة لها من خلال الكثير من النصوص والأناشيد والأدعية وكان "المني" مفردة تعني ماء الحياة / قطرة الذكورة التي

لا تخدش الذوق عند الاستماع لها، هذه المفردة ساهمت بتكوين وصياغة منظومة الأناشيد الدوموزية الخاصة بالاتصال والحفاظ على ديمومة الانبعاث وعوده الأبدي. ولهذا ارتحلت إلى الديانة اليهودية والفرق المورفولوجي بسيط بين الاثنين "المن" و"المني" وكلاهما طعام للجسد، كي يحافظ على بقاءه واستمراره و"المن" الذي صار خبزاً لبني إسرائيل، هو غذاء الأرض النازل من السماء ليخصبها عبر استمرار علاقة التغذية للحشود. والمن هو القذف السماوي / الإلهي نحو الأرض، ولا يختلف عن ماء الإله إنكي وهو يملأ دجلة بالماء الرقاق والمتدفق، كي يتم الحفاظ على الحياة ونسقتها. ولأنه معجب جداً بعناصر ألوهة الخصب، اندفع وحاز عليها وأسقطها مطراً / خبزاً، يأكله بنو إسرائيل، تطرفاً في الحيازة وتبديها بتلك الوظيفة.

منه يتساقط ويصير خبزاً. ويظل فعل الخصب ماثلاً للجرة لفترة أربعين عاماً. ويلاحظ التناغم بين الجرة (الرحم) وهي شكله الكامل وبين "المن" المخزون فيها، تعبيراً عن فعل الاتصال الثنائي بين الإله يهوه وبين أنثاه المجازية (الجرة) ونجد الكثير من النصوص العراقية القديمة جافلة بهذا التعبير المجازي ولعل أناشيد الحب السومرية أفضل دليل على ذلك.

وبمجرد أن تدفق من حضن الملك - ماء القلب -^(*) فعلى جوانبه انبثقت الزروع، وعلى جوانبه نبت الحب.

وبقربه زحرت ينمو نباتها السهوب والمروج

بينما في بيت - الحياة، في القصر الملكي

ركنت قرينته إلى جانبه تملأ قلبها بالبهجة

في بيت - الحياة، في القصر الملكي

(*) قاسم الشواف، ديوان الأساطير، أناشيد الحب السومرية، دار الساقى، لندن، ١٩٩٦، ص ١٢٤.

بقيت إنانا إلى جانبه مكتملة البهجة
كان حبيبي قد قدم للقائي
فبلغ معي لذته وكنا سعيدين معاً!
كان أخي قد قادني إلى داره
وجعلني أتمدّد على فراشه الناعم المضمخ بالعطر!
وعند ذلك تمدد حبيبي العذب فوق قلبي
وبضربة لسان بعد أخرى، وبـ "...." بعد آخر
ولكنه بعد ذلك، ويداه على خصريه
بعد أن أشبع شهوته، حبيبي العذب "قال لي"
دعيني أذهب يا أختاه، دعيني أذهب!
بل! أي أختي الحبيبة، أنا عائد إلى القصر

وسنحاول إضاءة التباين الموجود بين الأصول السومرية الخاصة بالإله إنكي
والإله اليهودي / اليهودي في مجال الخصب ونظام الخلق، وستضيء كشف القراءة
تعلق يهوه بوظائف ليست له، ولم يذكر معها من قبل أبداً.

الترانيم السومرية^(*):

١. أنا الرب وليس آخر.
٢. أنا من يأمر فلا يسأل ولا يرد له أمر.
٣. أنا من إذا مست قدمه الأرض فاضت يناييعها.
٤. وإذا مرت قدمه قرب مروجها تكدست فيها الغلال وكثر القطعان.

(*) شفيق مقار، الجنس في التوراة وسائر العهد القديم، الكتاب الأول، من الإلهة الأم إلى الإله الأب، دار يعرب،

دمشق، ١٩٩٨، ص ٢٩٠.

العهد القديم - سفر إشعيا:

١. أنا أنا الرب وليس غيري "٤٣ : ١١"

أنا الرب وليس آخر "٤٥ : ٥"

أنا الرب وليس آخر "٤٥ : ٦"

أليس أنا الرب ولا إله آخر غيري "٤٥ : ٢١"

٢. من اليوم أنا هو ولا منقذ من يدي، أفعل ومن يرد؟ "٤٣ : ١٣".

لأنني أنا الرب وليس آخر.. رأبي يقوم وأفعل كل مسرتي. قد تكلمت فأجريه.

قضيت فأفعله "٤٦ : ٩-١١".

المزامير:

٣. تعهدت الأرض يا يهوه وجعلتها تفيض

تغنيها جداً، سواقي يهوه ملآنه ماء "٦٥ : ٩".

٤. تبارك غلتها وآثارك "آثار أقدامك" تقطر دسماً، تقطر مراعي البرية وتنطق

الآجام بالبهجة وتكتسي المروج غنماً "٦٥ : ١٠-١٣"

بهذه المقارنة المحدودة^(*) يكون قول إنكي "أنا الرب وليس آخر، أنا من يأمر فلا

يسأل ولا يرد له أمر" ركب دماغ إشعيا بشكل جعله يكرره تكراراً مفرطاً في

الإلحاح ولم يخدم يهوه كثيراً بل عله يبدو كما لو كان مخلوقاً بشرياً" ربما كان إشعيا

ذاته "مصاباً بعقدة نقص خطيرة، ثم - في النهاية - يتساءل، ليطمئن قلبه "أليس أنا

الرب ولا إله آخر غيري"؟

(*) شفيق مقار، الجنس في التوراة، سبق ذكره، ص ٣٩١.

أما قول ذلك المعبود السومري إذا مست قدمه الأرض فاضت ينابيعها وإذا
مرت قدمه قرب المروج تكدست فيها الغلال وكثرت القطعان، فأعلان سيادة إلهية
في أسطوريات كل آلهة الشرق الأدنى القلم القضائية التي اغتصبت - على غياب
حلوها البطريركي - وظائف الإنعام بالخصب والخصوبة على الأرض والبشر وسائر
المخلوقات من الإلهة المؤنثة. وذلك إعلان سيادة إلهي بطريركي نجده تاركاً بصماته
بقوة لا تخطئها عين في التوراة وسائر العهد القلم، فيما يتعلق بقدرات عزيت إلى يهوه
بالاختلاس من الآلهة القضائية الأخرى. ذات الكهنوت المنافس للكهنوت اليهودي،
بشأن منح المطر أو منعه والإنعام بالخصب (بفتح رحم) أنثى الإنسان والحيوان.
والخصوبة، بقذف المنى الإلهي المخصب "ماء الروح، ماء الحياة، ماء السماء" في رحم
الإلهة الأم / الأرض، أو الابتلاء بالقحط و"إفقال رحم" أنثى الإنسان والحيوان،
والامتناع عن إمداد رحم الأرض بالمنى الإلهي.



شكل (١٢): عشتار التي ترضع العالم... مصدر الأسطورة

٣. العصا علامة رمزية

وسرق الإله اليهودي خاصية إلهة الشرق / الحضارة العراقية والمصرية ليعبر بها عن قوة مماثلة ومكانة مهابة، لكنه لم يكن عارفاً من أن تلك الخاصية بحاجة إلى نظام متكامل تتوزع عناصره إلى الأرض / المياه / والبنية السياسية التي تتحول لاحقاً إلى مدار له حضوره في حاضنة الألوهة. لأن الملك امتداد للآلهة وممثل له فوق الأرض. الملك يحكم / ويقود الرعية. لهذا فإنه / الملك يحمل بيده عصا الإله، التي صارت عصا الملوكية، إشارة لرعيته وقد حاز الإله يهوه على صفة الملك أيضاً ومثلما كان ذلك للإله أنو في العراق القديم والإله أوزيريس.

وكانت عصا يهوه الموجودة في تابوت العهد (سنناقش ذلك لاحقاً) عصاه الرعوية مثلما قلنا، وهي علامته على غطرسته وجبروته، ووسيلته الرادعة - مع الظواهر الأخرى - لبني إسرائيل والشعوب الأخرى التي تتجاوز عليه وتوجه الإهانة له. وعصا الإله يهوه الرعوية، ظلت لفترة طويلة ملازمة له ولم تكن العلاقة معها رمزية مثلما هو حاصل مع الإله والملوك لاحقاً، لأنه قضى فترة طويلة جداً هائماً في الصحراء مع بني إسرائيل وحيواناتهم ومواشيهم وهي فترة طويلة وصعبة وكان يهوه وموسى يحتاجان للعصا. وهي / العصا الدالة، على السلطة المتنوعة / المختلفة

وسأحاول تقديم توصيف تاريخي وتأصيل للعصا في الحضارات الشرقية وصلتها مع الدين والمرحلة الرعوية.

ولا يمكن لأي دراسة معنية بالألوهة والديانات البرية والتوحيدية أن تتجاهل وجود العصا كعلامة مرتبطة ارتباطاً أساسياً مع النبوة والشخص المعني بالدور القيادي في السلطة.



شكل (١٣): النبي إبراهيم مغادراً أور، رافعاً عصاه

كونت العصا بعضاً من تجسّدات الآلهة والملوك. وهذا ما توضحه الأختام الأسطوانية والتمائيل المنتشرة على مساحة واسعة. وذلك لأنها تمثل رمزاً لنظام الخصب والنسق الخصوبي وصلة ذلك مع الإلهة الأم وهي - العصا - علامة مشهورة / معروفة / متكررة كثيراً بهيئة عصا قضيبية في نهايتها: استدارة. وصار لها دور آخر مرتبط بتطور النظم السياسية والاجتماعية، وتبلور الصراعات بين دويلات المدن. حيث كان

دورها آنذاك دفاعياً وصيانياً، وتطورت في العصر الآشوري المتأخر وحازت على عناصر عسكرية، ولذا صنعت من البرونز أو الحجر، وهي قصيرة وذات نهاية مدبية مثل نهاية الرمح كما كانت واجدة من وسائل اللهو والرياضة وإعداد الجسم. وعلى الرغم من امتداد العصا كعلامة سيميائية ومنذ ابتداء التاريخ وحتى الآن، فإنها اكتسبت عبر التداول معناها التداولي المتطور مع اختلاف الوظائف الخاصة بها وهيمنة لها في الحياة، من خلال الاستعمال الاجتماعي، لأن المؤسسة الاجتماعية أنتجت وظائف للعصا مختلفة عبر العصور والحقب، من أجل تحقيقات تفعية. لذا فعند توصيفنا لتطور العصا من خلال وظائفها، نتعرف على الفروق الموجودة فيها بين المراحل الحضارية. فمثلاً كانت العصا في زمن حمورابي أطول من قامة حاملها ومستوية من نهايتها وذات رأس صغير ومدور في بدايتها، ومثلها العصا الملكية الفارسية والرومانية، وظهرت العصا بعد زمن طويل علامة للأمراء في جزيرة ليديا.

وامتازت عصا العصر الكلداني بالطول والغلظة وتكاد تتساوى مع قامة حاملها، فهي ذات وظيفة رعوية ودفاعية عن النفس. وعرفت المرحلة الآشورية العصا الرمحية، ويبدو بأنها أحد أسلحة المحارب. أما في وقت السلم والاستراحة فإنه يحمل عصا برونزية ذات نهاية رمحية مدبية وظهرت أيضاً العصا العكاز، ذات الرأس المدور بنصف استدارة.



شكل (١٤): أمير ليدي متباهياً بعصاه

وهي علامة على الألوهة في مصر القديمة ولها وظائف متنوعة دينية / اجتماعية / وطقوسية. وتتطور النظم السياسية صارت لها خصائص سياسية وعسكرية. لذا فإن الآلهة المصرية ظهرت في الرسوم والنقوش حاملة العصا، وهي رفيعة تماماً وطويلة وعصا الإله "رع" مختلفة عن عصا الملوك والآلهة الأخرى و عصا "رع" طويلة كما قلنا وتنتهي بأسفلها بنحت مماثل للرقم ثمانية وينتهي رأسها بمدورة صغيرة.

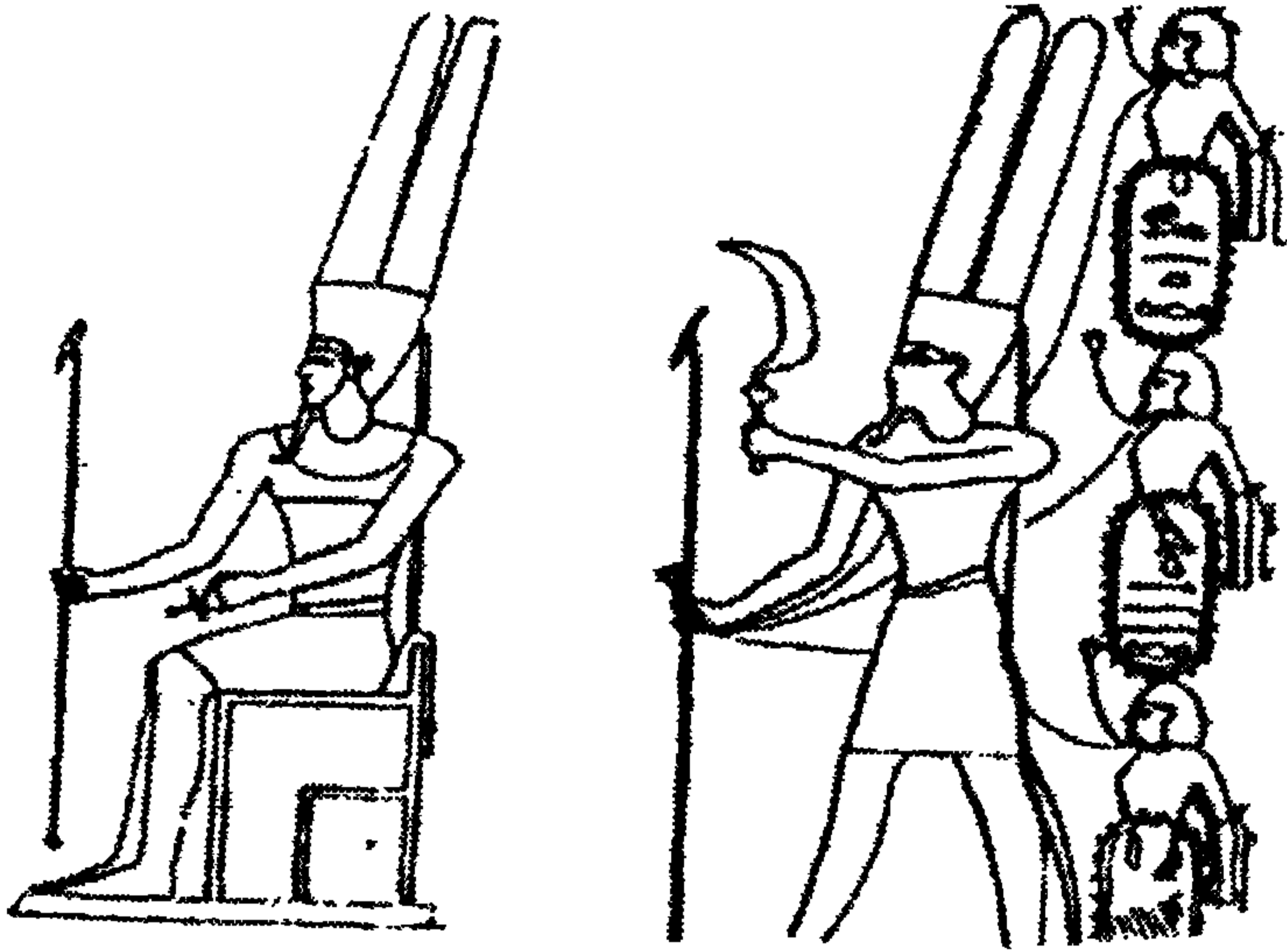
أما عصا الإلهة سخمت فهي قصيرة ومستقرة بنهايتها فوق الأرض وليس فيها التشكيل الخاص بالرقم ثمانية لكن بدايتها ذات رأس مدور.



شكل (١٥): الإله أنوبيس

وكانت المرأة المصرية في عهد الدولة الحديثة تحمل العصا بيدها مثل الإلهات، ويبدو بأنها ذات وظيفة جمالية وتعويذية، وربما كانت من خصائص المرأة في العائلة الملكية أو صفة لها وقد ظهرت كذلك من خلال النقوش والجدارية.

وظهر الإله موت الكنعاني حاملاً عصاه في أكثر من عمل فني.



شكل (١٦): الإله (آمنون) على اليمين، الإله (آمون - رع) على الشمال وفي كلا الحالتين يحمل عصا الملوكية المقدسة

أما العصا الإغريقية، فهي وسطية الطول، ذات نهاية نحيفة ومدببة وتنتهي برأس مدور وهي أكثر شبيهاً بعصا الألوهة المصرية وأيضاً كانت لها وظيفة عسكرية باعتبارها سلاحاً قصيراً.

ووجد تمثال لسيدة ترتدي الزي الدوريسكي وتستند على عصا طويلة فوق الأرض، وتلف رأسها بيدها اليسرى وتلقي الرأس عليها. ويبدو أن هكذا نوع من العصي له وظائف جمالية وإغرائية. وصارت للعصا في حضارات الشرق خاصة إيقاعية. ففي الأسطورة السومرية "إنانا" جلجامش وشجرة الخالوب "صنع الملك المعروف جلجامش من شجرة الخالوب كرسيًا للآلهة أنانا / عشتار ومضرباً للطبل. ومن العصا - أيضاً - كان الزمار الذي عزفت عليه الآلهة المصرية "بس".

وفي الأسطورة السومرية المعروفة "نزول إنكيديو إلى العالم السفلي" وراء "البكو
والمكو" نقرأ وصايا الملك جلجامش إلى صديقه إنكيديو^(*):

أريد أن أقدم نصيحة، فأتبع نصيحتي

لا تلبس ثياباً نظيفة

"وإلا" فأفهم سيصرخون بوجهك لأنك غريب

لا تطيب بالزيت الفاخر من صندوق الطلاء

و"إلا" سيجتمعون حولك

لا تقذف رمحاً (?) في العالم الأسفل

"وإلا" فإن الذين ضربوا بالرمح سيحيطون بك.

لا تأخذ عصا في يديك

و"إلا" فإن الأرواح سترتجف أمامك.

إن وصايا جلجامش لصديقه إنكيديو، هي مبالغات ثابتة يتزود بها كل من نزل
إلى العالم الأسفل، ويبدو بأن للعالم الأسفل نظامه الخاص وطقوسه التي لا يمكن
المساس بها، أو التجاوز عليها. وإن حصل هذا، فإن من قام بالتجاوز ستحل عليه لعنة
الآلهة المسؤولة هناك.

وورد في ملحمة البعل وعناة نص قصير^(**):

(*) د. نائل حنون، عقائد ما بعد الموت. في حضارة بلاد الرافدين القديمة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط ٢، ١٩٨٦،
ص ٣٤٠.

(**) أنيس فريجة، ملاحم وأساطير من أوغاريت، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠، ص ١١٣.

أنت ثرت، بسبب كبريائك.. فأجاب

الظافر البعل....

عن كرسي سلطانك.....

لتنزلن على رأسك مطرقة السماء "القارعة"

وعلى هامتك "الطاردة"

والقارعة + الطاردة، سلاحان صنعهما كاشر ونحاسس للبعل ليقهر بهما عدوه
"يم" أما الأول فاسمه في لغة أوغريت "أيمر" وليس له عندنا تعليل لغوي. وأما الثاني فهو
"يجرش" والجذر سامي مشترك: جرش بمعنى طحن. غير أن أكثر علماء أوغريت
ترجموه "بالطاردة" وكنا نؤثر أن نسميه "الجاروشة" ويرمز إلى هذين السلاحين بيد
البعل بالصاعقة والصولجان. كما في الشكل (١٧).



شكل (١٧): الإله بعل وهو يحمل الصاعقة بيده اليمنى والرمح بيده اليسرى

ولقد قاتلت عناة في أساطير أوغاريت - بالعصا والقوس فترة طويلة حتى وصلت إلى قصرها. وقد خاضت بدماء القتلى. وقد أخذ الإله يهوه كثيراً من صفات عناة التي كانت تتبرج وتكثر من العطور قبل دخولها المعركة.

في دم الجنود، وثيابها (أو أقراطها) تلطخت بنجيع^(*) الجنود. بالعصي تطارد

الشيبي (الشياب؟ السبي) قوسها مشدود على ظهرها

ها أن عناة تصل إلى بيتها

نزلت الآلهة في هيكلها

ولم تشبع بعد من القتل في الوادي

....

....

حاربت عناة كثيراً، ونظرت إلى الخراب

ففرحت عناة

وابتهج (انتفخ) كبدها، وبالضحك امتلاً

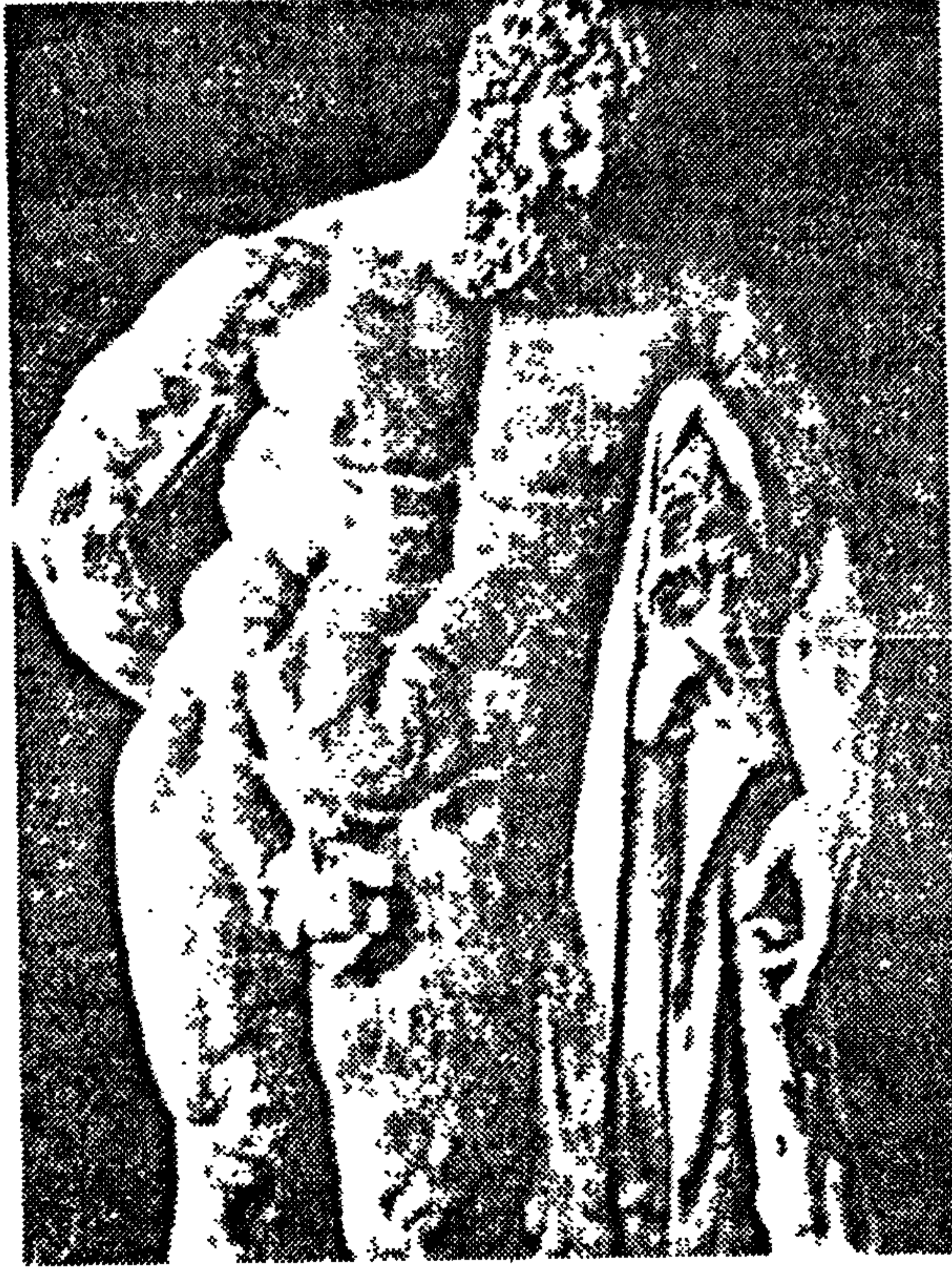
قلبها وبالفرح (امتلاً) قلب عناة

شكل (١٩): الآلهة عناة ومعها رجمها. وتقف على أسدها



(*) أنيس فريجة، أساطير وملاحم من أوغاريت، سبق ذكره، ص ١٩٢.

عرف الفكر العراقي القديم العصا باعتبارها علامة ولها وظيفة خاصة، ولعل أشهر الأعمال النحتية والأسطوانية تؤكد ذلك. وتظهر أهميتها في ما يعنيه وجدوها المتمركز في مسلة حمورابي وخصوصاً في القسم العلوي منها، حيث يظهر الإله شمش، وهو يسلم الملك حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م) نصوص قوانينه وفي يد الإله شمش الحلقة المقدسة وعصا القياس.



شكل (٢٠): هرقل يتكى على عصاه

وكانت الشيطانة الليلية "ليليت" تداهم الرجال في منامهم وتمارس معهم فعل المتعة. وهي تتمثل بامرأة ذات جناحين وساقين طائر. وتقف فوق لبؤتين وإلى جانبها بومتان وفي يدها اليمنى الحلقة المقدسة وعصا القياس شعاراً تنكرياً لها عند دخولها إلى مجلس عدل الملك سليمان.

وكشفت الأختام الأسطوانية من عصر نهاية سلالة أور الثالثة عن الإلهة عشتار
حاملة بيدها العصا أيضاً ويكشف الرسم الجداري لتنصيب "زمر يلیم" في قصر ماري
عن آلهة تحمل في الیمنی عصا الملك. وبمراجعة بسيطة للمصادر التي درست تاريخ الفن
في العراق القديم^(*) سيتضح بأن العصا ساهمت بصياغة مفردات حاضرة في البنية
الذهنية آنذاك وخصوصاً بما له صلة بالسیاسة والدين والمعارك وسيادة القانون أيضاً.



شكل (٢١): رمز السلطة ويظهر مرافقاً للإله آنو والإله إنليل ومع الملوك وهو مكون من عصا وبجانبتها حلقة
دائرية ، رسم: علي محمد آل تاجر

(*) أنطون مورتيكات، الفن في العراق القديم، ت: د. عيسى سلمان وسليم طه، وزارة الثقافة، ١٩٧٥.

أندريه بارو، بلاد آشور، ت: عيسى سليمان وسليم طه، وزارة الثقافة، ٩٨٤.

أندريه بارو، سومر فنونها وحضارتها، ت: د. عيسى سلمان وسليمان طه، وزارة الثقافة ١٩٩٧.

٤. العصا، قراءة تأويلية

لاحظنا من خلال التوصيف السابق الذي قدم تأصيلاً للعصا في الحضارات الشرقية القديمة وصلة ذلك بالديانات والثقافة / السلوك التي صاغت منها مهيمنة حملت ملامح الشعوب وميزت بين شعب وآخر من خلال طريقة أو طرق استعماله للعصا. وصارت - العصا - مرآة، تعرف بالعرق المعني وتشير إليه. وظلت لفترات طويلة جداً دالاً يؤكد عبر نوع الممارسة والمساهمة على مدلول متسع، يقترن بشعب من الشعوب ويشير عليه.

إن العصا علامة، لم تكن منعزلة عن محيطها أو مؤسساتها الاجتماعية / الدينية / السياسية، وتجسدت بشكل مختلف ومغاير وظلت محكومة بانقياد كلي للنظام الديني، والمنظومة السحرية السائدة والشعائرية الاتصالية. والعصا نظام علاماتي في المحيط الجغرافي الواسع للحضارة الشرقية، وحققت فعلاً اتصالياً / تبادلياً تمتع بحاكمية حقيقية وتميزت بسلطتها المادية والرمزية في آن لأنها متشكلة - كنظام - من مجموعة وحدات إشارية وليست لسانية، إشارية منتجة استجابة لضروريات دينية / اجتماعية / سياسية. وهي بذلك، ظلت محكومة بإشاريتها المتعددة والمتنوعة والمختلفة لكنها واحدة لسانياً.

والحيوية التداولية للعصا في الاستعمالات اليومية العديدة تبلورت من خلال التواتر الاتصالي. أي أنها نتاج ذخيرة ثقافية وذاكرة جمعية سابقة، ومدعومة بذاكرات الحاضر والمستقبل، حيث التعامل معها بشيء من القداسة. وأجد بأنها أكثر علاقة مع الحقيقة اليومية للاتصال من خلال الإشارات التي اختارها الإنسان وعندما "يفسر" إنسان ما دليلاً فإن إنسانيته - بعبارة أخرى تجاربه السابقة ومعتقداته وتصورات المسبقة - سيكون لها أثر شامل في عملية التفسير "لأن تفسير الدلائل" شأنه شأن تفسير الإشارات هو عملية حضارية، وبذلك فإنه يرتبط بموصوفة اجتماعية تجمع الإمكانيات وتوحيدها إزاء التحديات وبغض النظر عن كونها إشارات أم دلائل، فإن معنى المؤشرات ستظل ذا علاقة بميدان الحضارة".



شكل (٢٢): حورس على هيئة ملك

٥. العصا رمزاً ذكورياً

كانت العصا في البدء إشارة مستلة من الطبيعة والتداول اليومي - كما قلنا - لكنه تداول محيطي / اجتماعي / سحري / ديني، له مجموعة من العناصر المساهمة بتأسيسها كنظام ديني. وهذه الإشارة، ساهمت بإنتاج معنى متباين ومتعدد. لكنها - العصا - كنظام ظلت مرتبطة أساساً بالألوهة وبالذات مع الألوهة المذكورة، ولم تكشف لنا الحفريات في العراق عن اقتران العصا مع الألوهة المؤنثة. وربما لأنها - العصا - تنتمي مع الذكورة، لأنها قضيبية الشكل وتتناوب وإياها في الاستعارة والمجاز. لذا كانت العصا إشارة للنظام الذكوري المهيمن بخطابه المتعدد على الأنوثة المغيبة تماماً. وذلك بسبب ممارسة التعسف ضدها في الخطاب التوراتي تأثراً بخطابات الشرق كلها. لأنها مارست فعل التحيد وإياها على الرغم، من أنها أشارت لها في الدلالة الرجولية الكامنة فيها من خلال العصا المقترنة بيهودا والتي منحها لثامار. (تك ٣٨: ١٨) دليلاً على ذكورته مثلما إثبات لسلطته البطرياركية ذات الهيمنة واتخاذ القرار. قرار الإعلان عن الإبادة لها، لأنها مارست فعل الزنى. هذا الفعل الذي فهمته الرجولة من خلال عصاها - الذكورة - تدنيساً لمساحتها الأنثوية وجغرافية جسدها

في الاتصال الإدخال، ي لكن العصا كإشارة كشفت تداخل الأنظمة مع بعضها وهو تداخل لنظام الرجولة مع نظام السلطة الروحية / الدينية / الاجتماعية سياسية.

وحصل الانحراف عن التطبيق وظلت الأنوثة قائمة بكيونيتها الروحية والثقافية، ومعلنة عن بقائها^(*) عبر استعدادها لفعل الخصوبة التي تجسدت بولادة التوأمين ودخول العصا رمزاً في العلاقة مع ثمارا ووجود البطريك يهوذا في هذا الدخول الذي تمركز في الذاكرة اليهودية، باعتباره محرماً ومناقضاً للوصايا العشر، كما أنه يمثل ممارسة للمحارم الواضحة واتصالاً خرق التابو ودنس المقدس الاجتماعي والأخلاقي. وكان لدخول يهوذا مداراً في الخصب اليهودي مثاراً لتأويل في قراءة جديدة "للوصايا العشر" لقد خسر يهوذا أولاده الثلاثة بسبب زواجهم بشمارا، المرأة المنحوسة / المنكودة التي تضاعف نحسها أكثر فأكثر بتالي وبتكرر زواجها من حميها الآخر، والمثير أنهم - الأزواج - لم يستطيعوا تفعيل حياتهم معها من خلال تخصيبها. فكل زوج من الأخوة، كان معطلاً وحاملاً عطبه معه، لذا لم يتمكن أحدهم من إيداع بذرته فيها، ويخصبها بنسبية توقظ امتداداً للبطريق يهوذا الحالم بامتداد نسلي يؤشر حيوية القبيلة ورأسها القيادي، ممثلاً لها بالأبناء. ولكن باء كل شيء بالفشل وانطفأ الأبناء بالموت. وظلت أحلام الخصب تلاحق يهوذا، لأن العقم عطب وعطل للبطريق / القبيلة التي هي للبدوي وطن^(**). لم يكن البدوي مربوطاً في الأرض. فالأرض واسعة وليست ملكاً لأحد. كما أن الأرض متغيرة فهي اليوم مخصبة وقد تجذب وإن أجذبت غادرها البدوي إلى أرض أخرى ذات خصب ونماء. وبذا فإن الأرض للجميع وبما أنها للجميع

(*) العصا، قراءة تأويلية، فصل من مخطوط درس قصة يوسف التوراتي.

(**) عبدالله الغدامي، المرأة واللغة، (٢) ثقافة الوهم، مقاربات حول المرأة والجسد واللغة، المركز الثقافي العربي،

فهى ليست لأحد، وهذا لا يصلح أن يكون أساساً للانتماء. ولذا فإن البدوي لا ينتسب إلى المكان.

وربما أراد يهوذا اختبار قدرته وحضور فحولته. وهل ظلت طاقته قادرة على إنجاز فعل التخصيب أم تعطلت؟ وأصابه الاندثار البيولوجي مثل الأبناء. ربما أيضاً يكون نجاح يهوذا في إنتاج الخصب قد قلل من صدمة اختراق التابو وتلويث المقدس الاجتماعي / الأخلاقي.

ومن المحتمل أن يكون البطريق يهوذا قد عرف بشمارا وإن لم يشر لذلك النص التوراتي وبوجود هذا الافتراض يكون يهوذا ساعياً للإبقاء على الحوار الثنائي بين مؤسستين اجتماعيتين أحدهما مؤسسة ثمارا وعائلتها والثانية مؤسسة يهوذا، كما أنه أراد الإبقاء على ملكية ثمارا لقبيلته. وأن تظل ممنوحة له. فهي أرضه وله حق حرثها مثلما كان معمولاً به في السابق، حيث الراسب الكامن في ذاكرة الجماعة ولذا أراد تجريب وممارسة هذا الدور التاريخي الأول الذي كانت فيه المرأة / أرضاً مشاعة وجاهزة لمن يريد تخصيصها بعد توفر الماء لها، ولم يفكر البطريق يهوذا مغادرة الأرض الممنوحة له / ولعائلته بعدما عرف بأنها مجدبة، بل أراد له دوراً في ثنائية العلاقة وحقق مجدداً بطرياركياً وفاز بفعل الاتصال بعد أن أوهمته ثمارا بصفتها المنحرفة أخلاقياً. وتؤكد بأن فعل يهوذا جسد فاعلية الأب / البطريق الذي لم يستطع الأنباء على قتله وتميش دوره الحياتي وتعطيله أيضاً.

وعلى الرغم من اتضاح الفعل اللاأخلاقي ليهوذا وانتشار الفضيحة، لم يكن وقتها خاضعاً للردع والعقاب التوراتي، الذي شرعه موسى بسبب بسيط جداً، هو السلطة الرمزية التي كان يهوذا قد حاز عليها من خلال كونه بطريكاً. وقد عطل فعل العقوبة والردع. ولم يخضع له تماماً واكتفى الشرع التوراتي بمبدأ مراقبته من خلال العصا والخاتم، لكنه ظل بعيداً عن المعاقبة، لأن الذهنية البطرياركية هي التي تصوغ

الردع / القانون المادي والرمزي وهي التي تعطله لحظة تشاء. لأن البطريق بديل عن المؤسسة السياسية وهو تعويض عن المنظومة الكلية الحاكمة سياسياً ودينياً وعندما يتحقق هذا فإن القبيلة تكون بديلاً^(*) عن الأرض والوطن والانتساب إليها - بالنسبة لثمارا - توطين للذات، ولولا هذا الانتساب لضاعت ثمارا.

ووجود العصا الخاصة بيهودا عند ثمارا دليل رمزي مبكر، وإشارة مسبقة على امتلاك ثمارا ليهودا عبر علامته الدالة عليه والمشيخة على فعل الاتصال بها، الإشارة التي تعرفها ثمارا لوحدها. ويمثل بقاء العصا لديها حيازة لذكورة العم، الذي دخل المشهد ممثلاً للأبناء المنطفئين بالعقم والموت وكأنهم ملاحقون باللعنة. فالعصا أداة ذكورية ترمز إلى أسى درجات الفحولة كما قال الغدّامي.

إن الاهتمام بإنتاج هذه الحكاية التوراتية ينطوي على قيمة كامنة في الطبقات الداخلية والقيمة - هذه - هي التي تعني كبة النص، الذين يدركون جيداً الفعل اللاأخلاقي الذي مارسه يهودا وغيره من الرجال، بما فهم داود، والقيمة الكامنة في الطبقات السرية هي منظومة الخصب التي لم يعرفها بنو إسرائيل في الصحراء وليدفعوا عنهم قمة الجهل، صاغوا هذه الحكاية مثلما أنتجوا عددًا من الأساطير أثناء خروجهم وكانت أسطورة العصا المبرعمة واحدة منها. وهذه واحدة من حكايات الصحراء^(**) التي ليس فيها بطل إلا العشق. وفيها تمارس الصحراء خيالها وإبداعها استخدام الجسد بوصفه أداة لغوية وإشارة دالة. وتنمو عبر هذه الأداة ذاكرة تظل حية حينما يرضى الجسد بأن يتحول إلى نص درامي تكتب عليه لغة الحب والموت والجسد الصحراوي بوصفه خطاباً حراً تفتح عليه قيم التعبير والمجاز وتصويرات المخيلة الراجبة في تمثيل وجودها اللغوي بواسطة الحكاية التي يتجمهر من أجلها ويحضر الشهود لكي يرونها.

(*) عبدالله الغدّامي، المرأة واللغة (٢)، ص ١٧٤.

(**) عبدالله الغدّامي، المرأة واللغة، ٢، ص ١٦٨ - ١٦٩.

إن الذي قامت به ثماراً قصدياً وبوعي تام. وهي امرأة ناضجة ومدركة لدورها ووظيفتها الحياتية / الاجتماعية - ما هو إلا تعبير عن بقاء فاعلية الأنثى في الحياة وبالإمكان الإعلان عن رفض لما مشرع أو مقترح لاضطهادها، لذا نهضت بمهمة الاعتراض الجريء والشجاع والذي كسر السائد الذي فرضته المؤسسة الدينية فرضاً، متجاهلة جذور ذلك في الوعي والتاريخ والحضارة. لذا أجد بأن فعل التنكر والانتظار عند قارعة الطريق تحد قوي للخطاب الذي صاغه ومركزه الرجل في الحياة، لأن الذكورة سلطة تتمتع بخطاب قوي / دموي ومن خلاله سعت لبناء نفسها^(*) وتحصين قوتها وتصدّت للدفاع عن إمبراطوريتها.. كذلك فهي سيادة قيمة معنوية، والقيم السائدة ثقافياً لا بد لها من شيئين أحدهما هو حدوث معارضة داخلية تناوئ السائد وتختال لحظات ضعفه أو غفلته لكي تعبر عن نفسها وتفصح عن معارضتها.

أشرنا إلى العصا باعتبارها ملمحاً للشخصية وبها تُعرف مثلما للخاتم من قدرة للدلالة على صاحبه. وكان اشتراط ثماراً على يهوذا بأن يقدم ارتماناً مقابل الاتصال بها وتحمس هو لذلك وأعطاهما العصا والخاتم. م ويبدو بأنه تعامل معهما باعتبارهما شيئين فائضين لا قيمة لهما، وبالإمكان الاستعاضة عنهما أو استبدالهما. أما ثماراً فكانت مختلفة عنه، وتعاملت معهما - العصا والخاتم - مكملين لشخصية البطريق في التعامل الخارجي معهما واحتفظا بمدلولات كامنة عبر تداخل الرواسب المرتبطة بهما وتطورهما لاحقاً عبر الحقب والعصور.

إن حيازة ثماراً على العصا والخاتم دلالة على بقاء المتداول الاجتماعي / الأخلاقي قابلاً للاستيقاظ والنهوض في الذاكرة، و استعادة أصوله الأولى التي جرفتها

(*) عبدالله الغدّامي، المرأة واللغة. ٢...، ص ١٣٩.

المراحل المتأخرة بقسوة الخطاب البطرياركي، الذي ألغى الثنائية التحوارية مع سلطة الأنوثة المساهمة بإنتاج خطاب مباشر له صلة حاضرة في الحياة / الدين / السياسية.

لقد فقد يهوذا عناصره الدالة على بطرياركته مقابل استعماله لجسد ثمارا الذي منحه لذة مؤقتة، إلا أنها منتجة، طاردة لعطل جسدها الأنثوي - الذي أكد بما لا يقبل الشك بأن التعطل سببه ذكوري وليس أنثوي. والدليل تمكن يهوذا على الرغم من تقدمه في العمر من تخصيصها وتحريك سكون الجسد الأنثوي المنتظر لرجولة حقيقية / فاعلة.

وتشير حكاية ثمارا إشكالية سؤال يتعلق بزمن انتظارها عند قارعة الطريقة مرتدية ملابس البغاء. وخلال هذه الفترة الطويلة لم يتعرض لها أحد من المارة؟ النص لا يشير لذلك، ويبدو بأن يهوذا أول المتحارشين بها، واستجابت له بدون إغواء. إنه البطريق الباحث عن ثنائته / الأنثوية، المخترنة صورته الحسية في الذاكرة والتي لم يستطع الزمن تعطيلها، تحركت مجدداً مع ثمارا المهووسة بطاقة المخترن الذهني، وحازت على يهوذا من خلال العلامة الدالة عليه والتي لا يقوى على نكرانها. بحيث أسست ميثاقاً قرانياً مع البطريق خوفاً من النكران لاحقاً. وحماية للذات الأنثوية من التلويث والتدنيس، والسعي للحفاظ على العمق النقي الذي شوهه الخطاب الذكري وأعاد صياغته بما يتلاءم وبطرياركته الطاغية / المتغترسة..

وتضيء هذه الحكاية - أيضاً - ثمارا محوراً لها وبصوغ بطرياركي "أي أن المرأة تضحى وتناضل من أجل الرجل، وهي حكاية مواجهة، حيث جرى تمشيم الفحولة وتكسير الجسد المذكور "عند الاندفاع نحو الجسد وبدون إغراء سابق. لتطرد الذكورة عن نفسها مذلة توقف الإشهار عن مدارها الفحولي بتعطل الاتصال الجنسي، ولتؤكد على خطابها الذي أنتجته بأنها فاعلة في زمن لا فاعلية فيه.

وهو زمن خريف العمر والشيخوخة. وامتلاك طاقة أبدية / سحرية تشغل الساكن وتثوره. ويلاحظ بأن مداراً صراعياً يكمن في الداخل النصي، إنه مدار التنازع بين سلطتين فيهما اختلاف تاريخي.

أولهما سلطة الألوهة المؤنثة التي استمرت عصوراً عديدة، وترسخت فيها خطابات أنثوية متنوعة، والثانية، سلطة البطرياركية الصاعدة على أنقاض ودماء الأنوثة، ملحمة الخلق البابلية وصعود مردوخ إلهاً قومياً وكذلك تعطل وظائفها - المرأة - في صدد الفحولة عن الإغواء الذي تثيره الأنثى، كما هو في ملحمة جلجامش) والابتعاد الواضح والصريح لجلجامش عن الآلهة أنانا / عشتار، بعد عودته وإنكيدو منتصرين من غابة الأرز، إعلان عن مرحلة حضارية جديدة تماماً، ومختلفة عن التي كانت وبهذا تعطلت السلطة الأنثوية بالمفهوم الكلي، وتقود حكاية ثمارا للمشابهات في الوظائف بين أنانا / عشتار وبين المرأة التوراتية ويبدو من خلال ملحمة جلجامش بأن ألوهية الأنثى ليست سوى^(*) في قدرة الأنثى على العطاء، وامتزاجها بالطبيعة التي تعطي بدورها حيث يكون "جوفها" مليئاً بإمكانات المنح "بالأرواح" التي تتجلى في نباتات مختلف وكان الموت الذي يمكن تلمسه في أولئك الذين يوارون الثرى، هو ذاته بعد حياتي، يغوص في الأرض.

ولهذا كان فعل ثمارا ألوهياً / أنثوياً، لأنها سعت من أجل أنوثتها - وهذا ما ركزت عليه الدراسة - ولكن الواضح هو أن البطرياركية مارست عملية حرف لهذه المفاهيم الفكرية الإيجابية، وتدخلت من أجل صياغة عناصر الحكاية بإضافات أخرى، همشت المدار الإيجابي / الأنثوي وصاغته بما يجعل منها - الأنوثة - جغرافية للابتدال الجسدي والاشتهاء والعرض الرخيص. لأن معضلة النسق^(**) الفحولي أنه نسق مغلق لا

(*) إبراهيم محمود، جغرافية الملذات، الجنس في الجنة، رياض الريس، ط ٢، ١٩٩٨، ص ١٠٠.

(**) عبدالله الغدّامي، أوهم الثقافة. ٢... ص ١٥٧.

يصر ما هو خارج الذات ولا يتنبه إلى المغاير والمختلف. ولذا فإنه يقدر الشيء بناء على فخامته. وكان واضحاً حصول تغيرات سردية في الحكاية التي غادرت وظيفتها الأساسية / الأصلية وصارت حكاية إثارة المتعة واللذة الذكورية. وهذا ما يشير إلى التدخل الذكوري المباشر، حيث تفعل الثقافة^(*).

"صعد يهوذا بعد أيام العزاء إلى حيث كان غنمه يجز في تمنة، هو وصاحبه حيره العدلامي. وقال لتامار: ها حموك صاعد إلى تمنة لجز غنمه. فخلعت ثياب ترملةا، وتغطت بالبرقع واستترت وجلست في مدخل عيناي، على طريقة تمنة. فعلت ذلك لأنها رأت أن شيلة بن يهوذا كبر ولم تزوج به، فرآها يهوذا فحسبها زانية لأنها كانت تغطي وجهها. فمال إليها في الطريق وقال لها: تعالي ادخل عليك. وكان لا يعلم أنها كتته. فقالت: ماذا تعطيني حتى تدخل عليّ. قال: أرسل لك جدياً من الماشية. قالت: اعطيني رهناً إلى أن ترسله. قال: وما الرهن الذي أعطيك؟ قالت خاتمك وعمامتك وعصاك التي في يدك. فأعطهاا ودخل عليها، فحبلت منه. ثم قامت. فذهبت إلى بيتها وخلعت برقعها ولبست ثياب ترملةا."

سفر الخروج ٣٨: ١٢ - ٢٠

ومحاولتنا للدخول في مساحة تأويلية مفرطة، سنلجأ إلى تفسير النص التوراتي الذي اخترناه بدقة من مساحة النص الكاملة. وسنجد بأن ما قلناه سابقاً له تأكيدات في هذا النص، وأهم ما يعيننا هو البطريارية التي حازت على مواصفات صاغتها هي عبر زمن طويل وأكدتها من خلال الممارسة، كي يتمركز الجسد بالطاقة اللبيدوية المختزنة فيه والتي لا تنضب وتنقص. ولم يستطع يهوذا الصبر والانتظار لأيام قليلة بعد وفاة زوجته حتى صعد إلى تمنة وهناك حصل الذي أشار له النص وأقام اتصاله مع

(*) عبدالله الغدّامي، أوهام الثقافة. ٢... ص ١٤٧.

ثمّاراً. وأجد بان الخطاب الأنثوي أكثر حذراً وسعياً لحصاد النجاح الضروري، ولهذا نزعتم ثمّاراً ثياب حزنها بسبب ترملمها وتبرقت مسترة. ولكن يهوذا لم ينتبه لها ولم يوحى له شكلها الخارجى حتى وإن كانت مبرقة؟ وكأنه ظل مأخوذاً بالرغبة الجسدية الفوارة ولم يلتفت لصوتها وإيقاعه عبر الحوار الطويل الدائر بينهما وحاولت السلطة الذكورية، عبر صياغة النص ترسيخ مهارة الأنثى في إنتاج المقالب والتهاك والبراعة في المكر والحيلة، مستعينة بجسدها المغطى لإشباع حاجة الذكورة وإطفاء اللبيلو في جسدها. كما أن سلطة الألوهة المؤنثة في ثقافتها، قد حققت مستوى رفيعاً من الفطنة والذكاء وتحطيم الذكورة وإذلالها واتهامها بالحيوانية التي لا تقيم وزناً للحوار التبادلي / النفسى والرغبوي بين الرجل / والمرأة، حيث تعامل مع ثمّاراً بطريقة حيوانية، وظلت مغطاة ببرقعها ولم تكشف عن وجهها ومارس معها فعل "إفراغ الرغبة" بصيغة حيوانية، وهنا سددت الأنوثة ضربتها القاتلة للذكورة، والسؤال الذي ظل بدون إجابة، أين أخذها يهوذا وأقام معها الاتصال الثنائى؟ هل حصل ذلك على قارعة الطريق أم في مكان آخر؟ ومع بقاء هذه الأسئلة غائمة الإجابة فإن المؤكد هو حدوث الاتصال وثمّاراً مبرقة. ولماذا حافظ يهوذا على استمرار برقعها أثناء الاتصال؟ وزاول عملاً حيوانياً أفقد يهوذا تلك الخاصية الإنسانية الشفيفة الموحدة بين كائنين عبر لغة الجسد واتضح دواله ورموزه التي يصوغها الجنس الاتصالي. ويعلن عن رموز كامنة، لا تبدى إلا عبر حصول تفاهم بالتراسل الإشارى للأعضاء أثناء تحقق الإيقاع الثنائى.

إن الأمر الرمزي^(*) الذي يطبع الجسد بطابعه يعطى الشخص سبل الإخفاء القصى لهذه الحقيقة المبهمة التي ارتبط بها. إن الجسد هو الحاضر، الغائب، إنه في آن

(*) دافيد لوبروتون، أنثروبولوجية الجسد والحداثة، ت: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٢٣.

واحد، محور إدراج الإنسان في نسيج العالم، والمركز الذي لا بد منه لكل الممارسات الاجتماعية، أنه لا يوجد في وعي الشخص إلا في اللحظات التي يكف فيها عن القيام بوظائفه المعتادة، عندما يختفي روتين الحياة اليومية، أو عندما ينقطع "صمت الأعضاء".

لن يظل الجسد ثابتاً على حيويته وطاقته الأولى، وإنما هو محكوم بالتحول غير المحسوس، وتأثير الزمن غير المرئي في العقود الأولى، إنه غرو الشيخوخة والتعطل المتسلل كالحلم الخاطف، ولكن بتأثير مرعب، يوقف إبداع الجسد، لحظة تعطيل تفاصيله المعروفة والدقيقة: وتغيير الجسد بفاعلية الزمن وضغطه يحقق تغييراً في الحياة كلها، حتى لحظات الحوار بين الأنا والمحيط الاجتماعي تأخذ بعداً جديداً، ورؤيا المشاهد الحياتية والتلذذ بما هو محب للنفس يكون شيئاً جديداً. والشيخوخة تعطل للطاقة وهي التي تجعل المسن مشطوباً عن محيط الجماعة الاجتماعي وملغياً عن الأدوار التي من الممكن القيام بها.

إن عمل^(*) التقدم في السن هو المذكر بموت يتقدم في سيره عبر صمت الخلايا، ومن دون أن تكون هناك إمكانية لإيقافه فالشخص المسن يتقدم نحو الموت ويجسد في نفسه الأمرين اللذين لا يسميان العصر الحديث: التقدم في السن والموت. إن الشيخوخة والموت ليسا بالفعل من المحرمات كما يقال غالباً فالمحرّم ما زال له معنى في النسيج الاجتماعي وهو يحيل إلى حدود تُبنى حولها هوية مشتركة للمجموعة. إلا أن الشيخوخة والموت لا يقوموا بهذا الدور. إنهما مكانان للشذوذ، ويقعان اليوم خارج الميدان الرمزي الذي يعطي معاني وقيماً للأعمال الاجتماعية: إنهما يجسدان عدم قابلية الجسد للاختزال.

(*) دافيد لوبروتون، أنثروبولوجية الجسد والحداثة، ص ١٤١.

ولهذا كان حماس يهوذا ومراهقته غير المتوقعة من قبل الناس - باستثناء ثمارا - من أجل الرد الرمزي على الشيخوخة الغازية، له والنازلة في جسده، ويحاول هو التحايل على زمنه وتقدمه في الحياة من خلال الاتصال مع ثمارا. وهذا لا يعني كل الحياة ووفرة الطاقة والعافية.

لأن وظائف الجسد تعطل تدريجياً. فالمسنّ في الإدراك الاجتماعي، سيختزل دائماً في جسده، الذي سيدعه شيئاً فشيئاً لحد أن يبشأ استطاع أن يكتب: انظروا الإنسان الذي ينطفئ، عند نهاية شيخوخة طويلة، إنه يموت بالتفصيل فكل وظائفه الخارجية تنتهي الواحدة بعد الأخرى وكل حواسه تنغلق بشكل متال. إن الأسباب العادية للأحاسيس تمرّ عليها من دون أن تؤثر بها. إن الشيخوخة تعبرّ عن اللحظة التي لم يعد فيها كبت الجسد ممكناً، اللحظة التي يعرض الجسد نفسه فيها لنظرة الآخر في نهار لم يقدر مواتياً له.

وكان فعل اتصاله مع ثمارا محاولة منه للتحايل على زمنه الخارجي والنفسي، لأنه لا يريد الاعتراف بما سببه له لأن التقدم في السن سيرورة غير محسوسة، بطيئة للغاية وتفلت من الوعي لأن أي تباين لا يظهر فيها بوضوح، فالإنسان ينزلق بمرونة من يوم لآخر، من أسبوع لآخر من سنة لأخرى وأحداث حياته اليومية هي التي تفضح انسياب الأيام وليس وعي الزمن، ومع البطء الذي ينجو من الإدراك، يندمج الزمن بالوجه ويدخل الخلايا ويضعف العضلات ويصغرّ الطاقة ولكن بدون صدمة، بدون انقطاع قاس ولمدة طويلة في الحياة.. إن الصعب جداً تحمل الشيخوخة، تقول سيمون دوبوفوار لأننا كنا دائماً نعتبرها نوعاً غريباً: أنا أصبحت شخصاً غريباً في حين أنني ما زلت أنا نفسي.

ولأن يهوذا لم يواجه صدمة الزمن والوعي به وبتفاصيله المتبدية بشكل غير ملحوظ بقوة، اندفع بحماس ونزع هيئته الخارجية وأهان وجاهته "وما الرهن الذي

أعطيك؟ قالت: خاتمك وعمامتك وعصاك التي بيدك" الخروج ٣٨: ١٧. وهو يدري جيداً - - له ساهم بإنتاج هذه الثقافة باعتباره بطريقاً - بأن العصا والعمامة رمزان للفحولة الكاملة كما قال الأستاذ عبدالله الغدّامي. فهل يا ترى كان الدفع بالعصا تعبيراً عن هاجس نفسي، بتعطل أو اقتراب تعطل ذكوري، لهذا تخلص من رمز فحولته المتبدية عبر العصا.

كان سبب اندفاعه للاتصال مع ثمارا استهلاكياً، حيوانياً، أفتقد عناصره الإنسانية، واكتفى بالإدخال والإفراغ ولم يستطع - ربما لبطرياركته - من تنشيط الاتصال الخارجي عبر المداعبة وإثارة الشوق. لأنه مأخوذ بسطوة بطرياركية / داخلية تفرض على الآخر أن يندفع باتجاهه. ويضيء النص - أيضاً - سبب حماس ثمارا للاتصال، وهو سبب له صلة بالخصب كما قلنا، لأنها انتظرت حميها الثالث وعندما كبر لم يتقدم لها ولأنها راغبة بالخصب، حصل الذي نعرف بين الاثنين وانتهى كل شيء بعد لحظات. ليس في طبع^(*) الثقافة الذكورية أن تتحمل أو تقبل "واقعية" الجسد المؤنث ومن الضروري لهذه الثقافة أن يكون التأنيث قصياً ووهيمياً لكي تظل الأنوثة "بجازاً" ومادة للخيال، في هذه الحالة - فقط - تكون الأنوثة جذابة ومطلوبة في الخيال الثقافي وتنتهي جاذبيتها بمجرد تحولها إلى واقع محسوس.

واختصاراً، كانت ثمارا منتصرة اعتماداً على ثقافتها لأنها أثارت عبر الحكاية - على الرغم من تدخل السلطة البطرياركية - إشكالات عدة ضد الرجولة وأهمها: لعنة الإله اليهودي الملاحقة ليهودا - عبر أبنائه - وطردهم من الحياة أولاً وأنانية الخوف من نسليه الأخ - عيرا - حيث كان يقذف بماء رجولته خارج ثورة الأنوثة، حتى لا يخصبها ثانياً. السلوك الاجتماعي / الأخلاقي المشين ليهودا البطريق. ثالثاً والأسوأ في

(*) عبدالله الغدّامي، ثقافة الوهم، ص ٤٢.

التراسل الاجتماعي هو أونان الذي تعمد تعطيل الإنجاب وإيقاف الخصب، فلحقت به لعنة الإله يهوه، وأراد الكتبة بذلك الإعلان عن وظائف إلههم الإيجابية من أجل توازن في كلية وظائفه المعروفة، كان هذا لم يؤسس مداراً فكرياً متبلوراً ضمن عناصر الإله اليهودي. ويكشف موقف أونان ثانوية الخصب كبنية ومنظومة كاملة في الحياة اليهودية حيث كان موقفه السليبي عدائياً ومعطلاً. إن تعقم الرحم^(*) تسقط صفة التأنيث لأن هذا الجسد لم يعد جسداً ولوداً. ويدخل الجسد في مرحلة اللاهوية.

إن إيقاف صفة ثمارا الأثوية بفعلة أونان جناية كبيرة، جعلت من حياته مع أخيه شيلة غمامة غير واضحة مستقبلاً. ويؤكد الأستاذ عبدالله الغدّامي بأن صياغة الجسد المؤنث لا تكتمل وتمثيله الثقافي إلا من خلال إضافته إلى الذكورة، ولا يضاف على نفسه ولا تضاف الذكورة إليه فالمرأة زوجة فلان، ولكن فلاناً هذا لا يتعرف بكونه زوج فلانة... والأنوثة جنس واحد ونوع واحد وشعور واحد وما تفعله واحدة من النساء يكون صفة لهذا الجنس خاصة الفعال الجسدية النمطية.

لقد سعت ثمارا من أجل وظيفتها المعروفة في الحياة / الأسطورة / والدين، ووظيفة الأم الكبرى التي لا تعرف بديلاً لها. وظيفة تسعى من خلالها لتحقيق ديمومة الحياة والإمساك بها والإبقاء عليها وتحدي الانطفاء، وهي - ثمارا - بذلك تعني وعي طريق الخلود التي عرفها الإنسان، ابتداء بالملك جلجامش ومروراً بالتاريخ الكلي للإنسان. الانبعاث هو الذي منحنا خلودنا وبه نتحدى الموت والاندثار نقاومه بوسائلنا العديد والمتنوعة ولعل أهم تلك الوسائل الإبقاء على النسلية وتفعيل دور الأم الكبرى الذي عرفته الأساطير والديانات الشرقية. وانطلاقاً من لا شعور الإنسان^(**) يسعى إلى التأثير في نظام الموت نفسه إلى خلخلة ناموسه الطبيعي فالموت واقعة طبيعية

(*) عبدالله الغدّامي، ثقافة الوهم، ص ٥٨.

(**) إبراهيم محمود، جغرافية الملنات، الجنس في الجنة، رياض الريس، ط ٢، ١٩٩٨، ص ٥١.

وحدث طبيعي يتكرر باستمرار، والإنسان مشمول به ويظهر التصرف معه مضاداً
تلك الواقعة ونظامها الصارم، ولذلك الحدث وحقيقته المرة إنه تصرف ثقافي، وكان
الإنسان يحاول تأكيد ذاته حتى في وجه محدث الموت، إنه خلود هنا، ولو كان من
خلال الموت، عندما يهتم بأمره، وهذا يبين لنا العناد البشري في التمييز عن بقية
الكائنات الأخرى، في حالة الموت.. وفقاً لما تقدم، يغدو الكون مستوعباً، بل مملوكاً
نفسه باللغة وبالرمز، الذي يكون لغة وغيرها، فالإنسان كائن يعيش بالرمز وفيه،
ويتعامل به في علاقاته مع الآخرين، ومع البيئة وينتج رموزاً من رموز، ويوسع فيها
ويغنيها معنى، إنه خلود آخر ينبي هنا!

وعرف الإنسان ومنذ الأزل سبله الخاصة، للإمساك بالتاريخ الشخصي
والجمعي، وأهم تلك الوسائل ديمومة فعل الخصب والبناء واللغة والحوار مع الآخر
والحياة عبر رموزها الخلاقة المثيرة التي تتركز مكرسة في الحياة دوماً وحتى الأبد، حياة
الحياة والخصب والخلاص، تحقق لثمارا بواسطة العلامة الأخيرة أكثر من الخاتم
والعمامة تشييطاً للتأويل وحتى التأويل المفرط، لتعدد مستوياتها وعملها النشط في
تكوين أنساق خاصة وجديدة، ولأنها أكثر إحالة على الذكورة / الفحولة فإنها
امتلكت حضوراً، إضافة إلى ما تنطوي عليه من مفهوم خاص للسلطة.

إن التعاقب يلعب دوراً، أكان زمانياً أم مكانياً، لأن التكرار جوهري بالنسبة
إلى التعبير الرمزي. الذي يتطابق حدسياً مع موضوعه دون أن يختلط به أبداً.

فبالنسبة إلى الشيء الرموز يشكل الرمز كلا تكون عناصره غير العناصر الماثلة
في الشيء، ولكن قوم بينها العلائق عينها. كما أن الرمز يحتاج، لكي يستقر ويستمر
لأمد طويل بصفته هذه، إلى اقتران طبيعي بالشيء، يتعين عليه أن يتكرر بانتظام في
الظروف عينها.

تشظت العصا عبر تاريخها المتناغم مع المراحل الحضارية، وحازت في مجالها التوراتي تنوعاً مهماً وملفتاً لانتباه القراءة المعاصرة، وسيقود هذا التشظي إلى الاتساع الدلالي ومغايرة المتوج والتنوع في الاشتغال الرمزي .



شكل (٢٣): ملك فارسي وعصاه

٦. عصا يهوذا رمزاً لفحولة الشيخوخة!

لقد ازداد تفعيل العصا كعلاقة رمزية في مراحل عديدة من مراحل تطور الحضارة الشرقية وحازت على خصائص جديدة بالتالي والتراكم والتعاقب وآخر فعالية مهمة رافقت رحلة العصا الطويلة هي منظومة الخصب. وإمكان العصا على تفجيرها وإمداد الحياة بماء الحياة من أجل البقاء والاستمرار ومكافحة الاندثار والموت. وكان ما حصل لتلك المنظومة في الخطاب التوراتي جديداً وغير مألوف في محيط الخطاب الأسطوري الخاص بحضارات الشرق الأدنى القديم. وصاغ الخطاب التوراتي أسطورة جديدة حاولت الارتكان على العوامل الموضوعية التي رافقت بني إسرائيل في الصحراء ومزاوجة ما له علاقة بنظام الخصب المجاور لتصوغ نظاماً يبدو جديداً بالنسبة للمحيط المجاور، لكنه في حقيقته الداخلية يمد جذوره بعيداً في المحيط الديني للشرق المجاور، وأعني به مصر / كنعان / سوريا / العراق.

إن إنتاج أسطورة العصا الجديدة في سفر الخروج هي محاولة من البنية الذهنية التوراتية لإخضاع بني إسرائيل إخضاعاً قسرياً وجبرياً من خلال العصا وذلك عن:

* تفجر الماء من الصخرة بعد ضربها بالعصا وإنقاذ بني إسرائيل من العطش وإنقاذهم مع حيواناتهم من الموت.

وتكريس القدرة السحرية التي عرفوها في العصا قبل خروجهم من مصر وبدرجة عالية من الحضور والتمركز، الذي سيؤكد قدرة سحرية ورمزية في العصا، وهذا ما سنتناوله في العصي الإثني عشرة، وعلاقة العصا المتميزة بالخصب، وهو ذات المدار المرافق للعصا التوراتية منذ لحظة الدخول الأولى إلى سيناء.

* ثنائية العنف الرادعة المجاورة مع وظيفة الخصب العيانية - التي لم يكفي بها بني إسرائيل لأنها فجرت الماء قوياً وصاعداً. وبرزت العصا سلطة مادية ورمزية، تومئ لبني إسرائيل بالمعاقبة بعد دقة المراقبة وامتدت في عمق النصوص التوراتية.

* الاستعانة بها هوية للشخص ومعرفة به وهذا ما حصل مع ثمارا كذلك هي رمز من الرموز الدالة على الفحولة.

ولعل أهم الوظائف المناطة بهذه العلاقة الرمزية هي الخصب باعتباره نظاماً لم يعرفه بني إسرائيل من قبل بسبب رعويتهم وبدويتهم واستمرار ارتحالهم، ومن خلال ذلك، اعتقد بني إسرائيل بأنهم تساوا مع جيرانهم في تأسيس وترسيخ نظام للخصب، بحيث تخلصوا من عقدة الإخصاء الملاحقة لهم عبر التاريخ الطويل.

"وارتحل جميع بني إسرائيل من برية سين على مراحل كما أمر الرب، ونزلوا في رفيلم، حيث لا ماء يشربونه فخاصموا موسى وقالوا: أعطونا ماء نشربه. فقال لهم موسى "لماذا تخاصمونني؟ ولماذا تجربون الرب؟ وعطش هناك إلى الماء وألقوا اللوم على موسى وقالوا:

لماذا أصدتتنا من مصر لتميتنا نحن وبنونا ومواشينا بالعطش؟ فصرخ موسى لا إلى الرب: ماذا أفعل هؤلاء الشعب؟ بعد قليل يرحمونني. فقال له الرب "أعبر أمام الشعب ومعك بعض شيوخ إسرائيل وخذ بيدك عصاك التي ضربت بها النهر واذهب، فتجدني واقفاً أمامك هناك على الصخرة في حوريب. فتضرب الصخرة فيخرج منها

ماء يشرب منه الشعب. ففعل موسى كذلك، أما عيون شيوخ إسرائيل وسمي موسى ذلك المكان مسة ومريية، لن بني إسرائيل عطشوا وارتابوا بالرب فقال: أمعنا الرب أم لا؟

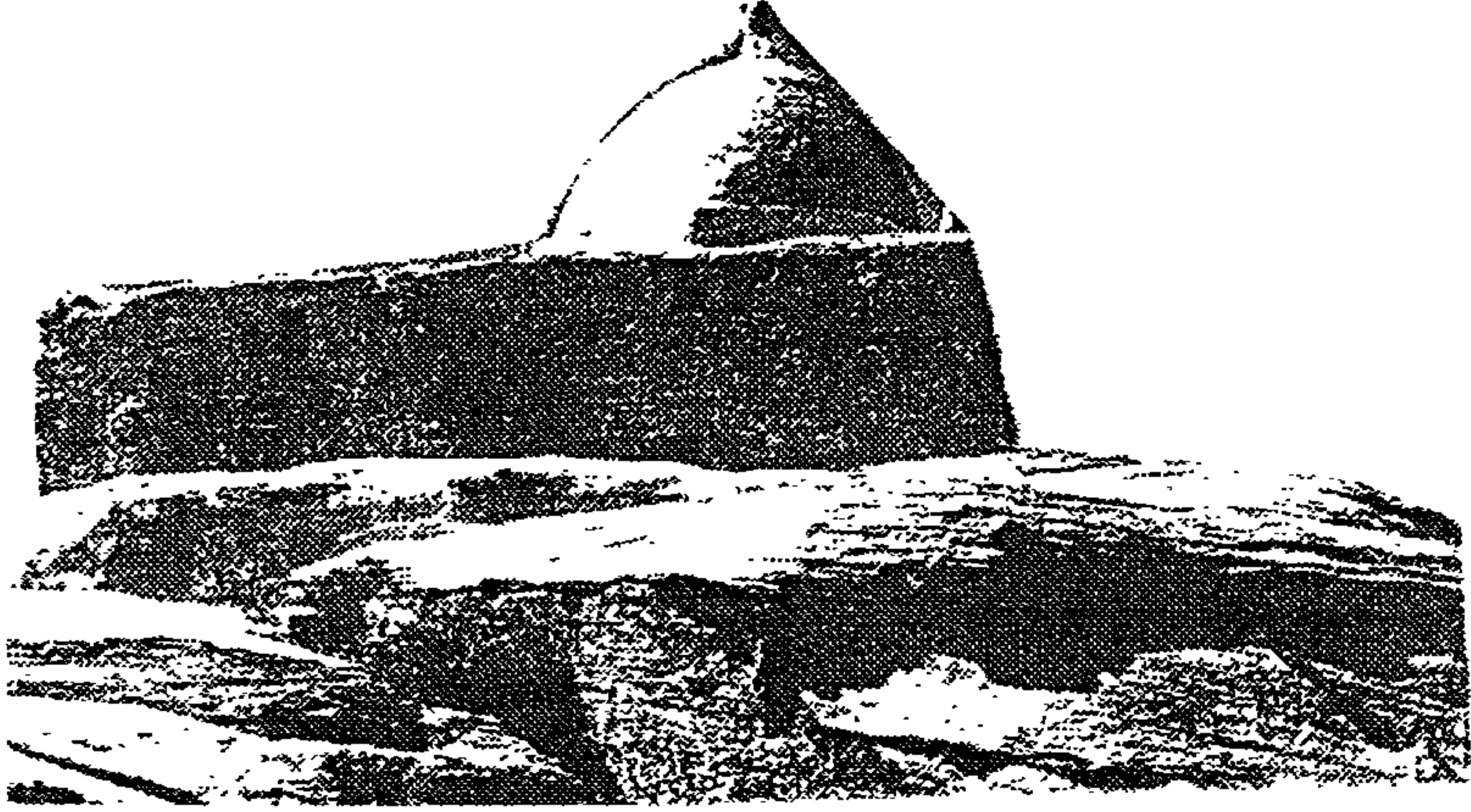
سفر الخروج ١٧ : ١-٧

هنا تتكسر سحرية العصا امتداداً لسحرية مصرية معروفة. خرج بها موسى من القصور الفرعونية وصارت سلاحاً له أمام الحشود الجائعة والعطشى في سيناء. وسجلت هذه العصا فاعلية البنية الذهنية الموسوية / السحرية وأشارت لحظة نشوء الخطاب الخصوبي التوراتي. ولولا هذه الضربة التي دُفق بها الماء لواجه موسى واحدة من أخطر الثورات الاحتجاجية في تاريخ مغادرتهم لمصر وخروجهم من سيناء. ولأن يهوذا عاش تفاصيل سحرية العصا في مصر وسيناء ولأنه هكذا، حاز منذ اللحظة الأولى "التي أسست فيها العصا الموسوية سحرية الإنقاذ داخل مصر" على طاقة العصا التي تتفاعل أكثر بيده، وتضفي على جسده مجموعة من العلائق الجديدة وأعتقد بأنها - العصا - ظلت ممتلئة لصفاتها الموسوية / السحرية وقد امتدت منتقلة من القائد إلى البطريق، الذي هو قائد أيضاً لقبيلته الغفيرة. وأجد بأن العنصر السحري الكامن في العصا، ظلت ممكناً تشغيله لحظة الحاجة إليه، أو الاستعانة به، عندما يجد مالكتها ضرورة ملحة للاستعانة بسحريتها، وهذا ما حصل مع يهوذا.

فهل سعي ثماراً للاحتفاظ بالعصا / الخاتم / العمامة وسيلة لحماية نفسها من العنف الاجتماعي، الذي كان ممكناً أن ينوشها بسبب الزنا، لو لم يكن يهوذا هو الممارس للزنا بالمحارم. يخضع العقاب / الردع للتباين الاجتماعية / الدينية / الطبقية وهذا ما اتضح جلياً مع يهوذا.. حيث لا تقوى المراقبة الدينية / الاجتماعية من الاستجابة للخرق الأخلاقي، لأن المخترق لحشمتها هو يهوذا.

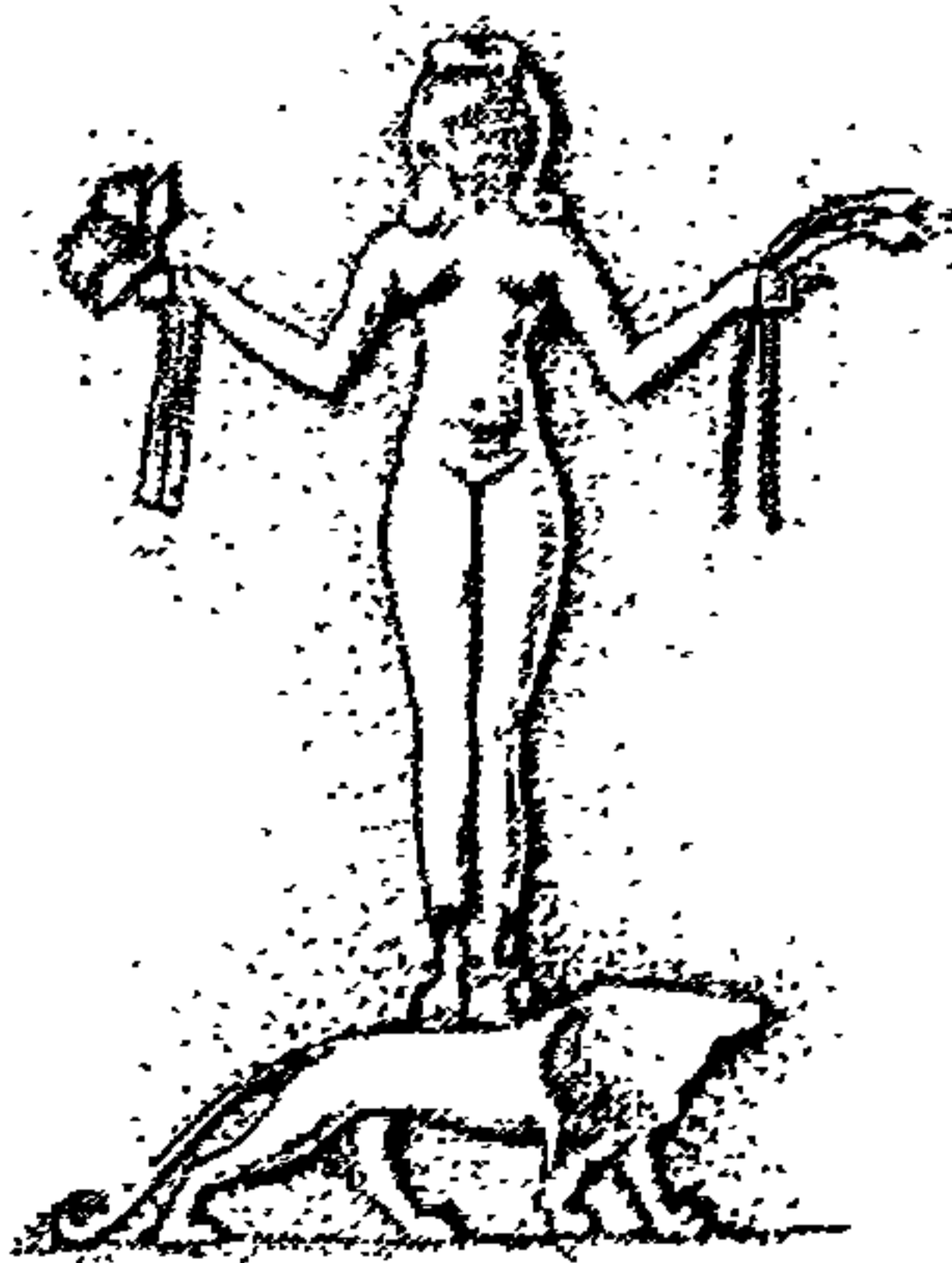
واحتفاظها بعصا يهوذا يمثل في كشف طبقة النص الداخلية، حفظاً لعصا يهوه / التي هي قضيبه وطاقته وكان للسحرية المتوفرة في العصا دور حاضر في التخصيب. لأن الإله مخصب الحياة وامتداده يهوذا امتلك هذه الخاصية وجسدها بوظيفة الاتصال، الناجح مع ثمارا التي أنجبت توأمين. وهنا تتبلور سحرية جديدة، هي سحرية قادرة على توسيع الخصب وتعميقه وجعله خارجاً عن المؤلف، وتم هذا من خلال التوأمين.

وتدخل العصا مركزاً فكرياً ويرتحل واضحاً نحو نظام الخصوبة، وهذا ما أشرنا له، عبر أسطورة الصخرة وتفجر الماء، وفي أسطورة التفويض بالكهنوت لهارون وهي أسطورة أنتجتها الذهنية الأرستقراطية / البطرياركية من أجل حيازة سلطة جديدة، لم تكن لها سابقاً. وهذه الحيازة لم تجد أفضل من الأسطورة للاستعانة بها من أجل الحصول على هذا التفويض وهي أسطورة أرضية، أنتجها موسى كي يكرس السلطة كلها بيده وهرون، ويكون لهما هيمنة قادرة على لعب الأدوار الحيوية، وهرون مؤهل لذلك الدور لأسباب عديدة أهمها أنه الوسيط بين موسى والعبان / بني إسرائيل في نقل الوصايا والأوامر. وأحياناً يدخله الإله اليهودي / يهوه طرفاً في الديانة، وليحصل منه ثنائي مقبول / فاعل، على الرغم من تحفظات الإله عليه بسبب بعض الخروقات التي مارسها هرون، ولعل أكثرها بقاء بذاكرة الإله اليهودي هو العجل الذهبي. وعلى الرغم من سماحات يهوه له ودماراته للقبائل وإباداته لهم، عاقبه بقسوة شديدة، ووجد موسى معه بالموت بعيداً عن أرض الوعد وجغرافية الأحلام.. مات الاثنان ولم يريا أرض الميعاد ودفنا قبل الدخول. أما موسى فلم يعرف مكان دفنه حتى الآن، وربما واجه موسى - وهذا ما يكشف عنه النص التوراتي - ثورة عارمة في الأيام الأخيرة وقتل فيها ولم يعرف قبره إلى الآن.



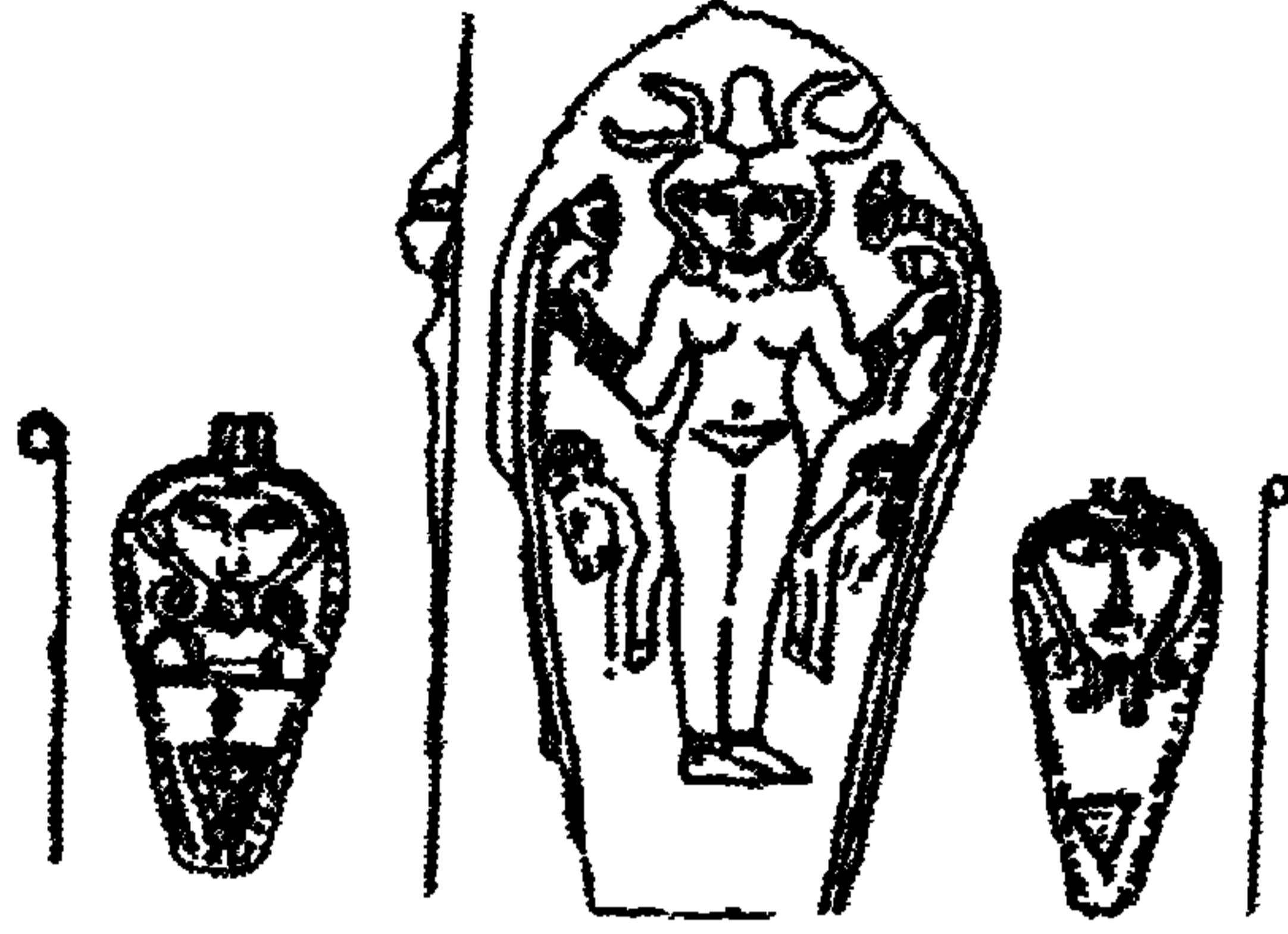
الشكل (٢٤): قبر النبي هرون - قرب البتراء

وكلم الرب موسى فقال: قل لبني إسرائيل أن يعطوك اثنتي عشرة عصا، واحدة لكل رئيس سبط من أسباطهم، واكتب اسم كل واحد على عصاه واسم هرون اكتبه على عصا لاوي. لأن عصا واحدة تكون لكل رئيس سبط، وضعها في خيمة الاجتماع أمام تابوت الشهادة، حيث اجتمع بكلم فالرجل الذي اختاره تفرخ عصاه وبذلك أسكت ما يلقيه بنو إسرائيل من لوم عليكما. فكلم موسى بني إسرائيل فأعطوه اثنتي عشرة عصا، لكل رئيس سبط من أسباطهم عصا وعصا هرون فيما بين عصيهم. فوضع موسى العصي أمام الرب في خيمة الشهادة.



الشكل (٢٥): الإلهة عناة، إلهة الحب والحرب وزوجة الإله

بعل



الشكل (٢٦): الإلهة عناة مصورة على أفراط وتبلو رموز الخصب عليها

وفي الغد دخل موسى خيمة الشهادة فوجد عصا هرون التي هي لسبط لاوي أفرخت فأخرجت براعيم، وازدهرت وأنضجت لوزاً. فأخرج موسى جميع العصي من أمام الرب إلى جميع بني إسرائيل، فنظروا إليها وأخذ كل واحد عصاه. فقال الرب لموسى: رد عصا هرون إلى أمام تابوت الشهادة لتحفظ علامة للذين يتمردون. فيكفون عن إلقاء اللوم عليكما فلا يموتون. فعمل موسى بما أمره الرب.

فقال بنو إسرائيل لموسى: وهلكنا وبادت نفوسنا جميعاً كل من اقترب من مسكن الرب يموت".

سفر العدد ١٧: ١٦ - ٢٧

يضيء هذا النص جانباً جديداً من العلاقة بين الإله وبني إسرائيل من جانب وبين الإله وموسى / وهرون. أن يأخذ موسى عصا لكل بطريق ويدون عليها اسمه. وهذا يعني بأن موسى يجيد القراءة والكتابة ولماذا لم يكتب الإله يهوه أسماء الأسباط على عصيهم مثلما فعل مع اللوحين. يعرف الإله اليهودي الشكوك التي تعتمل في صدور بني إسرائيل وكذلك أسباطهم، ولهذا أراد نمو ثقة بين موسى وشيوخ قبائله.

وحتى يعزز ثقتهم - الشيوخ - بالذي يقوم به موسى. ووضع موسى العصي وسط خيمة الاجتماع أمام تابوت الشهادة، حيث يجتمع الإله بهم - هناك - ويكشف النص عن وجود الرجال وهم مجموعة "حيث أجمع بكم" ولا ندري من هم الذي يشير لهم النص "بكم".

تدخل الإله اليهودي بشكل مباشر في صياغة هذه الأسطورة ذات الصلة بالخصب، حيث أفرغت عصا هرون ولم يحدد النص الوقت الذي مضى على وجود العصا أمام تابوت الشهادة وسط الخيمة. واكتفى النص بالإشارة إلى مضي يوم ويفهم من ذلك بأنه كان يوماً.

وحتى يقتنع بنو إسرائيل بالأسطورة ونتائج ما حصل، استلم كل منهم عصاه، وأعاد عصا هرون إلى الخيمة أمام التابوت - ولاحقاً وضعت وسط التابوت - . لتحفظ علامة للذين يتمردون.

ولم يبق أمام بني إسرائيل وأسباطهم إلا القبول بأسطورة الخصب التي صاغتها القدرة اليهودية والخاصة بهرون وتلك ارتحالة واضحة لمنظومة الخصب التي عرفتها الحضارات المجاورة وما يؤكد هذا الارتحال بدقائق العنصر المرتحلة هو نوع العصا التي اختارها البنية الذهنية / الأسطورية وهي من نوع اللوز، هذه الأشجار التي كانت وسيطاً مهماً في العديد من الأساطير ذات العلاقة بالخصوبة وكذلك التي ارتبطت بالألوهة الشابة القتيلة ومنها الإله آتيس / ويوسف التوراتي وأدونيس. وحازت شجرة اللوز على عناصر أسطورية، ارتحلت ضمن جغرافية الشرق وديانات الخصب وسنحاول الاكتفاء بإشارة إلى أسطورة واحدة من أساطير الخصب ذات الصلة بشجرة اللوز وهي^(*) إن غولاً نحشى ولد من حجر ملقح من قبل الإله زوس. وقد قرر الإلهة

(*) ميرسيا الياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ت: عبدالمهدي عباس، دار دمشق، ج-٢، ١٩٨٧، ص ٣١٣.

إخصاءه وتحويله إلى ربة سييل، وحسب رواية مختلفة أخرى أن شجرة لوز انبثقت من دم خنثى وبأقدام نانا ابنة نهر سنغاريوس على أكل حبة لوز، أصبحت حاملاً فولدت الطفل "أتيس" وما أن كبر حتى احتفل بعرسه من ابنة الملك وعندما دخلت وجدت "أجديتس" التي أحبته إلى قاعة الاحتفال، اعتبر حضورها عملاً جنونياً، فاجتث الملك الأعضاء الجنسية المولدة وهرب أتيس، وختن تحت شجرة صنوبر ومات. وقد حاولت "أجديتس" يائسة إعادة حياته ولكن زوس عارض في ذلك وسمح فقط ببقاء جسد أتيس غير معرض للفساد والإشارة الوحيدة لحياته ستكون نمو شعره وحركة إصبعه الصغرى، وبما أن "أجديتس" ليست سوى تجل للأم الكبرى الخنثى، فإن أتيس هو في آن واحد الابن والحبيب والضحية لسييل وقد حزنت الربة على غيرتها، فندمت وبكت حبيبها.

واللوز، كلمة مشتقة من أصل عبري معناه "يسرع" لأن^(*) شجرة اللوز تتسرع في الإزهار قبل بقية الأشجار، وازدهارها المبكر يعلن أن "الربيع قريب" وهذا المعنى يوضحه ما جاء في سفر أرميا:

"وقال لي الرب: ماذا ترى يا إرميا. فقلت: أرى غضن لوز. فقال: أحسنت فيما رأيت: فأنا ساهر على فعل ما أقول".

سفر أرميا: ١١-١٣

لقد رأى إرميا قضيب لوز فلقال الرب له: أحسنت الرؤية لأني أنا ساهر على كلمتي لأجريها أو أني مسرع لجريها وفي شعب المنارة الذهبية "كاسات لوزية" أي أن الكاسات تشبه اللوز:

المفتدين

(*) ج. مورش، القاموس الموجز للكتاب المقدس، ت: وهيب ملك ١٩٨٣، ص ٥٩٧.

"ويستفرع من جانبي المنارة ست شعب، ثلاث من جانبها الآخر ويكون لكل شعبة من الشعب الست ثلاث كاسات على شكل زهرة اللوز بقعدتها وأوراقها".

سفر الخروج ٢٥ : ٣٣

"وفي عمود المنارة ذاتها أربع كاسات على شكل زهرة اللوز بقعدتها وأوراقها"

سفر الخروج ٢٥ : ٣٤

واللوز رمز جميل للرب يسوع المقام من الأموات باكورة الراقدين ليكون الكامل المكمل "المجد" إلى الأبد.

ولوز، هو الاسم القلم لبيت إيل^(*). وكان اللوز أوّل شجرة مثمرة تُزرع في فلسطين كل سنة، فكان يظهر زهره باكراً في أواخر كانون الثاني "يناير" أحياناً، وفضلاً عن كون ثمر اللوز مفضلاً في الأطعمة، كان يستخرج منه زيت أيضاً.

ربما تساهم هذه الأسطورة بإضاءة المحيط الحيوي لأسطورة العصا السحرية الخاصة بهرون والتي حسمت صراعاً حاداً وقوياً وسط السلطة الأرستقراطية الدينية والتي حسمت موضوعة الكهنوت.

ويبدو من خلال النص (العدد: ١٧ : ١٦-٢٧) بأن العصا حازت على التنوع الدلالي. ولعل أهم إشارة يفيض بها النص هو التعامل معها باعتبارها علامة للعنف والمراقبة والإشارة في النصيحة واضحة (رد عصا هرون إلى أمام تابوت الشهادة لتحفظ "علامة للذين يتمردون"

وأرى بأن وجود هذا النص الخاص بالعصا وأسطورتها بعد نص "العدد ١٧ : ٦-١٦" له دلالة أيضاً ترتبط بشكل مباشر بالانتفاضات التي عرفها بني إسرائيل مراراً

(*) موسوعة الكتاب المقدس، دار منهل الحياة، بيروت، ١٩٩٣، ص ٢٧٨.

وخصوصاً الانتفاضة، حيث مارس الإله يهوه هوائته بالإبادة "فكان الذين ماتوا بالضربة أربعة عشر ألفاً وسبع مئة، ما عدا الذين ماتوا بسبب قورح: العدد: ١٧ : ١٤ - ١٦" لذا كان للعصا بعد هذه الإبادة مدار العقوبة الرادعة للذين يمارسون اللوم لموسى وهرون.

وتكون الديانة اليهودية قد اجتازت مرحلة خطيرة من مراحل تكونها واستقرارها الظاهري، حيث تحقق اصطفااف ديني / سياسي خطير، منح الديانة الموسوية حضوراً من نوع جديد، إنه اصطفااف السلطة الأرستقراطية / الكهنوتية التي قادها هرون مفوضاً من قبل الإله يهوه.

ومع هذا التحقق الانقلابي، كانت الديانة الجديدة مذعورة وخائفة من مدهمة الفقراء، ويومئ النص في نهايته لمخاوف موسى من تكرار الانتفاضة الذي ربما تنوش هيكل يهوه / خيمته ويدمرها العنف المادي.

"كل من اقترب من مسكن الرب يموت: العدد ١٨ : ٢٨"

إن بقاء العصا في تابوت العهد، تعبير عن الانتقال التي حصلت داخل البنية الدينية اليهودية. والكيفية التي حصل فيها حسم الصراع وبقاء ما يشير إلى المراقبة والمعاقبة وممارسة العنف من قبل الإله وموسى وهرون أيضاً، لذا كان بقاء العصا اعترافاً ضمناً بإمكان نشوء مظاهر العنف بين بني إسرائيل. ويدلل وجود العصا وسط تابوت يهوه على سلطة الإله ونزوعه للعنف وتوسله بالطاقة السحرية التي كثيراً ما استعان بها لحسم الكثير من الإشكالات الدينية التي بلورها الصراع الطويل / والدموي ومنذ لحظات الخروج الأولى وحتى اجتياحهم، لأريحا. ومعاودة الإله للاستعانة بالطاقة السحرية، تأكيد على ملازمته لها واللوذ بها والإبقاء عليها - السحرية - عنصراً خاصاً

به ويمنع بني إسرائيل من ممارسته، حتى لا يدع لهم فرصة التمكن من تجسّدات السحرية وممارستها كمنمكّن يومي، يضعف مركزها كخاصية من خصائص يهوه.

وسنحاول تقدّم توصيف نهائي لمنظومة العصا المتنوعة والتي توصلت لها القراءة:

- كانت العصا إشارة لتحقيق نتائج دمار متأتية بالضربات التوراتية.
- حققت العصا التوراتية اصطفاً مغايراً من أجل صعود أو تجسد سياق متباين للحشود الهائمة في سيناء، بواسطة العصا لحظة تدفق الماء من الصخرة / وحازت على مدار الخصب والذي اقترن بها.
- العصا المرفوعة علامة للقوة الصيانية وأفعال التحقيق التوراتي. وبهذا فإننا نتوصل إلى أن العصا ذات نسق هندسي محكوم بتنوعه ضمن حدود المجال المكاني.
- العصا رمز للسلطة الإلهية / اليهودية، لازمت تابوت العهد باعتبارها قوة سحرية، تمتلك إمكانية الردع بعد المراقبة.
- بقاء السحرية خاصة للإله اليهودي / اليهودي، مرتحلة له من مصر الفرعونية، محرمة على بني إسرائيل ممارستها.
- وجدود العصا متجاوزة مع المنّ "المني" وسط التابوت، تعبير عن حيوية الإله وقدرته الجنسية التي تحقق له السلوى (استفادات القراءة من التسمية) والسعادة وهذه الخاصية مرحّلة له من الألوهة في الشرق وخصوصاً الإله السومري إنكي.
- وجدود العصا طويلاً وسط التابوت، رامن لحيويته الإله وقدرته لاستعمالها وسيلة ردع وعقاب، وتعبير عن شبابه، وهي بديله الدال عليه والموجود داخل التابوت.
- إنها ذات مدلول جنسي / إحصابي. والأكثر حضوراً هو الاتصال الثنائي المجرد، وبدون إحصاب، لأن البنية الذهنية التوراتية لم تحز على الخصب خاصة فاعلة

ومستمر كزة. لأن العنف اليهودي هو الأكثر حضوراً على الكثير في الوقائع والنصوص السوارد ذكرها في الأسفار التوراتية. والعنف اليهودي أكثر تبيدياً، وحاز عليه من آلهة الشرق المعروفة وكنا أشرنا لذلك في كتابنا أقتعة التوراة.

مراجع الباب الثاني

١. الكتاب المقدس
٢. قاسم الشواف، ديوان الأساطير، سومر وأكاد وآشور، الكتاب الأول، دار الساقى، لندن، ١٩٩٦.
٣. شفيق مقار، الجنس في التوراة وسار العهد القديم، الكتاب الأول، من الآلهة الأم إلى الإله الأب، دار يعرب، دمشق، ١٩٩٨.
٤. نائل حنون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٢، ١٩٨٦.
٥. أنيس فريجة، ملاحم وأساطير من أوغاريت، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠.
٦. إنطوان مورتكات، الفن في العراق القديم، ت: د. عيسى سلمان وسليم طه، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٧٥.
٧. أندريه بارو، بلاد آشور، ت: عيسى سلمان وسليم طه، وزارة الثقافة، ١٩٨٤.
- * سومر فنونها وحضارتها، ت: د. عيسى سلمان وسليمان طه، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٧٧.
٨. عبدالله الغدامي، المرأة واللغة - ٢ -، ثقافة الوهم مقاربات حول المرأة والجسد واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٨.
٩. إبراهيم محمود، جغرافية الملذات، الجنس في الجنة، رياض الريس، ط٢، لبنان، ١٩٩٨.

١٠. دافيد لوبروتون، أنثروبولوجية الجسد والحداثة، ت: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣.
١١. ليفي شتراوس، نظرات إلى الأشياء، ت: خليل أحمد خليل، مجلة الفكر العربي، العدد (٧).
١٢. ميرسيا الياد، تاريخ المعتقدات و الأفكار الدينية، ت: عبدالهادي عباس، دار دمشق، ج٢، ١٩٨٧.
١٣. ج. مورش، القاموس الموجز للكتاب المقدس، : وهيب ملك، القاهرة، ١٩٨٣
١٤. موسوعة الكتاب المقدس، دار منهل الحياة، بيروت، ١٩٩٣.

الباب الثالث

ثنائية الخطاب الإسرائيلي

الهولوكوست واللغة المقدسة

١. نافذة

كتاب مستقبل إسرائيل، من الكتب المهمة جداً ولأسباب عديدة وجوهرية، ومن هذه الأسباب وأهمها أن المحاور لشمعون بيريز هو الكاتب والروائي الأمريكي روبرت ليتل، وهذا المحاور امتلك خبرة فكرية وفنية عالية في طريقة اختيار الأسئلة وترتيبها بالتتالي، بحيث شكلت مجموعة من الحلقات المترابطة وقدمت أهم المراكز الفكرية والدينية والتي صاغت مجموعة من النظم الفكرية التي بلورت وكرست المفاهيم الصهيونية، والقراءة الدقيقة للحوار، تكشف قدسية واضحة وراء الأسئلة وطريقة تقديم الإيضاحات التاريخية لها، وكأنها محرقة للذاكرة الصهيونية، من أجل إنعاشها ونقض الغبار عنها وإعادة الحديث من أجل تكريسها في الذاكرة المعاصرة.

وكان روبرت ليتل ذكياً في صياغاته وكأنه في طريقة سرده للأحداث يقدم استطلاعاً روائياً، يخفف من الحدة التي دائماً ما يتمتع بها الحوار السياسي، وذلك من خلال هيمنة الخطاب، وهنا كان الخطاب متنوعاً، لكنه وعلى الرغم من تنوعه، استطاع صياغة وتحويل كل الخطابات لخدمة الخطاب السياسي / والعرفي.

ولقد تميزت صياغات روبرت ليتل وقربت الأجوبة إلى الحكاية، واتسع مجالها في السرد / والحكي وصار لبعض منها مجال سيبي، امتد في اللاحق من الأسئلة /

والأجوبة بحيث يتمكن السؤال بالإمساك بالمتلقي ويطغى عليه، لدرجة لا يستطيع الفكك من بنية السؤال المصاغ بتحقيق ثنائية / فنية وفكرية، إلى أن يمتد ويدخل وسط فضاء الجواب، الذي يقدمه شمعون بيريز، والذي كثيراً ما كان متناغماً مع السؤال في مستوياته الفكرية والمعلوماتية، الممتدة عميقاً في التاريخ اليهودي / والذاكرة العبرية وكأنها - المحاور - معنية بكلية التاريخ الخاص بالعبران، وتقديمه بشكل مرتب ونظيف، ونحال من العداوات والإبادة والتمييز العرقي والاضطهاد / والملاحقة / والتهجير، الذي عرفه الشعب الفلسطيني عبر تاريخه الطويل، ومنذ اجتياح يشوع بن نون لأريحا ودخولهم إلى أرض فلسطين، وحتى إلى الآن، وأظهرت المحاور الشخصية اليهودية، بوجه إنساني مع توفر عناصر للحوار مع الفلسطيني وإمكان العيش تجاوراً وإياه.

ووجدت خلال قراءتي للأسئلة الدقيقة / والأجوبة بأنهما خضعا معاً لهيمنة - روبرت ليتل - في اختيار وتحديد الأسئلة وصياغة الأجوبة، وفتح المنافذ نحو محطات وجدها ليتل ضرورية جداً، لذا صاغ أسئلة عنها، كل هذا توفير لمعلومات جديدة، تقدم وظيفة، أو مجموعة من الوظائف تم - ليتل - مثلما تم بيريز أيضاً، ومن الممكن أن تكون الأسئلة مقترحة على روبرت ليتل، لرسم فضاء واسع للدولة اليهودية / الصهيونية وقد تميزت شخصية المحاور بخبرته الصحفية العالية ونجاحه في تحقيق فرصة مهمة في الاتصال مع القارئ العربي، لأنه المقصود بذلك وأجد بأن الكتاب موجه - أيضاً - للعربي، من أجل أن يرسم لنا صورة جديدة لشخصية شمعون بيريز / الحائز على "جائزة نوبل للسلام"، وظهر متماهياً مع الجائزة، ومتعلقاً مع أهدافها الإنسانية. ولهذا كان خلال المحاور واعياً للدور الموكول له مثلما كان ليتل مدركاً لأهمية الحوار مع بيريز. لذا كان الخطاب في هذا الكتاب متنوعاً، ولكنه محكوم بالخطاب الإعلامي / والسياسي الذي هيمن وقاد الخطابات الأخرى، وصار حاضنة لها. لأن

الخطاب الإعلامي وآلية الصياغة، هي التي تحقق نتائجها المطلوبة في مثل هذا الحوار الطويل / المتشعب، بحيث يجد المتلقي الواعي، والمدرك عدداً من تفاصيل اللعبة، ولدرجة يكون فيها مشتتاً وضائعاً وسط فضاءات مختلفة، يكون فيها شمعون بيريز منتصباً "وحكيماً وإنسانياً".

ومن الأسباب الأخرى الدالة على أهمية هذا الكتاب، أنه يأتي بعد عملية "السلام" ويكشف لنا جينولوجيا الحلم الصهيوني / المبكر في الهجرة / ومغادرة الشتات، مع ترقب وانتظار لحياة آمنة / ومستقرة، تعمق بالتدرج الحلم، الذي انتظروه كثيراً، باعتباره وعداً من الإله اليهودي لهم، وفي أرض فلسطين، وهذا تؤكد النصوص التوراتية / سفر التكوين / والموضوعة بذكاء وقصدية. تضيء لنا الطموح العبري / اليهودي / الصهيوني للتكون والتشكل، كذلك حياتهم الانضباطية / العالية جداً / والتي ساهمت ببلورة شخصيتهم العنصرية / والعدوانية، مثلما أضاء لنا أوهام المؤسسة العنصرية حول الهلوكوست والتي سنتحدث عنها بشيء من التفصيل، ونحاول كشف الأكاذيب والزيف وما انطوت عليه من حقد وكرهية، كل هذا من أجل بلورة حاجة اليهود إلى وطن، ينقذهم من الشتات.

في الكتاب خطورة، تجسدت في نجاح الآلية الدقيقة التي توفرت للمحاور - روبرت ليتل - والذي تدخل كثيراً، كثيراً في صياغة هذه المحاورات و / وإعدادها وصياغتها، بحيث توفرت على مقدرة / فائقة في رسم صورة بانورامية لشخصية شمعون بيريز، صورة لم تكن موجودة حقيقة، إنما صورته التي رسمها الإعلام القصدي. كما تسبب الخطورة في طغيان الخطاب العنصري وتصاعد "إنسانيته" وإمكان هيمنة هذا الخطاب على القارئ ولعب دوراً في إعادة صياغة موقفه / أو مواقفه تجاه العبران / اليهود / الصهاينة، ولذا فالخطورة تكمن في احتمال اهتمام المتلقي بما هو خارجي، ولا يتبته للعمق / والداخل الذي تشف عنه الإجابات. وتسحب قوة الخطاب القارئ إلى

عدد من المجالات المهمة / والحيوية، منها التوراة / الشتات / السياسية، الملاحقة / الهامش / الوطن المفقود / العودة... الخ.

سأبذل جهداً بسيطاً في قراءة هذا الحوار، قراءة دقيقة وواعية، قراءة مختلفة تماماً عن استلامات المتلقي السريع والذي ربما يتعامل معها، باعتبارها عملاً صحافياً وجهداً بسيطاً. وأدعو القارئ العربي إلى يقظة حذرة، وانتباه / ذكي، لحظة تعامله مع هذا الحوار / والاستعانة بما يمكن الاستعانة به من أجل تفكيك الخطابات واستهدافها بوعى، لأن الذاكرة الحقيقية / التاريخية، تقدم لنا دعماً / وعوناً مهماً في مراقبتنا لهذا النوع من الحوارات.

٢ . اللغة المقدسة

إن واحداً من أسباب ثبات وقلة التغير والتطور الذي يلحق باللغة، هو كونها لغة أساطير، وهذا ما يمكن ملاحظته في اللغة العربية / والعبرية، لأنهما واجها وبقوة التطورات الموضوعية، والتي تنعكس حتماً على اللغة باعتبارها وسيلة الاتصال اليومي / والتبادل الشفاهي / والكتابي. وسبب ذلك هو أنهما معاً لغة صارتا مدونتين لنصوص دينية. ولا يمكن أبداً بعد أن حصل التدوين بها أن يلحقهما التغير والتطور، ولأنهما - أيضاً - لغة كتب مقدسة، أضفت البنية الذهنية الدينية، سلطة عليهما، ومنحتها قداسة، وحازتا على عناصر جديدة، لم تكن من خاصيتهما قبل وجود الدين اليهودي / والإسلامي، بحيث صارت الواحدة منهما، لغة اعتيادية، لا تختلف عن اللغات الجزيرية الأخرى، إلا ببعض الخصائص الفنية التي تميز كل لغة من اللغات.

اللغة العبرية، لغة ميثية، لأنها دونت الكثير من الأساطير والميثولوجيات التي عرفتتها حضارات الشرق الأدنى القديم، ابتداءً بالحضارة العراقية / والسورية / والكنعانية / والمصرية. وبذلك استطاعت اللغة العبرية أن تمسك بتقاليد وموروثات الحضارات الشرقية القديمة. وبها ومن خلاله صاغت المراكز / والمهيمنات الأساسية في الديانة اليهودية، على الرغم من أن هذه الصياغة، جاءت متأخرة جداً، لأن التدوين

الحاصل باللغة العبرية، لم يحصل إلا في القرن الخامس ق.م. إلا أنها كلغة تدوين دقيقة، تبلورت، في القرن الثاني ق.م وتميزت كلغة بين اللغات الجزيرية، التي شكلت مع غيرها عائلة اللغات الجزيرية في القرن الخامس ق.م وما بعده. وهي ليست لغة حاضنة، استولدت لغات أخرى، فهي - وكما معروف - استولدتها اللغة الآرامية، وحازت على ملامحها التي تشكلت أخيراً وحصلت على هويتها، وهي هوية مختلفة، فهي من الكنعانية / والآرامية وفيها إلى الآن مفردات كثيراً جداً منهما.

هذا التقديم، من أجل الإشارة لكلام شمعون بيريز الذي وصف فيه اللغة العبرية بالقداسة، واعتبرها لغة الصلاة والتراتيل والعبادات، ربما الآن، أما سابقاً فإن اليونانية والآرامية، كانت لغتهم في الخطاب والتدوين، وهذا معروف في الدراسات التاريخية.

أشار د. القس عبدالمسيح اسطفانوس إلى أن أسفار الكتاب المقدس دوّنت باللغات السائدة بين الشعوب الذين وجّه الرب رسالته إليهم. واللغات الأصلية التي كتب الكتاب المقدس بها هي:

اللغة العبرية: وهي اللغة السائدة بين العبرانيين. وكانوا يسمونها أحياناً "لغة كنعان"

"وفي ذلك اليوم يكون في أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان وتحلف باسم الرب القدير"

إشعيا ١٩ : ١٨

وكذلك يسمونها "اللسان اليهودي"

"فقا ألياقيم بن حلقيا وشبنة ويواخ لعاون رئيس الأركان: كلمنا باللغة الآرامية فنحن نفهمها، ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الذين على السور"

الملوك الثاني ١٨ : ٢٦

"وقف معاون رئيس الأركان فنادى بصوت عظيم باليهودية: "اسمعوا كلام الملك العظيم، ملك آشور".

الملوك الثاني ١٨ : ٢٨

وهناك نص آخر في سفر نحemia، يؤكد بأن اللغة لم تكن العبرية وإنما هي لغة أشدود.

"وكان كلام أولادهم خليطاً من لغة أشدود وسواها، وما كانوا يحسنون التكلم باليهودية، فخاصمتهم ولغنتهم وضربت منهم رجالاً وتفتت شعرهم، واستحلفتهم بالله لا يعطوا بناهم لهؤلاء الغرباء ولا يأخذوا بناهم لبيهم ولا لهم".

نحميا ١٣ : ٢٤

يشير كلام د. القس عبدالمسيح والنصوص التوراتية مجموعة من الملاحظات أهمها:

١. إن اللغة السائدة في الاتصال والتبادل الثقافي هي اللغة الكنعانية / أو ما يطلق عليه أحياناً في الدراسات التوراتية "شفة كنعان" ولغتهم غير القومية لم تمنع العبران من ممارسة طقوسهم الدينية وصلواتهم. وهذا يشير إشكالاً معرفياً مهماً وخطيراً وهو أن الفكر البشري^(*) أي فكر بما في ذلك الفكر الديني، نتاج طبيعي لمجمل الظروف التاريخية والحقائق الاجتماعية لعصره، وليس معنى ذلك أنه نتاج سلمي، بل الأحرى القول إن الفكر الجدير حقاً بهذا الاسم هو الفكر الإيجابي الذي يتصدى لحقائق العصر الذي ينتمي إليه بالتحليل والتفسير والتقوم، ويسعى إلى الكشف عن عناصر التقدم ومساندتها وعزل عناصر التخلف ومحاربتها.

(*) نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٨٥.

ولأن الظروف التاريخية تتحكم بالتأج الثقافي، وتعتمد على اللغة في الإرسال، لا يمكن العزل بين ما هو تاريخي وبين التجسّدات الاتصالية والتي كانت اللغة مركزاً إرسالياً مهماً، ساهمت بقيادة الحركة الحياتية / والدينية وأخضعتها تماماً للخصائص الوطنية الخاصة بكل عرق من الأعراق، لذا يمكن التفريق بين المرحلة التاريخية واللغة السائدة فيها لأنها - أي المراحل - هي التي صاغت وسيلة التراسل بين الأفراد والجماعات، واللغة هي بناء تاريخي، ساهمت عناصر عديدة في بلورتها / وصياغتها وقادت هي - اللغة - مجالات الاتصال / والتبادل الثقافي والمعرفي بشكل عام.

وكما قال د. نصر حامد أبو زيد: ولا خلاف في أن تاريخية اللغة تتضمن اجتماعيتها، الأمر الذي يؤكد أن للمفاهيم بعدها الاجتماعي الذي يؤدي إهداره إلى إهدار دلالات النصوص ذاتها.

وتنطوي اللغة كنظام مشكل من مجموعة علامات لسانية على أصول اجتماعية / وحضارية، ساهمت بصياغة ذلك النظام وصارت - لاحقاً - وسيلة للاتصال، وبالارتصال التبادلي / الشفوي / الكلام، تقدم خصائصها القومية ومن خلال ذلك تشف - حتماً - عن العناصر الدقيقة التي بلورت ذلك النظام اللساني ولهذا كانت اللغة - الكنعانية - مثلاً حاضنة لعناصر الحضارة الكنعانية، واستوعبت خصائصها عبر الوظائف المتبدية في كل لحظة. لذا لا يمكن ترحيل الثقافة المنتجة باللسان الكنعاني إلى محيط عبراني كذلك الآرامية / أو اليونانية.

كيف يمكن لشعب من الشعوب أن ينتج ثقافته / حضارته بواسطة لغة اخترعها شعب آخر غيره. لقد كان العبران يمارسون الاتصال اليومي / والإرسال التخاطبي ومزاولة الشعائر والطقوس عبر اللغة الكنعانية / والآرامية - وليس مثلما قال شمعون بيريز في الحوار معه. وهذا أمر مثير لإشكالية معرفية كبيرة جداً، لأن النصوص -

المدونات / الشعائر / الطقوس - التراتيل - هو عبارة عن أبنية لغوية^(*) لا تفارق النظام الدلالي للغتها إلا في حدود خاصة / مشروطة بطبيعة وظيفتها المقصودة في الثقافة... لكن إذا كانت اللغة تتطور بتطور حركة المجتمع / والثقافة فتصوغ مفاهيم جديدة، أو تطور دلالات ألفاظها، للتعبير عن علاقات أكثر تطوراً، فمن الطبيعي، بل والضروري، أن يعاد فهم النصوص وتأويلها بنفي المفاهيم التاريخية / الاجتماعية / الأصلية وإحلال المفاهيم المعاصرة، والأكثر إنسانية وتقدماً، مع ثبات مضمون النص، إن الألفاظ القديمة لا تزال حية، مستعملة، لكنها اكتسبت دلالات مجازية، لذا تظل المدونات التوراتية - عبر اللغات العديدة التي صاغتها أولاً - مدونات مهجنة، بالإمكان التقاط الروح الخفية التي استعانت بها الديانة وصاغت خطابها الديني. إلا أنها - العقائد والطقوس الدينية - تمثل مجموع النصوص المقدسة / الثابتة تاريخياً كما قال - نصر حامد - فكيف بالإمكان التعامل مع المدونات التوراتية، باعتبارها نصوصاً مقدسة وليست هناك حقائق تؤكد ثبوتها التاريخي، بل العكس فإن الأسفار التوراتية، خضعت للتغير كثيراً وعبر مراحل التدوين المختلفة.

إن اعتراف النصوص التوراتية واضح جداً، وهو ما يؤكد كون العبرانية لم تكن لغة العبران، وذلك لسبب بسيط جداً، وهو أن اللغة نتاج اجتماعي / وتاريخي والعبران لم تتوفر لهم فرصة تحقيق هذه الخاصية، بسبب الشتات أولاً، ولأن المكان الذي دخلوه واستوطنوا فيه، لم يكن مكانهم ثانياً بمعنى أنهم لم يستطيعوا حيازة العناصر / والخصائص الحضارية والتي هي الأصول الأولى التي تبلور اللغة. كما أن النصوص حسب - المفهوم السيمائي - لا تنفك عن النظام اللغوي العام للثقافة التي تنتمي إليها - كما قال د. نصر حامد أبو زيد - لكنها من ناحية أخرى تبدع شفرتها الخاصة التي تعيد بناء عناصر النظام الدلالي الأصلي من جديد. وتقاس أصالة النصوص وتتحدد

(*) نصر حامد أبو زيد، سبق ذكره، ص ١٠٢.

درجة إبداعيتها بما تحدّثه من تطور في النظام اللغوي وما تحقّقه نتيجة لذلك من تطور في الثقافة والواقع معاً.

وعلى ذلك يمكن القول أن النصوص ارتبطت بواقعها اللغوي / الثقافي، فتشكّل به من جهة، وتبدع شفرتها الخاصة التي تعيد بها تشكيل اللغة والثقافة من جهة أخرى. وهناك منطقة تماس بين الجهتين، هي التي تمكن النصوص من أداء وظيفتها داخل البنية الثقافية في مرحلة إنتاج النصوص، هذه المفاهيم الدقيقة - لنصر حامد أبو زيد - تضيء العتمة المحيطة بالهوية العبرانية، وتمسح عنه تلك الصفة / الهوية، لأنهم لم يستطيعوا حيازة أول / وأهم العناصر المكونة للهوية، وهي اللغة.

ومن الإشكالات الفكرية الأخرى، هو التشوش والاضطراب وغياب الرؤية / والدقة الفكرية التي تتعامل مع اللغة، باعتبارها نتاجاً تاريخياً / اجتماعياً، مثلما هي مرآة للخصائص القومية لأي عرق من الأعراق ولا أدري كيف يمكننا القبول بالتداخل والتناقض الحاصل في آن واحد، حيث لا يمكن اعتبار اللغة العبرانية، لغة كنعان / أو آرام، والإشكال الآخر الخطير، هو العلاقة التي يفترضها اليهود بين اللغة والدين، بحيث يتحول الدين بديلاً للعرق والقومية، ويقال اللغة اليهودية، ونحن نعرف بأن اللغة نظام لساني / ومعجم تنتجه قوميات وكل قومية لها معجمها الخاص، والذي لا يغلق نفسه أمام الأنظمة اللسانية الأخرى. ولم نعرف من قبل بأن الديانات - حصراً أنتجت قاموسها الخاص. والتأكيد على اللغة باعتبارها لساناً يهودياً (٢ مل: ١٨: ٢٦) يمثل تشوشاً وارتباكاً في العلاقة مع اللغة والطريقة التي تأسست فيها وتكرست لساناً خاصاً بعرق ما، بغض النظر عن الديانة الخاصة بذلك العرق. لأن الأعراق لا تشتت بالضرورة وجود ديانة واحدة فقط.

٢. اللغة الآرامية:

كانت اللغة الآرامية، هي اللغة السائدة في مناطق كثيرة وكانت اللغة الرسمية في المملكة الآرامية (السورية)

"فقال ألياقيم بن حلقياً وشبنة ويوآخ لمعاون رئيس الأركان: كلّمنا باللغة الآرامية فنحن نفهمها، ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الذين على السور"

الملوك الثاني ١٨ : ٢٦

وكانت اللغة الآرامية، لغة رسمية - أيضاً في الإمبراطورية الفارسية^(*). وبعد العودة من السبي حزن نحميا لأن الشعب نسي اللغة العبرية، وأصبحت السيادة للغة الآرامية. "وفي السنة الثانية من عهد نبوخذ نصر الملك. حلم نبوخذ نصر أحلاماً أزعجته ومنعت عنه النوم، فأمر أن يدعى السحرة والمجوس والعرافون والمنجمون ليفسروا له أحلامه، فجاءوا ووقفوا أمامه. فقال لهم: "حلمت حلماً فانزعجت، واريد أن أعرف ما هو" فأجابه المنجمون بالآرامية: أيها الملك عشت إل الأبد. أخبرنا بالحلم فبين تفسيره".

دانيال ٢ : ١ - ٤

٣. اللغة اليونانية:^(**)

ظلت الآرامية اللغة الرسمية إلى أن انتصر الإسكندر الأكبر على مملكة الفرس (٣٣١ ق.م) فأصبحت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية، وإن كان عامة الشعب قد استمروا في استخدام اللغة الآرامية. ويبدو أنه كانت هناك لهجتان من اللغة الآرامية،

(*) د. القسي عبدالمسيح اسطفانوس، تقدم الكتاب المقدس للقارئ العربي، دور الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، بيروت، ١٩٩٤، ص ٢١.

(**) د. القس عبدالمسيح اسطفانوس، سبق ذكره، ص ٢١.

إحداهما مستخدمة في الجليل والأخرى في اليهودية، ويظهر هذا واضحاً في قصة إنكار بطرس للمسيح:

"وكان بطرس قاعداً في ساحة الدار، فدنت إليه جارية وقال: أنت أيضاً كنت مع يسوع الجليلي" فأنكر أمام جميع الحاضرين، قال: لا أفهم ما تقولين" وخرج إلى مدخل الساحة، فرأته جارية أخرى، فقالت لمن كانوا هناك "هذا الرجل كان مع يسوع النصارى" فأنكر بطرس ثانية وحلف، قال: لا أعرف هذا الرجل" وبعد قليل جاء الحاضرون وقالوا لبطرس: لاشك أنك أنت أيضاً واحد منهم، فلهجتك تدل عليك" فأخذ يلعن ويحلف: أنا لا أعرف هذا الرجل. فصاح الديك في الحال، فتذكر بطرس قول يسوع: قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات "فخرج وبكى مرأً".

متي ٢٦: ٦٩ - ٧٥

وأصبحت اللغة^(*) اليونانية اللغة السائدة التي يستخدمها رجل الشارع في روما، والإسكندرية، وأورشليم "القدس" وإنطاكية / وأفسس. بينما كانت اللغة اللاتينية لغة الحكام الرومان وجيوشهم، إلا أن اليونانية التي كتب بها العهد الجديد كله لم تكن اليونانية الكلاسيكية التي كتب بها هوميروس مثلاً أشعاره، بل كانت اليونانية الشعبية التي يستخدمها رجل الشارع وإن كانت قد امتزجت ببعض المفردات اللاتينية السائدة، واتسعت لبعض مفاهيم المفردات التي انتقلت من العبرية لليونانية من خلال الترجمة السبعينية للعهد القديم.

ويفسر رجال الكهنوت هذا التنوع، تفسيراً إيجابياً، وحصل كي تسع رسائل الرب إلى بني البشر، ولهذا اعتبروا الكتاب المقدس كتاباً نجح في تخطي كل الحواجز

(*) د. القس عبدالمسيح اسطفانوس، سبق ذكره، ص ٢٢.

اللغوية، فالمفردات في حد ذاتها لا تحتل المكان المركزي. إن ما يهم هو أن تصل رسالة محبته للبشر بلغة يفهمونها بسهولة ويسر.

هذا يؤكد بأن العبران، لم تكن لهم لغة خاصة والتدوين الأول للأسفار الموسوية، لم يكن باللغة العبرية، لأنهم كانوا قد خرجوا توأماً من مصر، وحتماً كانت لغتهم هي المصرية، لأن موسى كان واحداً من رجالات مصر المهمة، حتى الحشود المغادرة معه، كانت أقامتها في مصر طويلاً جداً، ومن المحتم أنهم تعلموا اللغة المصرية. ولذا استقرأ الأستاذ جودت السعد مجموعة من الملاحظات حول لغة العبران وأهمها^(*):

١. محادثات موسى وهارون مع فرعون، لا بد وأنها حصلت باللغة المصرية بحكم تربية موسى في البلاط الفرعوني.

٢. إن مكوث من تسميهم التوراة "الإسرائيليين" ٤٣٠ سنة في مصر يجعلهم مضطرين إلى تعلم اللغة المصرية والتحدث بها ويؤكد كذلك علاقتهم بالمصريين واستعادة حاجيات المصريين كما تقول التوراة.

٣. عدم ورود أي إشارة، ولو تلميحاً إلى معرفة الموسويين أي لغة أخرى غير المصرية، أثناء مكوثهم في مصر وبداية الخروج، فالموسويون كانت لغتهم المصرية ولكنهم تخلوا عنها بالتدريج واستعاضوا عنها بالكنعانية.

وأكدت أكثر الدراسات الخاصة بالديانة الموسوية على أن موسى قاد^(**) حملات تبشير بالتوحيد الأخناتوني وخصوصاً بعد سقوط الديانة التوحيدية /

(*) جودت السعد، أوام التاريخ اليهودي، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان ١٩٩٨، ص ٢٠٩.

(**) Weech, Civilization of Near East. Pp. 84, 88.

الأخناتونية، حيث كان أخناتون يدعو إلى عبادة إله واحد فقط، ولأن موسى قضى أيام طفولته وشبابه في مصر، فقد عرف هذه العقيدة وتأثر بها ودعا لها.

وقد نقل "يوسفوس" عن مانيثون المصري، المهتم بالتاريخ القلم ما يشير إلى أن موسى كان كاهناً مصرياً، وأكد فرويد على أن موسى كان مصرياً وليس يهودياً.

وما يؤكد المصرية الديانة الموسوية، هو الطقوس^(*) المتعلقة بتقلم الأضحية والقرايين الحيوانية، التي تمثل أحد أهم أركان الديانة الموسوية هي طقوس مصرية كان يمارسها المصريون منذ أقدم الأزمنة.

لم تتوفر للعبران فرصة تسيّد لغة قوية خاصة بهم أبداً، حتى الفترات السياسية / الذهبية بالنسبة لهم، مثل حكم سليمان، كانت الديانة خليطاً وثنياً وشهدت فترات معروفة في حياتهم نشاطاً واسعاً للتعريف بالثقافة اليونانية والرومانية وخصوصاً في عهد "هيرودس" الأدومي / والذي كان ملكاً على يهوذا وعلى الجليل سنة (٣٩ ق.م).

وإذا أردنا فحص اللغة العبرية الآن فإننا نجد حوالي ثلث مفرداتها من اللغة العربية الحديثة، وثلاثاً آخر جاءها من الآرامية أو اللغة العربية القديمة والثلث الباقي مفردات أوروبية حديثة جاءها من الإنكليزية / الفرنسية / الألمانية / الروسية، ومثل هذه اللغة الخليطة تماماً، تدل على أنها لغة تفاهية، ليس لها عمق حضاري وتراثي، لكن طريقة تشكيل اللغة العبرية كانت تجربة لليهود في تشكيل لغتين في أوروبا، استعملت من قبلهم واعتبرت لغة الفن والأدب وهما^(**):

(*) أدولف أرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة د. عبدالمعزم أبو بكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي

وأولاده، مصر، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(**) جودت السعد، أوام التاريخ اليهودي، سبق ذكره، ص ٢٥٢.

١. اليديش: وهي لغة استعملها اليهود وسط وشرق أوروبا ثم انتقلت مع المهاجرين من أوروبا إلى الولايات المتحدة، وتعود أصول "اليديش" إلى العصور الوسطى وأساسها العبرية، وقد استعملت الأحرف الهجائية (العبرية) في كتابتها وتكتب من اليمين إلى اليسار.

٢. اللغة اليهودية، الأسبانية، وهي تتضمن عدداً من الكلمات العبرية، لكنها تعتمد بشكلها الأساسي على الأسبانية القديمة كما تكتب من اليمين إلى اليسار.

ويلاحظ بأن وجود العبران في الشتات^(*) دفعهم للحديث والكتابة بلغة البلد الحاضن لهم وعند الهجرة ساهمت لغاتهم الأصلية في تطعيم اللغة الأخيرة، ولم تستطع العبرية الصمود أمام هذا الغزو ولم تقدر حماية عناصرها اللسانية، لأنها لغة حديثة، لم تتوفر لها خصائص اللغات الحية القديمة ولم تكن لغة ذات عمق كبير ومثلما قال الأستاذ جودت السعد، بأنها لغة تفاهمية وليس لها عمق حضاري. لذا فإن إضفاء صفة القداسة على اللغة العبرية وبالشكل الذي قال به شمعون بيريز فيه مغالاة وتطرف ومجافاة للحقيقة الألسنية. وهذا لا يعنى من القول بأن اللغة العبرية لغة عقلانية / استدلالية للظروف الموضوعية السائدة في بلدان الشتات.

ولهذه الملاحظات، فإن الفرد العبري في حالة كهذه، لم يكن فرداً مبدعاً وخلاقاً لتراكيب جديدة وإنما هو ناقل ومرحّل، ولم يساهم بوعي في تطوير لغته، لأنها كانت وظلت لغة الأسطورة في لغة ديانة مقدسة. ولا يجوز لأحد التجاوز عليها والمساس بها، إضافة إلى هذا كله، أجد ضرورة الإشارة إلى الأصول الأولى التي لم تساهم - حتماً - في صياغة وبلورة اللغة التداولية. لغة الكتابة والمدونات، فهل يمكن للغة العبرية - الآن - أن تدير ظهرها لجذورها وأصولها؟ لا.. لأنها - الأصول - تدخل وبقوة في صياغة

(*) جودت السعد، أو هام التاريخ اليهودي، سبق ذكره، ص ٢٥٢.

اللغة وتساهم في تطوراتها وتلعب دوراً خطيراً في تغيراتها الماسية التي تستدعيها الضرورة الموضوعية، لذا لا تستطيع اللغة العبرية معادرة محيطها الميثي / العقائدي.

إن العبران منحوا لغتهم الهجينة صفة القداسة، ليتساووا مع العرب مثلاً، لأن لغة العرب نزل بها القرآن الكريم، وهي لغة أطلق عليها السلف والتقليد صفة القداسة، وقاد هذا إلى إشكالات كثيرة بين الدرس التقليدي / والدرس العلمي الحديث.

لقد استعان شمعون بيريز بالتوراة واستعاد مصطلح اللغة المقدسة التي أضافها رجال الدين والكهنة، وذلك لأسباب معروفة وضاعطة، تقلل من إحساس العبران بالهامش الذي عاشوه طويلاً، وسط حضارات متقدمة وصاعدة، لكننا لا نعثر أبداً على نص واحد في التوراة، يشير إلى وجود لغة عبرية. والنص الوارد في التوراة:

"وقال الياقيم بن حلقيا وشبنة ويؤاخ لريشا في كلم عبيدك بالآرامي لأننا نفهمه ولا تكلمنا باليهودي على مسامع الشعب الذي على السور".

الملوك الثاني: ١٨ : ٢٦

والريشا في كما تذكر التوراة، هي في لخيش "تل الدوير"^(*). وبذلك تتوضح الصورة لأن لخيش تقع قرب منطقة يهودا ومحاذية لها وسكانها لا بد أن يكونوا من الكنعانيين كما هو الحال في يهوذا، فإذا صحت رواية التوراة وتحدث الريشا في بلغة، غير الآرامية فستكون اللغة الكنعانية وهي لغة منطقة يهوذا الكنعانية، أما أن تتحول الكنعانية في يهوذا إلى العبرية لدى كثير من لكتاب فأمر يتعد عن الدقة الموضوعية.

لا ندري لم هذا الإلحاح على قداسة اللغة العبرية واعتبارها عاملاً مركزياً ومهيماً في تشكل دولة إسرائيل، ولولاها لما كان الذي هو حاصل، والحاجة إلى هذا

(*) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، سبق ذكره، ص ٢٠٨.

المدار والحديث عن اللغة بهذه الطريقة الحماسية، واعتبارها ذات صفات خاصة، قدسية وتنفرد بها العبرية. وقال شمعون بيريز:

كان أحد أسباب عودتنا إلى أرض الوطن عودة إلى اللغة. لم يكن بإمكاننا تصور عودة بدون لغة.. إن الحياة اليهودية تمت بالعبرية وكان التدريس باللغة العبرية، كما كان الحال في مدرستي في الشتات". وواضح من الجواب، طغيان الرومانسية والشعرية في المفاهيم التي تعوم الفكرة الأساسية، ذات الصلة باللغة وصفتها القدسية وكيف حازت عليها؟ ويبدو لي بأن صياغات روبرت لیتل، هي التي لعبت لعبتها الفنية التي أشرنا لها قبلاً. وهل فعلاً كان الحنين إلى "اللغة" العبرية هو الذي دفع بهم إلى العودة إلى الوطن؟ وكان التفكير بالوطن، هو تفكير بأهمية اللغة لديه. وهو وطن تعددت اللغات فيه، ولم تكن "اللغة" العبرية لغة معروفة في فلسطين، وإنما اللغة الكنعانية، وتعددت في السنوات اللاحقة وصارت فلسطين حاضنة لعدد من اللغات. ولا أدري هل هناك علاقة حميمة بين اللغة وفلسطين؟ ولو لم تكن العودة، فماذا سيكون مصير حلمهم اللساني؟ وماذا سترتب على العبران الذين يتحدثون لغة اليديش إلى الآن؟ هل فقدوا عنصراً قومياً وعنصراً دينياً؟ وهم ما زالوا إلى الآن يكتبون بها تاريخهم العبري واليهودي، ويجسدون طموحاتهم وأحلامهم؟ إلا أن السيد شمعون بيريز قصد من وراء ذلك بلورة مفهوم فكري جديد، وهو اقتران الشتات مع فكرة الاضطهاد "والهولوكوست" لأن الشتات عرضهم للموت الحقيقي والنفسي، مثلما يدفع بهم نحو لغة اليديش ويحاول يقصدهم بعيداً عن "اللغة" العبرية ولهذا جاء التركيز في حديثه على الإشارة إلى أن الاحتلال تزامن أيضاً مع ولادة، أو إيقاظ لغة جديدة وقديمة، وهذا يفرض اللغة على الدخول واجتياح مكان يساعدها على التبلور أكثر مما كانت عليه في الخارج / الشتات ويمثل كلام شمعون بيريز هذا محاولة منه لنفي الحقائق التاريخية المتعلقة بجذور تشكلهم وأصول ديانتهم ومكان ديانتهم ومكان وجودهم

الأول، حيث يبدو واضحاً للقراءة الدقيقة دلالة ما يقصده بيريز في ربطه ما بين الأرض المقدسة واللغة، من قداسة الأرض، حازت اللغة قداسة، على من أنها لم تكن مرتبطة بفلسطين ومقترنة بها ولا يوجد أساس تاريخي بينهما، وتأكيد بيريز على اللغة والوجود العبري في كنعان، يكشف للمتابع زيف هذا الادعاء وينفي حيازة اللغة على قدسية ما.

لا نعتقد بوجود لغة مقدسة. والقداسة للمعنى الذي تنطوي عليه اللغة، باعتبارها نظاماً لغوياً ينتج مجموعة من النصوص حازت شرط قداسة، لأنها تزاوُل في الطقوس والشعائر وذلك لأنها - النصوص بالمفهوم السيميائي - لا تنفك عن النظام اللغوي العام للثقافة التي تنتمي إليها - كما قال د. نصر حامد أبو زيد. ولا ندري كيف تتطور اللغة العبرية وهي لم تحز على شرطها الموضوعي / التطوري وذلك بسبب تنوع اللسان واتساع المعجم وتنوعه. وهي لا تستطيع^(*) إبداع شفراتها الخاصة التي تعيد بناء عناصر النظام الدلالي الأصلي من جديد، وتقاس أصالة النصوص وتتحدد درجة إبداعيتها بما تحدته من تطور في النظام اللغوي وما تحققه نتيجة لذلك من تطور في الثقافة والواقع معاً، وعلى ذلك يمكن القول إن النصوص ترتبط بواقعها اللغوي / الثقافي، فتشكل به من جهة وتبدع شفرتها الخاصة التي تعيد بها تشيكل اللغة والثقافة من جهة أخرى.

إذا رجعنا إلى التسلسل التاريخي منذ خروج موسى^(**) والموسويين والذي لا يوجد أي دليل أو نص يشكك في أنهم مصريون، فإن اللغة التي كانوا يتحدثون لابد، أن تكون المصرية، فعندما استوطنوا فلسطين تحدثوا الكنعانية، كما تؤكد التوراة على

(*) د. نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، سبق ذكره، ص ١٩٤.

(**) جودت السعد، أوام التاريخ اليهودي، سبق ذكره، ص ٢٠٩.

ذلك، ولما وقع السبي^(*) بعد احتلال السامرة في القرن السابع ق.م وكانت الآرامية تعم وتسيطر في منطقة الشرق الأدنى، وبشكل خاص في بلاد آشور، فتعملها هؤلاء، وتحديثوا بها وترسخت هذه اللغة أثناء السبي البابلي / والاحتلال الفارسي، لذا كتبت التوراة أول مرة بالآرامية واعتبرت "اللغة المقدسة" ونقل الحرف الآرامي "المربع" ليكون أبجدية "اللغة المقدسة" هذه. وعندما عاد عزرا إلى فلسطين حاملاً معه التوراة المكتوبة في بابل بالآرامية احتاج إلى توضيح هذه الكتابة عند قراءته للنصوص - كما تشير التوراة على ذلك - أمام أتباعه. وقد ترجمت النصوص من الآرامية إلى اليونانية. وهي الترجمة المسماة بالسبعونية، ومنها ترجمت إلى اللهجة الآرامية، التي اختير لها اسم "اللغة العبرية" أثناء حكم اليونان وبالذات فترة المكابيين، والدليل على ذلك عدم وجود أي نص باللغة العبرانية، قبل الفترة المكابية.

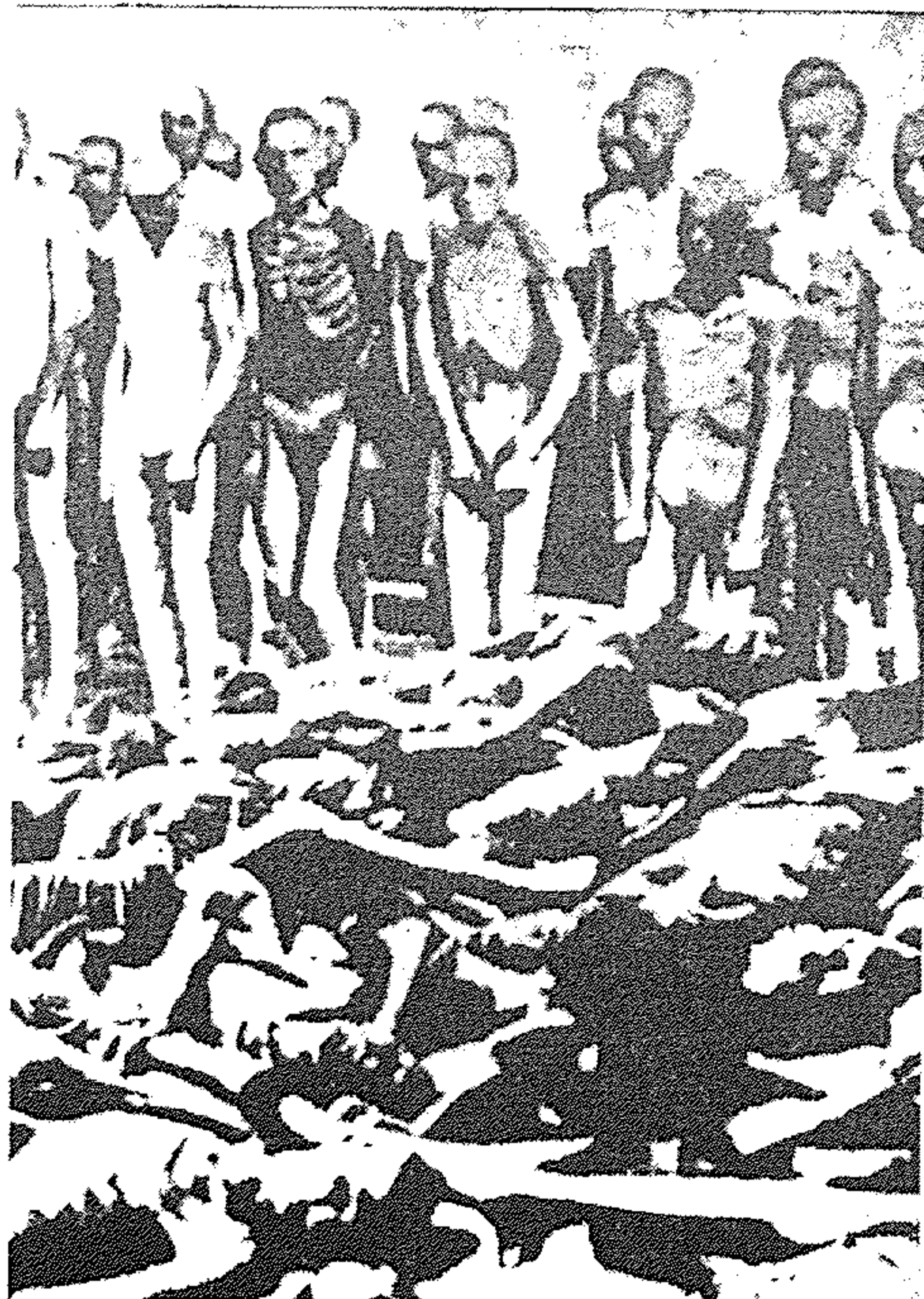
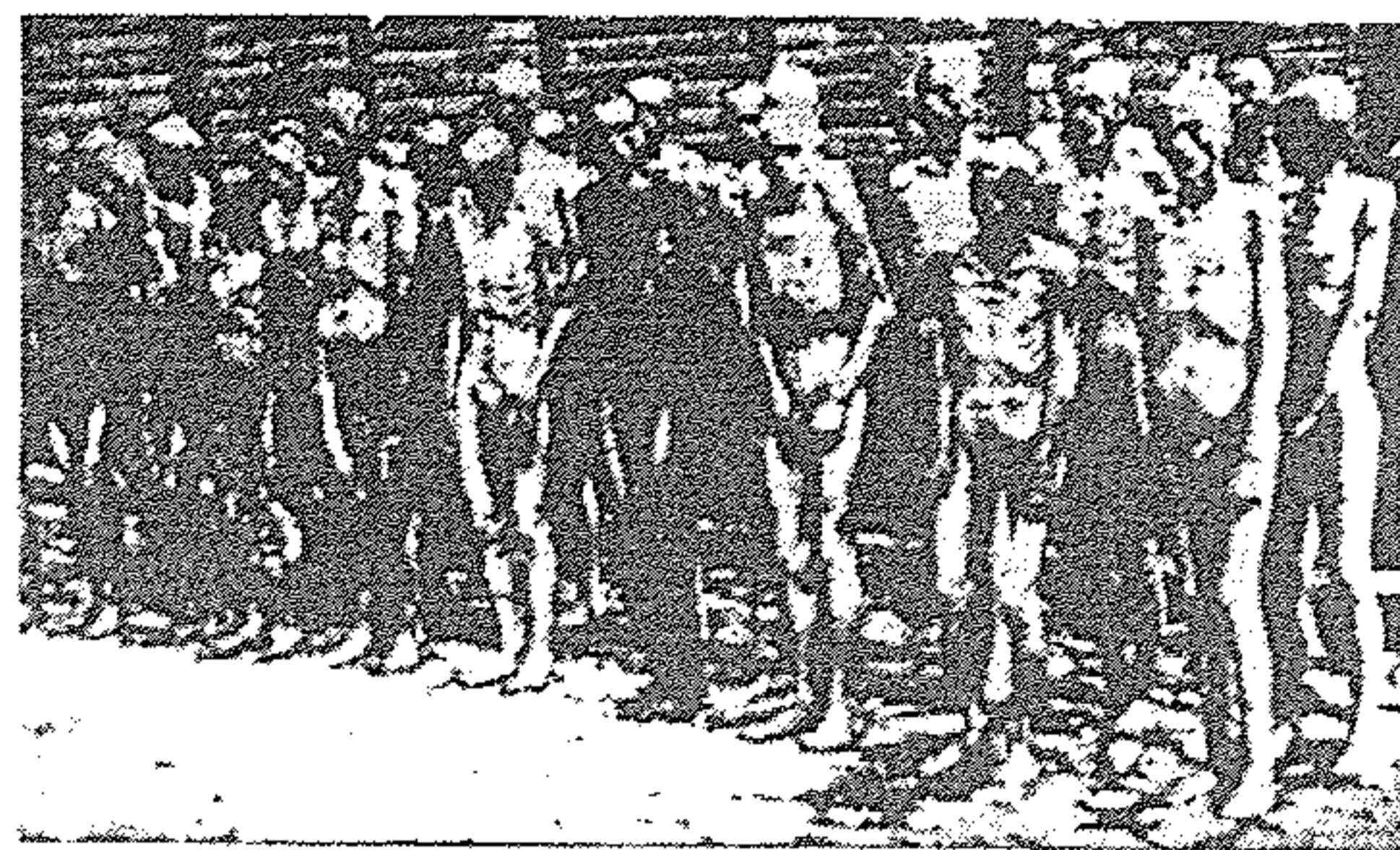
إن اليهود لم يتركوا أي كيان سياسي / يهودي خاص^(**) بهم في تاريخ فلسطين القديم، ولكنهم تركوا ديانة يهودية متأخرة مقتبسة من تراث كنعاني وبابلي وآرامي، وأن عهد الملوك بما فيه عهد داود وسليمان كان عهداً كنعانياً بحضارته ولغته وثقافته، وفشل اليهود في إنشاء مملكة زمنية يهودية دائمة في فلسطين، يرجع إلى عوامل كثيرة من أهمها في نظرنا عاملان أولهما، هو أن الكيان اليهودي لم يقع على أساس قومي راسخ أصيل بثقافته ولغته وتقاليده ووطنه. لأن اليهود لم يملكوا^(***) أي تراث خاص بهم، فمعظم ما مارسوه من لغة وثقافة وديانة وتقاليده، وعادات مقتبسة من الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين. كما لم يكن لهم وطن إذ كانوا غرباء طارئین على فلسطين وكيانهم قائم على الدين، والدين وحده. والدين عرضة للتغير والتبدل

(*) سبق ذكره، ص ٢٠٩.

(**) أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٠، ٦٢٠.

(***) أحمد سوسة، سبق ذكره، ص ٦٢٠.

على خلاف ما هي عليه القومية من ثبات لاستنادها إلى ثقافة ولغة واحدة وطن ثابت. أما العامل الثاني فهو أن كيان إسرائيل كان قائماً على الاغتصاب والاعتداء على شعب آمن له قوميته وثقافته وتقاليده وحكمه عاش في أرض فلسطين منذ خمسة آلاف عام. وقد جاء اليهود عازمين على طرد هذا الشعب من دياره وأخذ حقه، زاعمين أن إلههم "يهوه" أمرهم أن يبيدوا هذا الشعب وأن يحلوا محله وأن الرب وعدهم أنه سيحارب بنفسه من أجل تحقيق ذلك لهم.



شكل (٢٧): في الأعلى صورة حقيقية في الأسفل صورة مزورة

٣. العرق والجنس

ذكر شمعون بيريز في حوار مع روبرت ليتل^(*) يجب على المرء العودة إلى العقيدة اليهودية، فقد أدعى بن غوريون وأنا وافقته على ذلك من أن اليهودية ليست دين وعقيدة، لأن في الدين تسلسل هرمي للسلطة. فهناك الرب وهناك الوكيل (الوسيط) والتركيب ككل، في حين لا يوجد هناك وساطة بين اليهود والرب حيث نعتف به ككل. فاليهودية دين شامل ومتكامل، وتحتوي الديانة اليهودية على وصاية والتزامات معترف بها، تعترف بوجود الله، وتعتقد بوجود لغة واحدة معينة، هي اللغة العبرية، وتكرس نفسها لأرض معينة هي إسرائيل. لذلك لا يوجد هناك فرق بين الدولة والنظام الديني أو الالتزام الجغرافي واللغة. والتاريخ فجميعها، يعتبر التزاماً كلياً (حسب المفهوم اليهودي).

وأشار السيد شمعون بيريز مراراً إلى أن الدين يعني العرق أو الجنس، وأكد بقوة على العداء الكامن في نفوس العرب ضد اليهود، موحداً بينهم وبين العرق وهذا خطأ فاضح، والسيد بيريز يعرف ذلك جيداً ويدركه، لكنه مثل غيره من زعماء

(*) روبرت ليتل، مستقبل إسرائيل، حوارات مع شمعون بيريز، ت: محمد نجار، تقلم: ناجح العموري، الأهلية للنشر، عمان، ٢٠٠٠، ص ٤٨.

الكيان الصهيوني، يؤكدون عليه ويستمرون بتغذيته في وسائل الإعلام وهو يعرف جيداً بأن اليهودية ديانة، حازت على اسمها بعد الدخول إلى فلسطين، وبعد صعود مملكة يهوذا، بينما العرق العربي أقدم بكثير من هذا، والعبران يشكلون غصناً من شجرة الأقاليم الجزيرية النازحة من الجزيرة العربية، ولذلك وقائع معروفة، ولا ضرورة للانشغال بها الآن، فالعبران عاشوا ضمن عدد من القبائل، التي نزحت من الجزيرة، وهذا ما أشارت له التوراة بوضوح وصراحة تامة، مثلهم مثل أقوام كثيرة. نذكر منهم الكنعانيين / الآكاديين / والآراميين / والآموريين.. الخ.

ويؤمن - تماماً - بيريذ بالوحدة الموجودة / والضرورية بين الدين / اللغة / القومية / وكلها تصوغ شخصية اليهودي، حيث لا يمكن لليهودي - كما قال بيريذ - أن يظل يهودياً من دون التحدث بالعبرية. هذا هو مفهومنا الحالي، ولا يمكن لليهودي، أن يكون يهودياً بدون الاعتقاد بإله واحد موجود في السماء، وإذا لم تعش في دولة الشعب اليهودي حيث ولدت اليهودية. وهذا المفهوم يمنح جواً من القداسة للأرض، للقدس بشكل خاص وغيرها من الأماكن. لذلك لم تكن هناك حاجة لمأوى فقط، ولكن للعودة إلى الوطن. لقد حاولوا أيضاً إنشاء دولة يهودية في روسيا. دولة يهودية لا دينية. لكن ستالين أفضل ذلك.

ويستطرف بيريذ أكثر بموقف تجاه اللغة^(*)، حيث لا وجود لديانة حقيقية بدون لغة عبرية. لأنها كانت لغة الصلاة عند اليهود المتدينين، فإنك تصلي بالعبرية فقط، ولا تستخدمها أو تتحدث بها في حياتك اليومية. كانت في الحقيقة لغة مقدسة، لا يجب أن تستخدم في الأمور اليومية.

(*) روبرت ليتل، مستقبل إسرائيل، ص ٤٠.

ويصعد الإحساس بالكراهية والحقد على العرب، ويصرح به في أكثر من موقع، وأستذكر جريمة قتل يهودي في منطقة فيشينفا على يد سفاحين مناهضين للسامية. وعندما جاء إلى فلسطين، قتل شخص يهودي، على أيدي العرب. في غابة هرتزل بالقرب من مستوطنة بن شمين. وكان بيريز يشعر بان البغض والكراهية ينبعثان من الوجوه العربية وأضاف بيريز قائلاً: وكان هناك فرق شاسع ما بين عمليتي القتل. ففي "فيشينفا" شعرت بالضعف لأنني كنت بعمر أصغر وأحسست بأننا ضحايا، وكانت عملية القتل صدمة مفزعة، حيث لم نكن قادرين على الدفاع عن أنفسنا ولم نكن نثق بشرطة الغرباء، لذلك كنا نتعرض لمثل هذا الخطر أما في "بن شمين" فالأمر مختلف، لدينا بنادق لأننا كنا نعتقد بأن العرب عنيفون، إلا أننا لم نكن ضعفاء أو عاجزين. كنت أنا نفسي حينذاك قد أدت قسم الانضمام إلى الهاغانا وكنت مسلحاً ببندقية أقوم بمهمة الحراسة طيلة الليل. لذلك فإن الشعور مختلف بالتأكيد. لقد كنا متأهين، و يصعد صوته العدواني ضد العرب (لم يشكل العرب أهمية. ولا أحد يعتبرهم ولم يكن الناس يفكرون بهم) هذا موقف قديم قاله زعماء الصهيونية من قبل ويكاد موقفهم في تجاهل العرب يكاد يكون عاماً في صفوف المنظمات الصهيونية.

وأضفى بيريز قداسة مطلقة على اللغة العبرية لصلتها بالطقوس والعبادات، بحيث تظل - العبرية - هي العنصر الأساس الذي يصوغ ويبلور شخصية اليهودي ويؤكد بأن أحد أسباب عودتهم إلى فلسطين، هي اللغة العبرية واعتبرها لغة أم. والعودة إلى الوطن، عودة إلى اللغة، ولم يكن تصور عودة إلى الأرض من دون الرجوع إلى اللغة. أرض مقدسة ولغة مقدسة. أضف إلى ذلك كانت وما زالت العبرية لغة الصلاة، كما أن إحياء الحياة العبرية تحقق باللغة العبرية.. والحدة الواضحة في التمايز، تمثل مجالاً لكل الزعماء اليهودي وكأنهم أخذوا الكثير من العناصر الهتلرية التي عرفتها النازية وعلمته للشباب. مثل موضوعة ألمانيا الكبرى / والعرق النقي / وضرورة الحفاظ على النقاوة

والابتعاد عن الأجناس الأخرى. الخ لقد تبلور موقف عرقي / عنصري لدى اليهود، وقد بلغ هذا التطرف حداً لا مثيل له، في تصريح الشاعر الألماني / اليهودي هانسي عندما قال: منذ بدء الهجرة الجماعية، أصبحت الحرية تتحدث بلهجة عبرية على الدوام".

وعلى الرغم من الحماس العاطفي تجاه اللغة العبرية فإن شمعون بيريز، يؤكد من خلال حماسه هذا، موقفه الفكري المعارض / والمختلف مع الفئات المثقفة التي أشارت للوظيفة الدينية فقط التي يجب أن تتمتع بها اللغة العبرية، والتعامل وإياها باعتبارها لغة الصلاة فقط، ولا يمكن أو لا يفضل استعمالها في الحياة اليومية. وتستعير هذه الفئات / وهي الدينية - صفة اللغة العبرية التي أطلقها اليهود وهي القداسة - وتوظفها لخدمة أفكارها، وبما أن اللغة العبرية ذات صفات مقدسة، فلا يجوز الاستعانة بها في التبادل اليومي والاتصال الاعتيادي.

وإنما الاكتفاء بالديني / المقدس، وهو الوحيد الذي يسمو باللغة العبرية ويصعد بها، مثلما تضيف عليه مسحة خاصة، هي العلاقة العميقة معه. ولذا فإن اللغة هي دين عند اليهود ومن لا يجيد اللغة العبرية، لم يحز على ديانتها الحقيقية، وسيظل دينه / أو يهوديته ناقصة أو قاصرة عن الوصول إلى المرتبة التي يجب أن تكون عليها.

وهذا الرأي يمثله بشكل واضح "اليعازر بن يهودا" وهو الذي أسس وأحيا اللغة العبرية، وقد ناء بنفسه عن استخدام اللغة العبرية في الحياة اليومية، لأنها مقدسة.

والحماس الذي أبداه شمعون بيريز للغة العبرية هو ذاته حماس الرعيل الأول - ديفيد بن غوريون مثلاً - لأن غير العبرية، يذكرهم بالشتات والابتعاد عن "الوطن!" كما يقولون.. لذا فإن بن غوريون في مؤتمر للهستدروت عام ١٩٤٥ صرخ بوجه أحد المتحدثين باللغة البيدية قائلاً: إن اللغة البيدية، لغة أجنبية / ومنقرضة والحماس

نحو العبرية يعني ابتعاداً عن لغة البيديش واللغات الأخرى التي عرفوها في الشتات. وهذا ما أثاره روبرت ليتل مع شمعون بيريز الذي قال^(*):

نعم يجب أن تفهم شيئاً. كان يعتبر نموذجياً جداً وعميقاً لدى بن غوريون، لأنه لم يغفر أبداً للتاريخ اليهودي لأنه كان يعيش في المنفى، فالمنفى كان شيئاً مخجلاً في نظره. فالألف عام التي كنا فيها في الشتات - مبتعدين عن الأرض المقدسة - لم تتخل فيها عن أرضنا فقط بل إننا نسينا عادات بغيضة، وهذا قد أفسد الشخصية اليهودية. فاللغة البيدية كانت رمزاً للشتات، والمنفى. لذلك فإن النضال لم يكن ضد اللغة فحسب، وإنما ضد كل شيء يمثل الشتات والمنفى. في البداية أرادوا استخدام اللغة البيدية لغة رسمية في إسرائيل. بيد أن بن غوريون انفجر وعارض ملتهباً. وكانت هناك منظمة تدعى البوندا - وأعتقد أنه إما تروتسكي أو لينين، لا أذكر أي منهما - ، قال مرة:

كان صهاينة البوندا يخافون دوار البحر وليس عبوره كما أنهم يخشون اجتياز

عائق اللغة.



شكل (٢٨): موسى مهدداً بالألواح في سيناء تخطيط تخيلي للفنان ثامر عبدالله

(*) روبرت ليتل، مستقبل إسرائيل، ص ٤١.

٤. "الهولوكست" أو القربان الجماعي

الهولوكست: كلمة يونانية تعني "حرق القربان الكامل" وكانت في الأصل مصطلحاً دينياً يهودياً يشير إلى القربان الذي يُقدم للرب على سبيل التضحية ثم يحرق تماماً على المذبح، وهو طقس من أكثر الطقوس قداسة لدى اليهود. وفي العصر الحديث أصبحت الكلمة تشير إلى عملية "إبادة" اليهود على أيدي النازيين وربما كان المقصود من استخدام الكلمة على هذا النحو هو تشبيه "الشعب اليهودي" بالقربان والذي حُرق تماماً لأنه أكثر الشعوب قداسة - محمد هشام - .

سأله روبرت ليتل قائلاً:

أريد إثارة موضوع مؤلم، وهو المحرقة. اعتاد الرئيس الأسبق رزوفلت توجيه خطاب منتظم أبان الحرب العالمية الثانية من المذيع، وعُرف بمحديث المدفأة في كل أسبوع ولغاية ما توفي من دون أن يذكر "اليهود" ولو بكلمة واحدة. وفي ٣٠ / ٦ / ١٩٤٠ نشرت صحيفة نيويورك تايمز والتي يمتلكها اليهود، رواية مؤلفه من ست فقرات وعلى صفحاتها السابعة، وتحت عنوان "تقول التقارير بأن النازيين ذبحوا مليون يهودي" وهي حقيقة أسفت لها صحيفة نيويورك تايمز بمرارة".

هذا الموضوع، هو أخطر ما استثمرته الحركة الصهيونية في التاريخ المعاصر، وبالغت كثيراً في حجم الاضطهاد والإبادة، لأنها أدركت بأن الفرصة الحقيقية والتي لن تعود هي تهمة الإبادة الموجهة للنازية، لأن الصهيونية وبقدراها الضخمة، في كل المجالات، لعبت دوراً أساسياً في الترويج لذلك وبتهمة العداة للسامية، كي تحقق هدفها المركزي، وحلمها التاريخي في أرض فلسطين. ولهذا روجت الصهيونية وما زالت لتلك التهمة، وحققت بسببها أحلاماً كثيرة وحازت على عطف دول كثيرة في العالم، ولهذا صارت تهمة الإبادة مقياساً لمعرفة إنسانية أي بلد من البلدان.

صحيح أن أعداداً كبيرة من يهود أوروبا كانت من بين ضحايا الحرب العالمية الثانية. فقد طحنت هذه الحرب حوالي خمسين مليون إنسان معظمهم من المدنيين. والذي يتابع مجريات هذه الحرب يستغرب التركيز على ضحاياها من اليهود فقط، دون اعتبار لضحاياها من الآخرين.

والمعروف أن معسكرات الاعتقال النازية^(*) لم تكن لليهود فقط بل كان يرسل إليها كل من يعادي النازية والاحتلال النازي بما في ذلك المواطنين الألمان، ويتبين من سجلات معسكر "داخاو" مثلاً أن ضحاياه كانوا من "٢٩" جنسية مختلفة. ويقدر أن حوالي ثلثمائة ألف "نوري" قد ماتوا في هذه المعسكرات دون أن يذكرهم أحد، ومعسكرات الاعتقال النازية كانت في حقيقتها مجمعات لأعمال السحرة الإجبارية. وكان الذين يرسلون إليها يعملون في دعم آلة الحرب النازية لأن شباب ألمانيا وقواها العاملة، كانت تحارب على جميع الجهات، حتى أن الألمان جندوا الأطفال "شبير هتلر" في سنوات الحرب الأخيرة لحاجتهم إلى الجنود ولتعويض خسائرهم البشرية على جبهات القتال.

(*) غازي السعودي، المحرقة النازية: الأسطورة التي تحولت إلى منجم للذهب، جريدة الرأي الأردنية، ٤/٥/٢٠٠٠.

إن العدد المبالغ فيه للضحايا اليهود، هو واحدة من عناصر أسطورة الهولوكست خلال نصف قرن. وما يؤكد أسطورة المجزرة هو أن العدد الكلي لليهود في ألمانيا عام ١٩٣٩ لم يزد عن ٢١٠ ألف، إلا أنهم^(*) كانوا يسيطرون على مختلف الفعاليات الاقتصادية بما في ذلك دور النشر والجامعات الألمانية. وكانوا يعيشون حياة مترفة وسط الألمان الجياع والعاطلين عن العمل، وعند قيام الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ كان هناك واحد وعشرون ألف معتقل في المعسكرات النازية، ومعظمهم كانوا من الشيوعيين أو الاشتراكيين المعادين للنازية إضافة إلى العاهرات والمخنثين والنور وبعض الفئات من محترفي الإجرام وقلة من اليهود، وبعد وقوع الحرب وغزو أوروبا، بدأ الألمان في إرسال أسرى الحرب خاصة أفراد المقاومة من البولنديين واليوغسلاف والروس إلى هذه المعتقلات وان معظمهم من المسيحيين الكاثوليك ومع ازدياد^(**) المقاومة ضد الاحتلال النازي، ارتفع عدد المعتقلين في هذه المعسكرات إلى " ٨٨ ألفاً عام ١٩٤٢ وإلى " ٢٢٤ ألفاً في آب ١٩٤٢ ثم إلى " ٥٢٤ ألفاً عام ١٩٤٤. ومع نهاية الحرب عام ١٩٤٥ كان هناك " ٧١٤ ألفاً يعملون لصالح الجهود الحربي الألماني كعمال سخرة. وكان هؤلاء المعتقلون موزعين على " ٢٠ معسكراً في مختلف المناطق الواقعة تحت الاحتلال النازي، ولا يعرف عدد الذين ماتوا في هذه المعسكرات، ويقدر عددهم بمئات الألوف من بين ضحايا الحرب العالمية الثانية البالغ عددهم " ٥٠ مليوناً ويتضح من شهادات الناجين من معسكرات الاعتقال النازية بأن معظم الذين ماتوا فيها كان بسبب الجوع والبرد والأمراض المعدية وخاصة التيفوئيد

(*) غازي السعودي، المحرقة النازية، سبق ذكره \ يوم ٤/٥/٢٠٠٠.

(**) غازي السعودي، سبق ذكره، يوم ٤/٥/٢٠٠٠.

والحصبة والجدرى. وورد ضمن إحصائية أجراها "أوسوالد بول" لعناية السيد هيملر^(*) بأن العدد الإجمالي للوفيات بين الأول من تموز ١٩٤٢ و ٣٠ تموز ١٩٤٣ هو: "٥٢٤" ألفاً وأغلب الوفيات كان سببها الأوبئة كالتيفوئيد الطفحى أو النمشى، وهي إحدى أنواع الحمى التيفوئيدية التي ينقلها القمل وكانت مخيفة جداً، وبشكل خاص في المعسكرات التي لا تتوفر فيها ظروف صحية مناسبة. وكانت السلطات تستخدم لمكافحة الحشرات الضارة، مبيداً للحشرات باسم "زيكلون ب" الذي حوله "الإباديون" دعة أطروحة الإبادة بالغازات إلى وسيلة لاستئصال الجنس البشري أو الكائنات الإنسانية.

ومنذ أن أسس^(**) "هتلر" حزبه القومي الاشتراكي، لم يقتصر على السعي إلى استئصال شأفة الشيوعية فحسب، بل وضع نصب عينيه أيضاً طرد اليهود من ألمانيا أولاً، ثم من أوروبا عندما بسط سيطرته عليها. وقد استعان "هتلر" انطلاقاً من نظريته العرقية حول تفوق "العرق الآري" فضلاً عن أنه يرى على الدوام أن ثمة تطابقاً بين اليهود والشيوعية التي اعتبرها العدو الأساسي (وليس على ذلك من آلاف الشيوعيين الألمان الذين أعدموا، فضلاً عن ممارسات هتلر الوحشية في حق الأسرى "السلاف" خلال الحرب واستناداً إلى هذه الرؤية، استحدث هتلر مصطلح "البلشفية" أو "الشيوعية" اليهودية.

(*) يورغن غراف، المذبحة تحت المجهر، دراسة علمية لفضح أكاذيب الصهيونية، ت: جواد بشارة، دتار المدى، دمشق، ١٩٩٥، ص ٣٤.

(**) روجيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسية الإسرائيلية، ت: محمد هشام دار الشروق، عمان، ص ٢٠٢، ١٩٩٨.

أما المحصلة المريرة لضحايا الوحشية الهتلرية على المستويين السياسي / والعرقى فهي^(*) أسفرت الحرب العالمية الثانية عن مقتل (٥٠) مليوناً من البشر، من بينهم (١٧) مليوناً من مواطن الاتحاد السوفيتي وتسعة ملايين من الألمان، كما تكبدت بولندا، وغيرها من بلدان أوروبا التي احتلها النازيون، ملايين القتلى، ومثلهم الملايين من جنود بلدان أفريقيا وآسيا، والذين جُندوا وزُج بهم في هذه الحرب التي نشبت مثل سابقتها، الحرب العالمية الأولى، نتيجة صراعات بين الدول الغربية. لم تكن الهجمة النازية إذن مجرد (مذبحة) واسعة النطاق، استهدفت اليهود في المقام الأول، أو استهدفتهم وحدهم، وهو الأمر الذي تحاول بعض الدعايات أن ترغمنا على تصديقه، بل كانت بالأحرى كارثة إنسانية، إلا أن ثمة سوابق عديدة لها... صارت أسطورة / خرافة إبادة اليهود هي الشغل الشاغل للعالم كله، فالحديث عنها باعتبارها عملية إبادة جماعية في التاريخ، يعني بالنسبة للاستعماريين الغربيين نسيان الجرائم التي اقترفوها (مثل إبادة الهنود الحمر في أمريكا واستعباد سكان أفريقيا) كما كان يعني إخفاء عمليات القمع الوحشية التي ارتكبتها ستالين.

وكان الأمر ضرورياً بالنسبة^(**) للقادة الإنجليز والأمريكان، ولا سيما بعد مذبحة دريسدن في فبراير / شباط ١٩٤٥ والتي راح ضحيتها نحو ٢٠٠ ألف مدني ممن قتلوا حرقاً بالقنابل الفوسفورية في غضون سويعات، وذلك دون أن يكون هناك أي هدف عسكري من وراء ذلك. حيث كانت القوات الألمانية قد انسحبت من الجبهة الشرقية بأكملها أمام التقدم الساحق والسريع للقوات السوفيتية.

(*) روجيه جارودي، سبق ذكره، ص ٢٠٣.

(**) ن.م، ص ٢٠٤.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، فقد وجدت هي الأخرى فرصة سانحة لإبعاد الأنظار عن واقعة إلقاء الذريتين على هيروشيما ونبجازاكي، مما أسفر عن مصرع ما يزيد عن ٢٠٠ ألف شخص، بالإضافة إلى ١٥٠ ألف جريح.

ويؤكد يورغن غراف حصول الكثير من الوفيات بسبب الأوبئة، بحيث تحولت تلك الوقائع / والأحداث إلى ما يشبه الأساطير. وكانت أسوأ الفترات وأصعب الأوقات العvisية للمعسكرات هي صيف وخريف عام ١٩٤٢. فخلال تلك الأشهر كان وباء التيفوئيد في أوشفيتز، يقتل أوميث أكثر من "٣٠٠" شخص يومياً. وقد أوقع الوباء ضحايا من بين أفراد الأس الألمانية وفي داخل مجمع "أوو شفيتز" سُجلت أغلب الوفيات في "بريكنو" الواقع على بعد ثلاثة كم إلى غرب المعسكر الأساسي والذي كان يستخدم كمعسكر لاحتواء المرض وللعلاج وفي بعض الفترات كان يموت في معسكر "بريكنو" ما يفوق عدد الموتى في كافة المعسكرات الأخرى مجتمعة. وقد جعلت الأسطورة التي شاعت فيما بعد عن "معسكر الموت هذا" - معسكر بريكنو - الذي مات فيه حوالي ٨٠ ألفاً إلى ١٠٠ ألف معتقل، أغلبهم من المرض الميتوس منهم.

قادت المذابح النازية إلى نتيجة، كانت هي المسعى النهائي وراء كل تلك الضجة التي لما تزل مستمرة إلى الآن، ومنحت العبران وطناً لهم في فلسطين، مثلما حصل اعتراف واضح بإسرائيل وبحقها في فلسطين. ونجح العبران بعد تصعيد التراجيديا وتنامي العطف عليهم أن يعترفوا بحقهم في الحياة والعيش بأمان داخل فلسطين، هذه الأرض التي هي حلمهم، وحتى لا تتكرر هذه "المأساة" ثانية في التاريخ البشري المعاصر، نجد اللعنة الصهيونية ما زالت تلاحق الضمير الإنساني، لأنه سكت في البداية ولم يوفر فرصة لشعب الشتات الذي فقد تدريجياً عناصره كشعب، وبدأت المؤسسة الصهيونية تمنحه تلك العناصر شيئاً فشيئاً، وعليه يجب أن يتعامل الضمير

الإنساني والإرادة البشرية مع العبران باعتبارهم فداء ويمثلون قرباناً جماعياً. فإذا كان المسيح من خلال جسده يمثل التضحية التي كفت الجنس البشري عن التضحية والتقدمات فإن الهولوكوست "القربان الجماعي" هو التعويض للمكان العائد، مكانهم المقدس فلسطين. ولم يعد العبران إلى فلسطين إلا بعد تضحيات جسيمة وهذا ما اشتغلت عليه البنية الذهنية / الفكرية / الصهيونية.

لقد وجدت الصهيونية، بالهولوكوست مجالها الذي يجب الإمساك به حتى الأبد والاشتغال على هذه الأسطورة وبالقدرات الإعلامية / الفنية / المتنوعة / من أجل الإبقاء على أسطورة المجزرة حية في الأذهان، وحتى يتمكن اليهود في العالم الاستمرار بالابتزاز والحصول على التعويضات والإبقاء على لعنة اليهود، ملاحقة للألمان، وكم من المبالغ الهائلة قدمت تكفيراً عن الآثار النفسية للمجزرة التي إلى الآن تلاحق الألمان، ولم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم والاستفادة من الوثائق والحقائق العلمية التي تم التوصل إليها لاحقاً - وكأنهم يخشون ردود الفعل الصهيوني. والعزف المستمر على وتر الهولوكوست يفوضهم الإبقاء على الأرض المغتصبة والتي وهبها الإله اليهودي لهم وعلى شعوب العالم مناصرة اليهود والاصطفاف معهم.

لقد دفع النازيون إلى أقصى الحدود الدقة الألمانية الشهيرة، فكل شيء مدون ومُسجل بالضبط، كل شيء على الإطلاق. وبهذا أتيح الاحتفاظ بثلاثة آلاف طن من الوثائق عن الرايخ الثالث، بعض أعمال القتل المتعمد التي أمر بها هتلر شخصياً، قد تأكدت صحتها بعد اختبارها بما لا يقبل الدحض خصوصاً "عملية الأوتونازي" أو قتل المرضى الميئوس منهم وبما أن عملية هذه الضخامة والأهمية، كعملية قتل ملايين الأشخاص في غرف الغاز يجب أن ترافق بالضرورة بجهاز إداري ضخم، فإننا مستعدون للاعتقاد بوجود كم هائل من الوثائق حول الهولوكوست وفي الحقيقة لا نملك ولا وثيقة ألمانية واحدة تتعلق بخطة إبادة واستئصال لليهود. أو تخص غرف الغاز

الخاصة بالقتل المتعمد، عدا تلك التي تتعلق بمبيدات^(*) القمل والحشرات الضارة الناقلة للأمراض والأوبئة.

ولقد تمثل استثمار^(**) إسرائيل للمجزرة في مسارعتها إلى ابتزاز ألمانيا عام ١٩٤٩ والحصول على تعويضات لضحايا النازية اليهود، وقد توجت هذه الجهود بالوصول إلى اتفاقية التعويضات الألمانية عام ١٩٥٢ والتي مكنت إسرائيل من بناء قوتها الاقتصادية والعسكرية في نصف قرن. واضطر الألمان للإذعان للمطالب الإسرائيلية، لمعرفتهم بمدى نفوذ اليهود في الولايات المتحدة وقد أورد مستشار ألمانيا "إيديناور" في مذكراته أنه وافق على دفع التعويضات من أجل حماية ألمانيا من الانتقام. فالألمان كانوا مهتدين بما يعرف بمبدأ "مورغتاو" نسبة إلى وزير المالية الأمريكي / اليهودي، الذي دعا إلى إبقاء ألمانيا دولة زراعية ضعيفة / مجزأة. وحرمانها من أي نوع من الصناعة، وهكذا كانت التعويضات باهظة الثمن عرفت فيما بعد "مسألة قبول ألمانيا بين الأمم، وعلى الرغم من هذه التعويضات فقد استمر التحريض الصهيوني ضد ألمانيا وشعبها وثقافتها حتى يومنا هذا عن طريق التذكير بالمرحلة والمزيد من الابتزاز، فقد أقيمت مراكز تذكارية لضحايا النازية في القدس ونيويورك وأوتا وأمستردام وغيرها من مدن العالم وكان آخرها المركز التذكاري في برلين ويعتبر الألمان هذا المركز استفزازاً لشعورهم وكبرياتهم.

والمعروف بأن ألمانيا خسرت حوالي ستة ملايين شاب في^(***) الحرب العالمية الثانية بين قتيل وجريح ومفقود، إضافة إلى ألوف الملايين الذين ماتوا بفعل الغارات الجوية للحلفاء، ففي درسدن الألمانية وحدها مات ما يزيد على ٣٠٠ ألف ألماني خلال أيام

(*) يورغن غراف، المذبحة تحت المجر، ت: جواد بشارة، سبق ذكره، ص ٤٦.

(**) د. غازي السعودي، المحرقة النازية، سبق ذكره، يوم ٢٠٠٠/٤/٥.

(***) غازي السعودي، سبق ذكره، يوم ٢٠٠٠/٤/٥.

قليلة نتيجة الغارات الجوية بالرغم من أن الحرب كانت قد انتهت عملياً وكانت ألمانيا على وشك الاستسلام ولم هناك داع لهذه المجزرة الانتقامية.

وظلت المؤسسة الصهيونية تغذي العداء ضد ألمانيا، وتجنّد كل وسائل الإعلام الصهيونية والمحكومة بالتعاطف مع اليهود في العالم، واستثمار الرساميل المخصصة من أجل ذلك ففي كتاب أساطير زماننا" صفحة ١٧٧ - ١٧٨ كتب إيلي فيزيل ما يلي:

"على كل يهودي أن يخصص في مكان ما في داخله منطقة للحقد - حقد سوي وصحي ورجولي - إزاء ما جسده ومثله ألمانيا وإزاء ما هو مستمر في ألمانيا، إن التصرف والتحرك خلاف ذلك سيكون بمثابة خيانة للموتى" وفي عام ١٩٨٦ منح إيلي فيزيل جائزة نوبل للسلام وباقتراح ٨٣ نائباً في البرلمان الألماني - بالذات - بوند ستاغ - أن منح هذه الجائزة كما يعتقد البرلمانيون الألمان يشكل تشجيعاً كبيراً لكل من ينخرط بمهمة واندفاع ونشاط لصالح عمليات المصالحة.

إن التزوير والأكاذيب، هي التي صاغت أسطورة الهولو كوست وخصوصاً في مجال الشهادات والمدونات. ولنقرأ ما قاله إيلي فيزيل عن شيء لم يكن موجوداً ولم يشاهد، وسيتضح بعد القراءة الخلط الكبير والتزوير الواضح في الشهادة ولهذا منح جائزة نوبل للسلام ومنحه للجائزة، يعني تكريساً مطلقاً وأبدياً لجريمة ألمانيا التي ستظل تلاحقها حتى الأبد:

"ليس بعيداً عنا^(٥) كانت ألسنة النيران الضخمة تنطلق من أعماق حفرة، كانوا يحرقون شيئاً ما. اقتربت شاحنة من الحفرة وأفرغت حمولتها وكانت الحمولة عبارة عن جثث أطفال صغار وأطفال رضع، نعم لقد شاهدتهم بعيني أطفال يلقون وسط اللهب.. فهل هناك ما يدهش أن يكون النعاس قد هرب من عيني منذ ذلك الوقت؟

(٥) يورغن غراف، المجزرة تحت المهجر، سبق ذكره، ص ٧٨.

إلى هناك إذن سنذهب، فعلى مسافة قليلة منا توجد حفرة أخرى أكبر مخصصة للبالغين..

"يا أبت" قلت له. "إذا كان الأمر كذلك، فلا أريد الانتظار أكثر، سأذهب نحو الأسلاك المكهربة وألقي بنفسي عليها، فهذا أفضل من الاحتضار ساعات داخل اللهب" ويستمر إيلي فيزييل. في توصيف دقيق ومثير لكذبتة، كي ينجح في ترحيلها إلى منطقة الحقيقة واستمر بوصفه قائلاً^(*):

لم يكن أمام رتلنا سوى اجتياز خمس عشرة خطوة، عضضت على شفتي حتى لا يسمع أبي باصطكاك وارتجاف فكّي من الخوف. عشر خطوات ما زالت أمامنا. ثم ثمانية ثم سبع... كنا نسير ببطء كما لو كنا خلف عربة موتى وتتبع طقوس دفننا، ولم يبق سوى أربع خطوات، ثم ثلاث. وهكذا أصبحت الحفرة هنا قريبة منا جداً، الحفرة ولهبها.. جمعت كل ما تبقى لديّ من قوى حتى أقفز خارج الصف وأرمي نفسي على الأسلاك المكهربة. وفي أعماق قلبي ودعت أبي، وودعت الكون بأكمله، و... على الرغم منّي تشكلت كلمات وتقدمت على شكل همسات في شفتي بالعبرية - إيتغادال فيتيكادا هشتيمي راب - ليعلوا اسمه - الرب - ويتقدس .. سينفجر قلبي هلعاً وهأنا أجد نفسي في مواجهة ملك الموت، كلا، على بعد خطوتين من الحفرة أمرونا أن نستدير يساراً وأدخلونا في كوخ خشبي.

لم ينس إيلي فيزييل، وهو في لحظاته الأخيرة / الحرجة، / الحساسة جداً أن يستعين بالإله اليهودي / يهوه ويخاطبه بالعبرية ويردد ما يقوله اليهود عن الرب / الدموي، من أجل أن يعلوا ويتقدس..، وكان للمقدس، قوة أسطورية / وفاعلية معروفة ومختبرة في المحن اليهودية / الفردية / والجمعية، ويتدخل المقدس وينقذ عبده اليهودي

(*) يورغن غراف، سبق ذكره، ص ٧٩.

من إبادة أرضية، ويحقق السماوي / المطلق / المقلد فضلاً / وسريعاً بين الموت / والحياة ولأن الإله اليهودي / يهوه مانح للحياة في شهادة إيلي فيزيل، فإنه يعطيها له، وكان الإله ذو خاصية إنسانية وعطوف / رحيم، وتناسى إيلي فيزيل المجازر التي ارتكبها الإله اليهودي بحق العبران / واليهود، ولكن وكما يبدو شاءت الرغبة اليهودية أن تأخذ الإله يهوه إلى مساحة جديدة، هي مساحة الحياة / والخلاص.

وما زالت إلى الآن^(*) تتكشف كثيراً من حقائق لها صلة وثيقة بالمجازر النازية التي حصلت، ولعل آخر تلك الحقائق، صرح بها أحد الشباب الألمان، وهو من الجماعة النازية الجديدة وفي مقال مهم، نشرته صحيفة نيويورك تايمز. ذكر فيه بأن ما حدث في "أوشفيتز" كان مبالغاً فيه للغاية. وكانت نتيجة الحرب، هي انتصار اليهود فيها، حيث خرجوا راجحين منها، وهم الذين كتبوا مسرحية "أوشفيتز" هذا المعسكر الذي ضم أعداداً كبيراً من اليهود توفر على وسائل للراحة ومنها أحواض خاصة للسباحة.

ويدحض العلم أكاذيب إيلي فيزيل عن الحرق في الحفر كما ادعى "الإبادين"، لأن ذلك يشكل استحالة فيزيائية - عملية، لأن حرق الجثث في حفرة يحتاج على الأقل وبسبب افتقاد الأوكسجين اللازم، إلى وقت لا نهائي أو غير محدد وإلى استخدام وقود قابل للاحتراق.

وهناك سبب آخر يعارض مقولة حرق الجثث في الحفر ألا وهو: وجود طبقة من حقول آبار المياه الجوفية على عمق ٦٠ م من سطح الأرض، قبل تشييد المحارق كانت جثث ضحايا الأوبئة تحرق على أكوام من الحطب التي تربط بها الجثث فوق سطح الأرض لتحرق.

(*) بورغن غراف، الجزرة تحت المجر، سبق ذكره، ص ٦٥.

أسطورة الملايين الستة

هذا الرقم الخيالي، الذي كرسته وسائل الإعلام الصهيونية، صار معقولاً عند الآخر / الغربي، وخصوصاً المتعاطف مع اليهود.

وكان من بين هذا الرقم الخيالي / الأسطوري، ثلاثة ملايين بولوني وستة ملايين سلافي، والذين اتخذ موتهم طابعاً قدسياً، كما لو كانت ضحايا هتلر من اليهود فقط. وأنهم فقط أصحاب حق في "القداسة"، وأصحاب حق في جلد ضمير الدنيا بالسياط، ووسيلة لكسب التأييد المادي والمعنوي، وإذا كانت هذه الجريمة - كما قال شامير - بخطابه في مدريد يوم ١٠/٣١/١٩٩١ سبب صحوة الضمير العالمي لإقامة إسرائيل. فلاشك أن الخطاب العربي الفاشل كان وراء خمود الضمير ذاته أمام إرادة وتشريد الفلسطينيين، واضطهاد الآلاف من الأسرى المصريين حيث أقام الإسرائيليون^(*) بتقليد النازيين، فأنشأوا معسكرات اعتقال جماعية في سيناء عام ١٩٧٠ في كل من نخل / وقصيمة / وأبو زنيمة / وتحت الأشراف المباشر للجيش الإسرائيلي. ورحل إلى هذه المعسكرات مئات من العوائل الفلسطينية بكاملها وحتى الأطفال. وفي شباط عام ١٩٧١ أجبر الصليب الأحمر الدولي إسرائيل على إغلاق هذه المعسكرات بعد أن هدد بالانسحاب من الأراضي المحتلة وفضح إسرائيل عالمياً لمخالفتها لميثاق جنيف وحقوق الإنسان. وحتى الآن لم يقم أحد بتوجيه أي اتهام لجنرالات إسرائيل الذين يتصدرون السلطة فيها حتى اليوم لمسؤوليتهم عن إقامة هذه المعسكرات. والتي لا تختلف كثيراً عن معسكرات الاعتقال النازية العريقة. كما أن الضمير الإنساني لا ينسى جريمة العصر التي نفذتها أمريكا ودول العدوان، بضرب ملجأ العامرية وإبادة المئات من العراقيين وحرقتهم، وهذه الجريمة النكراء، تفوق ما اقترفته النازية ضد اليهود من جرائم

(*) غازي السعودي، سبق ذكره، ٥/٤/٢٠٠٠.

بشعة، وسيأتي اليوم - حتماً - الذي يلاحق الضمير الإنساني أمريكا ودول العدوان عن جريمة ملجأ العامرية، كما سيأتي اليوم الذي تضطر فيه أمريكا ودول العدوان للاعتذار عن إبادة الشعب العراقي إبادة منظمة خلال سنوات الحصار الظالم الذي ابتداءً منذ بداية ١٩٩٠. وتظل أسطورة الملايين الستة، شاغلة للرأي العام العالمي، بحيث ابتدأت مواقف مغايرة، وتمثل هذه المغايرة بالتشكيك في هذا الرقم الأسطوري.

وسنقدم عدداً من الإشارات عن عدد الضحايا اليهود^(*) في معسكر أوشفيتز - بيركناو، حيث كان العدد مدوناً على لوحة موضوعة في مدخل المعسكر والرقم هو أربعة ملايين ووضعت لوحة جديدة تقول أن عدد الضحايا مليون فقط. وتغيرت اللوحة الموضوعة على "غرفة الغاز". في معسكر "داخاو" ووضعت لوحة جديدة أثبتت فيها أن هذه الغرفة لم تستخدم على الإطلاق، كما تغيرت اللوحة على مدخل ساحة "فيلو دورم ديفر" في باريس والتي كانت تقول أن عدد اليهود الذين اعتقلوا هناك يبلغ ٣٠ ألف شخص، وحلت محلها لوحة جديدة تبين عددهم ٨١٦٠ شخصاً.

ولم يكتب جارودي بهذا، بل دون عدداً من الأرقام المختلفة عن ضحايا اليهود في أوشفيتز - بيركنا وحده، من أجل إيقاظ الذاكرة الجمعية في أوروبا والعالم، وتحفيز الإنسان على إثارة الأسئلة حول مهزلة الهولوكوست وأشار:

■ ٩ ملايين، حسبما جاء في فيلم "الليل والضباب" الذي أخرجه "آلان رسينيه عام ١٩٩٥".

■ ٨ ملايين، وفقاً لما ورد في كتاب، وثائق عن تاريخ الحرب، معسكرات الاعتقال.

(*) صحيفة اللوموند، ١٨ تموز، ١٩٩٠، ص ٧ نقلاً عن روجيه جارودي أساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية،

ت: محمد هشام، دار الشروق، عمان ١٩٩٨، ص ٢١١.

■ ٤ ملايين، طبقاً للتقرير السوفيتي الذي اعتبرته محكمة نورمبرغ دليلاً قاطعاً بموجب المادة "٢١" من القانون الأساسي للمحكمة، والتي تنص على أن "... تعتبر الوثائق والتقارير الرسمية الصادرة عن حكومات الحلفاء بمثابة أدلة صحيحة..." ويذكر أن المادة نفسها تنص على أنه "لن تكون المحكمة مطالبة بأدلة على الوقائع الشهيرة، وستعتبرها وقائع ثابتة.

■ ٢ مليون و ٢٥٠ ألف، ذكرها المؤرخ "ليون يولياكوف" في كتابه: القضاء على يهود أوروبا.

وتستمر الإحصاءات التي قدمها روجيه جارودي باعتبارها بعضاً من الوسائل / المعلومات التي لعب اليهود دوراً مهماً في صياغتها من أجل تحويل الأكذوبة إلى حقيقة. وبالتالي إلى أسطورة وهذا ما حصل فعلاً. وينقل جارودي رأياً لمدير معهد التاريخ المعاصر / التابع للهيئة الوطنية للبحث العلمي في باريس: لقد تبنت الذاكرة الجماعية رقم "أربعة ملايين" الذي ساقه تقرير سوفيتي، ولا يزال هذا الرقم مسجلاً على النصب التذكاري لضحايا النازية في أوشفيتز. أما الرقم الموجود في متحف "يادفاشيم" في القدس عن إجمالي الضحايا فهو أعلى بكثير من العدد الحقيقي.

ومع ذلك، فقد عكفت الذاكرة العلمية على العمل الجاد^(*) منذ نهاية الحرب. وتوصلت بعد بحث دقيق ومتأن، إلى أنه لا يمكن التسليم برقم "أربعة ملايين" لأنه لا يستند إلى أساس يُعتد به.

فقد استندت محكمة "نورمبرغ" إلى ما أكده إيجمان من أن سياسة الإبادة أسفرت عن مقتل ستة ملايين يهودي، من بينهم أربعة ملايين في المعسكرات. ولكن لو عدنا إل أحدث المؤلفات وأدق الإحصائيات، مثلما يتجلى في كتاب "راول

(*) صحيفة اللوموند - ٢٣ تموز، ١٩٩٠، تقرأ عن روجيه جارودي، سبق ذكره، ص ٢١٣.

هيلبرج" القضاء على يهود أوروبا" فسوف نلخص إلى أن عدد الضحايا في أوشفيتز يبلغ زهاء المليون، وهو رقم يقبله جميع المتخصصين، إذ أصبح من المتفق عليه في الوقت الراهن فيما بينهم أن عدد الضحايا لا يقل عن ٩٠٠ ألف ولا يزيد عن مليون و ٢٠٠ ألف.

ويشير المفكر روجيه جارودي سؤالاً مهماً للغاية، بعدما استقرأ الإحصائيات الكثيرة / المتفاوتة والمتناقضة ومفاده: أن هذا الاختلاف والتفاوت كله من قبيل خدمة دعايات النازيين الجديد في ألمانيا "أو الحزب اليميني المتطرف في فرنسا" إذ تصبح لديهم حجة قوية تتيح لهم أن يقولوا: إذ كنتم قد كذبتم بخصوص عدد الضحايا اليهود، فما الذي يمنع أن تكونوا قد بالغتم أيضاً في جرائم هتلر؟

إن الرقم الخرافي^(*) أي الستة ملايين يهودي الذين قتلوا وأبيدوا، قد ظهر منذ عام ١٩٤٢ في الدعاية لصهيونية فقد أعلن ناحوم غولدمان، الذي أصبح فيما بعد رئيساً للمؤتمر اليهودي العالمي، في التاسع من أيار عام ١٩٤٢ بأن من الثمانية ملايين يهودي الذين كانوا موجودين إبان حكم هتلر نجح منهم من الحرب مليونان أو ثلاثة ملايين فقط. وبعد ذلك تم بلوغ الرقم المرغوب والمطلوب ولو بصورة تقريبية.

ولم تكن الهجمة النازية إذن مجرد "مذبحة" واسعة النطاق، استهدفت اليهود في المقام الأول، أو استهدفتهم وحدهم، وهو الأمر الذي تحاول بعض الدعايات أن ترغمنا على تصديقه بل كانت بالأحرى كارثة إنسانية، إلا أن ثمة سوابق عديدة لها فقد اتبع "هتلر" في تعامله مع البيض النهج نفسه الذي اتبعه المستعمرون البيض منذ خمسة قرون مع "الملونين" من الهنود الحمر في أمريكا، الذين كان عددهم "٨٠ مليوناً" أريد منهم "٦٠ مليوناً" كما حدث الشيء نفسه مع سكان أفريقيا. والذين نقل منهم

(*) يورغن غراف، المذبحة تحت المجهر، سبق ذكره، ص ١٢٩.

إلى الولايات المتحدة الأمريكية عدد يتراوح بين عشرة ملايين وعشرين مليوناً نسمة. ومن ثم، فقد كان ضرورياً أن تصبح أسطورة / خرافة إبادة اليهود هي الشغل الشاغل للعالم كله، فالحديث عنها باعتبارها "أكبر عملية إبادة جماعية في التاريخ" يعني بالنسبة للاستعماريين^(*) الغربيين نسيان الجرائم التي اقترفوها "مثل إبادة الهنود الحمر في أمريكا واستعباد سكان أفريقيا.

ويبدو لأول وهلة عسيراً على الفهم أن نظاماً ديمقراطياً^(**) يدافع بواسطة الرقابة والإرهاب، عن أسطورة رديئة بقدر رداءة فكرة تعريض الملايين من الأبرياء للغازات، ويبدو للوهلة الأولى، ما هو غير معقول، ما هو قابل للتصديق أكثر بأن هؤلاء الذين يتمسكون وبضراوة أكبر بهذه الخرافة الرهيبة والمريعة، هم بالضبط الذين تعني لهم نهاية أسطورة العصر نهاية الكابوس، أي المقصود بهم اليهود والألمان.

إذ كان الدفاع عن الأسطورة يتم بالوسائل والسبل كافة فذلك لأن انتصار الحقيقة التاريخية يمثل لعدد هائل من الناس الأقوياء جداً، كارثة لا نهائية ولا يمكن إصلاحها أبداً.

"روبير فوريسون" ساهم أكثر من غيره، ربما في فضح هذه الخرافة والكشف عن حقيقتها (ولولاه ما كان تقرير "لوشتير" أن يرى النور) وقد لخص أطروحته بجملة من اثنتين وثمانين كلمة، هذا نصها:

إن غرف الغاز^(***) الهتلرية، ومذبحة اليهود المزعومة تشكلان، الكذبة التاريخية نفسها التي أتاحت وجوداً أكبر لعملية تضليل واحتيال سياسية. مالية المستفيدون

(*) روجيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ت: محمد هشام / الشروق، عمان، ص ٢٠٤، ١٩٩٨.

(**) يورغن غراف، سبق ذكره، ص ١٤٢.

(***) يورغن غراف، سبق ذكره، ص ١٤٣.

الأساسيون منها هم دولة إسرائيل والصهيونية العالمية، وضحاياها الرئيسيون هم الشعب الألماني وليس زعماءه الحاليين، والشعب الفلسطيني بكامله وأخيراً الأجيال اليهودية الشابة التي سجنها دين الهولوكوست أكثر فأكثر في غيتو سيكلوجية / ومعنوية.

وبدون^(*) التبرعات والتعويضات الألمانية التي بدأت بالتدفق خلال السنوات العشر الأولى لوجود دولة إسرائيل، ما كان بإمكان هذه الدولة أن يكون لديها نصف بناها التحتية الحالية، فكل القطارات في إسرائيل ألمانية والبواخر ألمانية، والكهرباء وجزء كبير من الصناعة، هذا عدا النفقات المحولة والمقدمة للناجين من الموت.

ويشكل الهولوكوست بالنسبة لإسرائيل وسيلة مضمونة لضمان الدعم والتأييد غير المشروط من جانب الولايات المتحدة الأمريكية. إن الفلسطينيين هم الذين يدفعون ثمن هذه السياسة. فهم أول وأهم ضحايا خرافة الهولوكوست والكثير منهم يعيش منذ عشرات السنين في مخيمات بائسة للاجئين إثر اختلاق الصهاينة لأسطورة الهولوكوست وخرافة غرف الغاز.

إن نظرية الجنسية الدينية^(**) التي تطبقها إسرائيل، لا تختلف في شيء عن فكرة الجنسية العرقية الألمانية النازية، لا من حيث الطبيعة، ولا من النتائج. والتمييز الذي مارسه النازيون مبني على مفهوم للقانون العام:

دولة آرية يسكنها الآريون وحدهم. فالألمانيون غير الآريين سواء كانوا يهوداً أم غير يهود، مورش التمييز ضدهم، لا لكونهم يهوداً بل لمجرد كونهم ليسوا آريين، لقد

(*) يورغ نغراف، سبق ذكره، ص ١٤٤.

(**) د. محمد أبو سعد، الهجرة وعنصرية القوانين الإسرائيلية، ضمن كتاب، الهجرة اليهودية والمشروع الصهيوني، سلسلة الندوات رقم (٤)، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، ص ٩١،

أصدر النظام الفاشي الألماني قوانين لتخدم سياسته العنصرية، بناء دولة آرية للعنصر الآري وكذلك النظام الإسرائيلي، دولة يهودية "للعنصر اليهودي" إن انتقال المعتقدات الدينية الجامدة في الديانة اليهودية وتوظيفها في خدمة العقيدة السياسية للصهيونية، تعطي تفسيراً في تحويل هذه الديانة مفهوماً عدائياً / توسعياً تحقق إسرائيل أهدافها المرسومة وبعنف. كما وأنها تستند في ذلك على شوفينية وعنصرية القوانين / الاجتماع / والتشريعات غير العادلة لحقوق الإنسان، والتي شرعتها في خطفها لمواطنين الدول الأخرى من اليهود.

لقد فقد "الهولوكوست" شيئاً من أسطوريته / والهالة التي رسمتها حوله الحركة الصهيونية في العالم، ولعل أخطر ما أثير حوله، تلك الأعمال الفنية الروائية / السينمائية، لأنها ذات حركة أسرع، وذات وظيفة اتصالية أقوى وأكثر تأثيراً بين أوساط الناس، لأن الكتب الوثائقية لن تجد مساحتها الأوسع وإنما تكون محدودة بعض الشيء، بينما السينما / التلفزيون / الروايات، فهي ذات علاقة مباشرة وبالإمكان الاشتغال عليها من أجل أن تحوز عوامل تأثير أخرى، ذات فاعلية كبيرة.

ولقد تحطم تابو الهولوكوست، وخصوصاً عدد الضحايا / الخيالي الأسطوري، وتعددت مصادر الاختراق لهذا التابو ومنها كتاب الدكتور "ريجارد هاروود" - هل أبيد ستة ملايين يهودي بالفعل - ويريجارد باحث متخصص في دراسات وشؤون وقضايا الحرب العالمية الثانية^(*) وتولت طبعه ونشره دار الأبحاث التاريخية بريجموند، وازدان بعدد من الصور والخرائط والوثائق والإحصائيات التي أثبتت، بالقرائن الراسخة والمعلومات الأكيدة والوقائع الدامغة، ما استخلصه وقرره من نتائج جديدة ومدهشة

(*) د. حازم طالب مشتاق، خرافة إبادة ستة ملايين يهودي في الحرب العالمية الثانية، مجلة آفاق غربية، العدد (١)،

عن هذا الموضوع، والتي انطلت على جمهور كبير من العقلاء حيناً طويلاً من الدهر، وكشفت، في سابقة علمية نادرة وفريدة، عن زيفها وبطلانها وخبثها وخلطها.



شكل (٢٩): موسى في سيناء - تخطيط تخيلي للفنان ثامر عبدالله

ووجه روبرت ليتل سؤالاً في محاولة لترميم الذات المتعصبة بعد ما طفح تعصبها ضد الفلسطينيين وامتحن روبرت ليتل ذاكرته وصدقه أمام المتلقي وذلك عبر سؤال له صلة بالتصفيات العرقية ضد مسلمي البوسنة، حيث شهد العالم مجزرة إبادة بعد أكثر من خمسين عاماً على الإبادة النازية. لكن شمعون بيريز استطاع الإفلات من الجواب، ليدخل مداراً يقود إلى اعتبار ما حصل في البوسنة من إبادة إلى كونها حرب أهلية فحسب.

ويذهب روبرت ليتل أبعد من الأول، حتى يوهم القارئ باهتماماته الأساسية / الإنسانية، وليس غير ذلك ما هو يعنيه بالنسبة للعلاقات بين الأعراق والشعوب: فيرد

عليه بيريز متسائلاً: لا يمكننا المراوغة فيما إذا كان الأمر يمثل مصنعاً للموت أم لا؟
يتحمس بيريز في إجابته ليقول:

ما حدث في يوغسلافيا فقط يحدث للمرة الأولى^(*) وهذه الإجابة والتأكيدات
الأخرى عليها، فإنه يدرك ما هو القصد، كي يدرك التزاع العرقي وسط بلد واحد
عرف الكثير من التناقضات.

ويبدو بأن ذاكرة شمعون بيريز مضطربة / ومشوشة وقصيرة المدى بالمفهوم
المجازي، لأنه ينسى مثلاً جرائم الصهيونية بحق الفلسطينيين / في دير ياسين - مثلاً -
وإذ^(**) كانت شناعة الخطيئة تقاس بمقدار خطيئة الخاطيء ضد النور الذي أنعم الله به
عليه، فإن عذر اليهود في طرد العرب من وطنهم ويوتهم سنة ١٩٤٨ هو أقل من عذر
نبوخذ نصر وتيتوس وهارديان ومحاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال وغيرها من البلاد
في مختلف عصور التاريخ. في سنة ١٩٤٨ كان اليهود يعرفون، من خبرتهم الشخصية،
ماذا يفعلون ومأساة اليهود الكبرى إن الدرس الذي تعلموه من مواجهتهم للنازيين لم
يدفعهم إلى شجب الأعمال الشريرة التي ارتكبتها النازيون بحقهم، وإنما إلى تقليد هذه
الأفعال. ويذكر تويني أمثلة من جرائم الصهيونية، ويذكر دير ياسين وسيظل يذكرها:
إن الجريمة الشريرة التي ارتكبتها اليهود الصهاينة ضد العرب الفلسطينيين، والتي يمكن
أن تقارن بالجرائم^(***) التي ارتكبتها النازيون بحق اليهود، هي ذبح الرجال والنساء
والأطفال في دير ياسين في اليوم التاسع من شهر نيسان ١٩٤٨. هذه الجريمة التي
عجلت بفرار أعداد كبيرة من السكان العرب من المناطق القريبة من القوات المسلحة

(*) روبرت ليتل، مستقبل إسرائيل، حوار مطول مع شمعون بيريز، ت: محمد نجار، تقليم، ناجح المعموري، الدار
الأهلية، عمان، ٢٠٠٠، ص ٣١.

(**) د. محمد توفيق حسني، أرنولد تويني والصهيونية، آفاق عربية، عدد (١)، ١٩٧٦، ص ٢٨.

(***) محمد توفيق حسين، أرنولد لويني والصهيونية، مجلة آفاق عربية، العدد ١، ١٩٧٦، ص ٢٨.

اليهودية وبما تبع ذلك من الطرد المتعمد للسكان العرب من المناطق التي احتلتها القوات اليهودية المسلحة بين يوم (١٥) أيار ١٩٤٨ ونهاية ذلك العام.

إن مسؤولية الدماء العربية التي أريقَت في دير ياسين تقع على عاتق منظمة الأركان الإرهابية، بينما تقع مسؤولية طرد السكان العرب بقوة السلاح، بعد الخامس عشر من أيار ١٩٤٨ على عاتق إسرائيل.

ففي يوم هادئ / مشرق^(*) نحر رجال العصابات وبالدم البارد، بدون استفزاز على الإطلاق، نحر النعاج ٢٥٤ رجلاً، وامرأة، وطفلاً وألقوهم في بئر هناك حتى أنهم كانوا يقرون بطون الحوامل. هكذا وصف مراسلو الصحف الأجنبية هذا الهجوم. وأبقوا على عدد من البنات الحرائر، بقصد جهنمي... وضعوهن على سيارات شحن مكشوفة. وطوّفوا بهن في أحياء القدس اليهودية، حيث تهاقت اليهود يصقون في وجوههن البريئة، كما فعل أسلافهم بالسيد المسيح وهو يقاد حاملاً صليبه في طريق الجلجلة، ويكيلون لهن الشتائم. ويتصايحون مبتهجين. كما فعل العائدون في القلم من قتل "جليات الجبار" بمقلاع غلام راع، والنساء "يغنين... ويرقصن، بدفوف. وفرح.

وعقدت "أرغون" في اليوم نفسه مؤتمراً صحفياً نعتت فيه مجزرة دير ياسين بأنها "انتصار حربي، باهر في معركة فتح فلسطين وشرق الأردن" وقال قائد المعركة "لولا انتصارنا في دير ياسين، لما قامت دولة إسرائيل فقد انتقلنا من الدفاع إلى الهجوم.

وإذا قيل في الدفاع عن إسرائيل أن هذه الجرائم الوحشية / البشعة التي ارتكبتها اليهود عام ١٩٤٨ هي أقل عدداً وشناعة من المذابح التي قام بها النازيون بين ١٩٣٣ و١٩٤٥، فيجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار بأن اليهود كانوا أكثر من الألمان خبرة وتجربة بالآلام والعذاب التي كانوا يترلوها بالعرب. وإذ نرفض حجة الألمان في الدفاع

(*) عبدالله النجار ود. كمال الحاج، الصهيونية بين تاريخين، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢، ص ١٤٥.

عن أنفسهم بأنهم لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون فإننا نرفض حجة اليهود ومؤيديهم في الدفاع عن أنفسهم إلا أنهم كانوا يعرفون، في تجربتهم، ماذا يفعلون حين كانوا يعذبون العرب.

وأضاف توينبي قائلاً: لقد سقط النازيون، أخلاقياً باضطهادهم اليهود، ولكن الصهيونية أحط من النازيين سقوطاً لأنهم عندما ارتكبوا جريمتهم بحق الشعب العربي في فلسطين كانوا يعرفون من خبرتهم الشخصية ماذا يفعلون؟.. إن السقوط الأخلاقي للنازيين هو أقل مأساوية من سقوط اليهود الصهاينة ففي غداة اضطهاد اليهود في أوروبا، حيث كان اليهود ضحايا أشنع الفضائح التي عانوها في تاريخهم أو التي عانتها أية جماعة من البشر، كان رد فعل اليهود عن هذه التجربة التي مروا بها أن أصبحوا مضطهدين هم بدورهم ولأول مرة منذ سنة ١٣٥ م، وذلك عند أول فرصة أتاحت لهم لأن يوقعوا بناس من البشر، لم يؤذوا اليهود أبداً وإنما لأن الظروف شاءت أن يكونوا أضعف منهم، بعضاً من العذاب والاضطهاد.

لقد تجلّى التكتيك اليهودي / البربري بشعاً بأجلى صورة في^(*) الأحداث والجرائم التي اقترفتها العصابات الصهيونية بعد التقسيم عام ١٩٤٨ فيما سمي باسم "عملية الذعر" وتتلخص في القيام بهجمات مركزة يقتل خلالها سكان قرى معينة كاملة بأجمعهم من شيوخ وأطفال ونساء وبصورة همجية إرهاباً لبقية القرى كي يهرب سكانها منها إلى الدول العربية المجاورة. وهو ما أدى إلى تشريد مليون عربي أصبحوا لاجئين. كان اليهود يذبجون سكان تلك القرى، ثم تتولى محطة إذاعة العصابات التفاخر بذبح سكانها ذبحاً جماعياً، محذرة أبناء القرى: أن عليهم أن يدركوا حين يرون دبابات إسرائيل وجندها في الطريق إليهم بأن المصير نفسه ينتظر قراهم.

(*) فلسطين والغزو التركي الجديد، السلسلة السياسية، رقم ٥، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، ١٩٦٤، ص ٩١.

وقال الكاتب الأمريكي "لورنس غريز وولد" الذي زار فلسطين^(*) تلك الأيام، بأن هذه المجازر لم تكن عفوية، ولكنها كانت مبيتة ومدروسة. وقد نشرت جريدة "هامشكيف" الناطقة بلسان عصابة شتيرن بأن تلك الخطط كانت قد عرضت على القيادة العسكرية / اليهودية، واقرنت بموافقتها.

وفي سنة ١٩٥٠، وقف أحد "الأرغونيين" في الكنيسة وقال بأن دافيد بن غوريون نفسه هو الذي اقترح خلق "عملية الذعر".

وتجلت "عملية الذعر" بفصولها الفاجعة في دير ياسين. وكانت الفظائع التي تلت دير ياسين تتطلب شيئاً عن الخيال. فقد جمع هؤلاء المجرمون خمساً وعشرين امرأة حاملاً ووضعوهن في صف طويل ثم أطلقوا عليهن النار. ثم إنهم بقروا بطونهن بالمدي والحراب وأخرجوا الأجنة منها نصف إخراج وقطع الأطفال إرباً إرباً أمام أعين آبائهم الذين ما زالوا بعد على قيد الحياة. وخصي الأطفال الصغار قبل أن يقتلوهم. وانتزعت الحلبي والخواتم من أجساد القتلى، وبرت أصابع الضحايا الذين وجد الغادرون عسراً في انتزاع خواتمهم.

وفي دير ياسين تكررت مشاهد أريحا من سفر يشوع: وقتلوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة. من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف "ويقال بأن الذين نجوا من الموت من أبناء دير ياسين يقلون عن الثلاثين شخصاً.

وطلب جساك دور ينييه^(**) مندوب الصليب الحمر الدولي الإذن من الوكالة اليهودية للدخول إلى دير ياسين. لكن الوكالة لم تسمح له بذلك إلا بعد مرور ثمان وعشرين ساعة، لتتيح للأرغونيين فرصة إخفاء معالم الجريمة. ولقد تمكن المندوب

(*) نفس المصدر، ص ٩٢.

(**) نفس المصدر، ص ٩٢.

البلجيكي من إحصاء مئتي جثة أخرجت من إحدى الآبار العتيقة. ووجد بأن كثيراً منها كانت غير كاملة. ووجد - مندوب الصليب الأحمر - فتاة عربية في السادسة من عمرها وهي لما نزل على قيد الحياة، تحت ركاب من الأجساد فحملها معه إلى المستشفى وقال: كان ذلك، بكل بساطة، شيئاً فظيماً.

ولم تكن مجزرة دير ياسين غير بداية واستهلال. ففي اليوم الرابع عشر من نيسان تكرر المشهد في قرية نصر الدين وبعد نصر الدين هاجمت عصابات الهاغانا عدداً من القرى القائمة على ضفاف نهر الأردن. وفي هذا الهجوم قتل مئات من العرب وألقي بعدد كبير من الضحايا في مياه النهر والمستنقعات وجرح ما يزيد على ألف ومئتين. ومُثل بالضحايا، رجالاً ونساءً وأطفالاً، قبل الموت وبعده. وقطعت رؤوس عدد من الرجال بسبب ما أبدوه من مقاومة. ولا تزال قلة قليلة تمثل الناجين من تلك المذابح تحمل آثارها المشؤومة: أيدياً مقطوعة، وأرجلاً مبتورة. أما الناجون بأنفسهم والذين كان لا يزال في مقدورهم أن يسيروا على أقدامهم و يحسنوا السابحة فقد فروا إلى سوريا. بعد ذلك شن^(*) اليهود هجمات جديدة على قرى عربية أخرى.

ففي الزيتون، جُمع أهل القرية كلهم في المسجد، ثم نسف بالديناميت على رؤوس من فيه.

وفي بيت "دراس" طبق اليهود الخطة نفسها التي نفوذها في دير ياسين، والتي تقضي باختيار عدد من النساء الحوامل وبقر بطونهن بالمدي والحراب. هذه النماذج قليلة، لما جرى من فظائع خلال "عملية الذعر" والتي أدت إلى تشريد مليون عربي ولم تشر لها وسائل الإعلام الغربي، وإنما ذكرها الكاتب الأمريكي المنصف "لورنس غريز وولد" في كتابه "هذا سيف الله" This Saword Tor Allah.

(*) ن.م، ص ٩٣.

إن المنطق الصهيوني قد خلط عمدًا^(*) بين الحقيقة القومية السائدة حالياً في أمم ودول وثقافات العالم الثالث الآسيوي / الأفريقي / الأمريكي اللاتيني، الساعية إلى الاستقلال، والمتطلعة إلى التقدم والتطور والارتقاء، وبين الظاهرة الإمبريالية التي لازمت ورافقت وصحبت تلك الحقيقة في قارة واحدة، هي القارة الأوروبية وفي مرحلة معينة هي مرحلة الثورة الصناعية و الطبقة البرجوازية. فعمم الخاص تعميماً مطلقاً وجرّد الأحكام من حدود الإنسان / والزمان / والمكان. ثم إنه حرم شيئاً على جميع الأمم وأباحه لنفسه فقط. ونهى عن شيء ولم يتورع عن فعله، متوهماً أن العالم لا يمكن أن يتهم "ضحايا الإبادة" بأنهم قد انقلبوا، بين عشية وضحاياها وفي فترة زمنية قصيرة نسبياً إلى جلادين غلاظ الأكباد، قساة القلوب، يوقعون بسواهم ما سبق أن أوقع بهم في يوم من الأيام. من ظلم فادح وضرر بالغ وأدى عظيم.

إن الطائفة اليهودية / الأوروبية / الأمريكية / الروسية، الصغيرة^(**) الحجم والقليلة العدد نسبياً، قد خرجت من الحرب العالمية الثانية وكأنها القوة الظافرة الأساسية والجبهة المنتصرة الوحيدة في العالم. فتسابق الجميع على الرغم من خلاف تم إلى خطب ودها وكسب رضاها. ونالت من العطف الواسع والدعم الكثيف ما لم تنله طائفة أخرى في التاريخ قديماً وحديثاً. فأمكنها أن تحقق الحلم الكبير الذي راودها طويلاً في الحصول على وطن قومي خاص. واغتصبت التراب الفلسطيني، وأسست الكيان الصهيوني.

(*) د. حازم طالب مشتاق، خرافة إبادة ستة ملايين يهودي في الحرب العالمية الثانية، آفاق عربية، العدد (١)،

١٩٧٦، ص ٣٢.

(**) د. حازم طالب مشتاق، سبق ذكره، ص ٣٤.

مسؤولية الدول الغربية في المأساة الفلسطينية:

أكد توينبي بأن الدول الغربية تتحمل مسؤولية كاملة في حصول المأساة الفلسطينية وحصراً الدول الكبرى المنتصرة في الحربين الأولى / والثانية. فلولا أن اليهود كانوا جزءاً من هذا العالم الغربي الذي بسط سلطانه على العالم لما استطاعوا أن يقهروا عرب فلسطين ويستمر توينبي قائلاً: إن قوة اليهود مستمدة من قوة الغرب، فأحدى الخصائص المميزة للحضارة الغربية في العصر الحديث أنها بسطت ظلها على البشرية جمعاء، بحيث أصبح يهود الشتات في الغرب، بالرغم من عدم تحررهم الكامل، وبالرغم من قلق وضعهم، قوة فعالة في العالم بعد أن أصبحوا قوة سياسية فعالة في عدد من الدول الغربية القوية. ونتيجة لهذا أصبحت المشكلة اليهودية غير المحلولة، وهي مشكلة داخلية خاصة بالعالم الغربي، مليئة بالمخاطر للأمم والشعوب غير الغربية وغير اليهودية، الذين لا علاقة لهم البتة بهذه المشكلة الغربية. ولم يوجد على سطح الكرة الأرضية في فترة قيام الصهاينة بارتكاب أبشع الجرائم بحق الشعب الفلسطيني، دولة على شيء من القوة والقدرة تقول: لا، للمتصرين الغربيين في حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ عندما قرروا أن يعوضوا اليهود الغربيين عن الجرائم التي ارتكبتها بحقهم دولة محاربة مهزومة. ولكن ليس على حساب المجرم / المذنب، وإنما على حساب شعب برئ غير غربي، ولم يكن بمستطاع البشرية، وهي عاجزة عن مقاومة هذا الظلم، إلا أن تقف متعجبة من محاولة الإنسان الغربي أن يحصل على كفارة خطيئة غربية بفرض عقوبة مناسبة على غرباء لا دخل لهم في هذه الخطيئة.

ويوجز توينبي^(*) العوامل التي شاركت في وقوع كارثة فلسطين بقوله: شاركت ثلاثة عوامل في وقوع كارثة فلسطين:

(*) د. محمد توفيق حسني، سبق ذكره، ص ٢٩.

أولها: صعود الطائفة اليهودية في الولايات المتحدة إلى درجة من القوة الاقتصادية / السياسية في حلبة السياسة الأمريكية / الداخلية ويُسعى إلى الاستعانة بها، ويتجنب إغضابها أو تنفيرها، كل من الحزبين المتنافسين، وذلك لتدفق اليهود من روسيا سنة ١٨٨١ وما بعدها. وثاني هذه العوامل الحاسمة القتل الجماعي لليهود في أوروبا فيما بين سنوات ١٩٣٣ و ١٩٤٥ على يد الألمان المسيحيين وثالثها اندلاع الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية. ولم يكن لهذه العوامل الثلاثة على انفراد أية علاقة ذاتية بالخلاف بين اليهود والعرب في فلسطين. ولكن كان لهذه العوامل مجتمعة، تأثير حاسم وغير متوقع / وعادل على مسيرة هذا الفصل من المأساة ولم تكن ثمة أية عدالة، أو مصلحة، في إرغام عرب فلسطين على تعويض اليهود الأوربيين عن جرائم ارتكبتها بحقهم مسيحيون أوروبيون. وكان العدل يقضي أن تعوض الدول الغربية يهود أوروبا عن الجرائم التي ألحقها بهم شعب أوروبي.

لم تكن المجازر الألمانية هي الأولى في التاريخ، فلقد سبقتها الكثير في تاريخ اليهود خلال وجودهم في بلدان عديدة ولم يرافقها هذا الزخم من الاهتمام والمبالغة وقد أشار العالم المعروف أرنولد توينبي إلى آخر مقاومات اليهود قد انهارت أمام الرومان عام ١٣٠م ولم تبق لهم دولة ولم يجتمعوا في وطن.

وعاشوا أقليات منتشرة في أقاليم الشرق الأدنى والإمبراطورية الرومانية التي فسحت لهم مجال العيش وتركهم يمارسون عبادتهم بحرية. وفي ظل الدولة الإسلامية وجدوا الأمن والحرية والمعاملة الحسنة ولكن وضعهم في أقطار أوروبا الغربية، المعاصرة للإسلام في العصور التي تسمى بالعصور الوسطى، كان يزداد سوءاً ويلاحقهم الاضطهاد جيلاً بعد جيل. وهنا ينشأ تاريخ جديد لليهود، هو تاريخ علاقتهم مع الغرب، حيث نشأت المشكلة اليهودية، وتعمقت، وحلت بفاجعة وسوف نرى من متابعة مسيرة هذه المشكلة كما يعرفها توينبي ويحلل أسبابها ونتائجها، أنها مشكلة

أنتجتها الظروف السياسية / الاجتماعية والاقتصادية / والإيدولوجية في الغرب.
وعقدها إصرار اليهود وعنادهم على الاحتفاظ بهويتهم القومية والدينية والتميزة.

منذُ بدايات تشكل الدول والإمارات في أوروبا الغربية بعد انهيار
الإمبراطورية الرومانية، صار المثل الأعلى الذي يطمح إليه المسيحيون الغربيون هو
تجانس الجماعة في إقليم معين، وتظهر العلاقة الوطيدة بين نزعة العداء لليهود، المعروفة
في الغرب باسم اللاسامية، بين هذا المثل الأعلى في تجانس السكان، واضحة في تاريخ
الأقلية اليهودية في شبه جزيرة "إبيريا" التي تضم إسبانيا والبرتغال. وظهر عداء
المسيحيين لليهود في "أبيريا" في القوانين التي أصدروها ضدهم ... ولم يطل اضطهاد
اليهود ومخنتهم إذ حررهم الفتح الإسلامي لشبه جزيرة "إبيريا" عام ٧١١م من
عبوديتهم وظلوا يتمتعون باستقلالهم الذاتي، طائفة لها حق ممارسة شعائرها الدينية
والاحتكام إلى شرائعها المأثورة طوال أكثر من خمسة قرون ٧١١م - ١٢١٢م. ولم
يأت تساهل المسلمين مع اليهود بسبب عدم وجود عوامل للتوتر والاحتكاك بين
الفريقين. وإنما نتيجة للضمانات الصريحة الواردة في القرآن والشريعة الإسلامية لأهل
الكتاب عموماً، ومنهم اليهود.

وبعد استيلاء المسيحيين على الأندلس، وقع اليهود تحت محنة الاضطهاد مجدداً،
واضطروا في الفترة الواقعة بين عامي ١٣٩١ و ١٤٩٧ إلى الخروج من شبه جزيرة
"أبيريا" منفيين / مشردين أو اعتناق الدين المسيحي الكاثوليكي.

ونجد في إعادة طرح السؤال ضرورة ملحّة، لماذا هذا الاهتمام بالمجزرة /
والاضطهاد الذي تعرض له اليهود خلال الحرب العالمية الثانية؟ مع كونهم عرفوا أنواعاً

(*) د. محمد توفيق حسين، أرنولد توينبي والصهيونية، سبق ذكره، ص ٢٥.

من الاضطهاد / والتعذيب الجسدي / والنفسي. إننا نعتقد بعدد من الأسباب الموجبة
وتقترح القراءة ما يأتي:

كان اليهود طائفة لا يمكن الاستغناء عنها في المجالات^(*) الحيوية لعمل
البرجوازية الغربية، لأنها تمثل عمالة رخيصة وطبعة / تستجيب للأوامر الموجهة لها.
وأتاح لها الوضع الاقتصادي المتردي في الغرب إلى التغلغل فيه، وخصوصاً بعد الغزو
الروماني، وقدموا للبرجوازية المتضعضة ما يلزمها من الخبر والمهارة المتراكمة اقتصادياً
/ وتجارياً.

وكان اليهود يشعرون بكرهية المسيحيين لهم، لأنهم كانوا يقدمون لهم المبالغ
الطائلة لتغطية الكثير من المفروضات عليهم. وقد أدى هذا النجاح الذي حققه اليهود،
بطبقة من^(**) المسيحيين إلى منافسة اليهود وذلك بالسعي الدؤوب لتعلم المهارات
الأساسية التي كان اليهود يعرفونها في المجالين الاقتصادي / والتجاري، وابتدأ الصراع
والمنافسة ومحاوله المسيحيين لطرد اليهود وهذا ما حصل في إنكلترا في القرن الثالث
عشر، وإسبانيا في القرن الخامس عشر وبولندا والمجر في القرن العشرين.

تحقق التحرر الاجتماعي بعد تحررهم الاقتصادي^(***) نتيجة للثورات الدينية /
والإيدلوجية، حيث حطم الإصلاح البروتستانتي جبهة الكنيسة الكاثوليكية الموحدة
والمعادية لليهود. وقد أفاد اليهود من روح التسامح واللامبالاة الدينية. وعندما حل
عام ١٩١٤ تحرر اليهود رسمياً في جميع مجالات النشاط، وذلك يمثل حقيقة مقررة في
أوروبا.

(*) ن.م، نفس المعطيات، ص ٢٦.

(**) ن.م، ص ٢٦.

(***) د. محمد توفيق حسين. سبق ذكره، ص ٢٦.

خيبة الأمل في حل المشكلة اليهودية في الغرب عن طريق الامتزاج الطوعي بين اليهود والمسيحيين^(*). ولقد هاجمت الروح القومية الحديثة فكرة الانتشار اليهودي في الغرب وعلى جبهتين في وقت واحد، فإن الروح القومية الغربية بجاذبيتها من ناحية، وضغطها في الوقت نفسه من ناحية أخرى، قد دفعت باليهود الغربيين إلى اختراع قومية تقتصر عليهم وحدهم، ويمكن وصفها بأنها شكل جماعي للاقتباس من الغرب.

الحلم بجمع اليهود في الشتات في دولة قومية واحدة وتبلورت المفاهيم الصهيونية.

صعود الرأسمالية اليهودية وقيادة، وهيمنتها على الاقتصاد الغربي، وتحكمها بطبيعة النظام السياسي / الاجتماعي / الاقتصادي وتحولت إلى قوة ضاغطة.

وقد استعارت الحركة الصهيونية^(**) رداء الحركة القومية الأوروبية وذلك في محاولة لكسب عطف تلك الحركة وتأييدها في مسعاها للحصول على أرض تجتمع فوقها (الأمة اليهودية المبعثرة) في الشتات، ومن أجل أن تنتزع لنفسها فضيلة التعبير عن أمان شمولية مفترضة لمجموعة بشرية معينة، بهدف اكتساب شرعية تمثيلها لتلك المجموعة ولكسب احترام العالم.

إن نمو الرأسمال وتراكم الخبرات المتنوعة، أوجب التفكير بوطن يستثمر فيه اليهود الرساميل والخبرات الطويلة وكانت الحرب العالمية فرصتهم الذهبية لترويج المجزرة من أجل إثارة عطف الغرب وضرورة التفكير بمكان يأويهم ويحميهم من الإبادة المستمرة والمتكررة.

(*) ن.م، ص ٢٧.

(**) بديعة أمين، الحركة الصهيونية أهي حركة قومية تعبر عن إيديولوجية البرجوازية اليهودية، مجلة آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٥، ص ٦٤.

أثارت المذابح ردود فعل متصاعدة وخصوصاً في أوروبا، لذا صار لزاماً عليها إنقاذ ضميرها الإنساني من التأنيب، وهذا ما سعت إليه الصهيونية من وراء الهولوكوست.

وكان تعاطف الغرب مع الحركة الصهيونية، تعاطفاً مبنياً على عناصر تم التخطيط لها ومنها افتعال الهولوكوست وتضخم المجازر من أجل جمع اليهود في وطن، ليتحول - لاحقاً - إلى قاعدة استعمارية في منطقة تتمتع بحيوية كبيرة جداً بالنسبة للمصالح الغربية المتنوعة، العسكرية / والاقتصادية.

٥. خرافة الملايين الستة

كل شخص ينشأ ويتربى في مجتمع غربي، يتعرض بلا انقطاع منذ^(*) نعومة أظفاره وبدايات طفولته الطرية، لتذكيره بموضوع إبادة اليهود. وفي مثل هذه الأحوال فإن أقل شك يصدر بشأن هذا الموضوع يبدو للوهلة الأولى عبثياً كعبثية الطعن في حقيقة وقوع الحرب العالمية الثانية، وحتى من يلتقي ببراكين ودلائل حول الغش والتضليل بهذا الصدد، فإنه يبدو في أغلب الأحيان غير قادر، بعد هذه السنوات الطويلة من غسل الدماغ، أن يغير ويعدل طريقته في التفكير والتحليل ورؤية الحقائق. بالطبع هناك ناس يعرفون أو على الأقل يظنون ويشمون من بعيد بأنه كذب علينا وخذعنا لكنهم لا يهتمون على الإطلاق بقول ذلك علناً وبصوت عالٍ لأنهم يعرفون الثمن الذي سيدفعونه للديمقراطية الليبرالية لمثل هذه المخالفات للمألوف السائد والمفروض، يتعرض باستمرار وبلا انقطاع لهجمات من جانب وسائل الإعلام. الترهيب والضغط على عوائلهم وتدمير وجودهم وحياتهم العملية والمهنية وفي بعض البلدان الحكم عليهم بدفع غرامات ثقيلة وأحكام بالسجن.

(*) بورغن غراف، سبق ذكره، ص ١٤٧.

إن انتصار الحقيقة التاريخية تمثل بالنسبة لقادة^(*) دول إسرائيل وزعماء المنظمات الصهيونية، كارثة حقيقية.

بالنسبة للغالبية الساحقة من اليهود، أي أكثر من 99% من الذين يؤمنون ويصدقون أن يعتقدون بالهولوكست لأهم قد كذبَ عليهم وخدعوا كما هو الحال مع غير اليهود، فإن الكشف عن هذه الكذبة أو الخدعة والغش، بعد مرور مفعول الصدمة الأولى، سيكون بمثابة خلاص لهم وإنقاذ: ففكرة إبادة ستة ملايين من أبناء دينهم لا شيء إلا لكونهم يهوداً والخوف من أن تتكرر نفس المأساة، لا يمكن إلا أن يكون لليهود كابوس دائم لا ينتهي، يقلق راحتهم. وكما كتب روبير فوريسون أن خرافة الهولوكوست تحبس اليهود في غيتو غير مرئي، يعزلهم عن بقية الإنسانية.

إن سقوط جدران هذا الغيتو، سيكون بالنسبة للشعب اليهودي، بمجموعه بركة ونعمة ربانية.

لقد حصل استغلال للمجازر بشكل تجاري صارخ، واستغفلت الجماهير واحتقرت العقول ونبذت القيم^(**) العلمية / والأخلاقية، من أجل الحصول على فوائد سياسية واقتصادية معينة. ولكن الناس، عرفت بأن ذلك هو اختلاق وأكاذيب واكتشف الإنسان بأنها لم تلق أذناً صاغية أو شعبية واسعة إلا بفضل الدعايات التي راجت بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى نطاق واسع، وإن وجدت قبلها وأثناءها همساً خفيفاً خافتاً، وجهداً ضعيفاً متقطعاً. ولا يوجد شيء جديد في الدعايات المتبادلة والحروب النفسية بين الأطراف المتقاتلة. ولكن القياس - مع الفارق - في الفظائع والجرائم، ومنها ما وقع فعلاً ومنها ما افتعل حقاً. ففي الحرب العالمية الأولى، لم يتورع

(*) يوغرن غراف، ص 148.

(**) د. حازم طالب مشتاق، خرافة إبادة ستة ملايين يهودي، سبق ذكره، ص 33.

الحلفاء عن اتهام الجنود الألمان بأنهم يأكلون الأطفال البلجيكين^(*).. وقد اعترفت بريطانيا بأنها اختلقت ذلك في نطاق الدعاية العسكرية والحرب النفسية واعتذرت رسمياً عن الإهانات الجارحة التي أنزلتها بالشرف القومي الألماني...

ولخص الباحث "ريجارد هاروود" الأسباب التي دفعت بالصهيونية لاختلاق هذه الأسطورة: إن الغاية الأساسية من الخرافة الصهيونية المذكورة، هي محاربة الحقيقة القومية، وكتبها، أو نزعها تماماً في الواقع التاريخي والضمير الإنساني أو تحويلها إلى قشرة خارجية.

إن تحديد عدد ضحايا الإبادة النازية من اليهود بالرقم^(**) ستة ملايين، قد نشأ من توفيق غامض بين تقديرات مختلفة لا يستند أي منها إلى دليل ثابت أو برهان قاطع. ولعل الظاهرة البارزة التي أجمعت عليها واتفقت فيها تلك الصور المتعددة والأشكال المتباينة والصيغ المتناقضة للخرافة المذكورة، هي افتقارها كلها إلى الوثائق الأصلية والأوامر الرسمية والنصوص المدونة والمحفوظة، وقد عمد بعض المؤلفين إلى تقليل الرقم وتخفيض العدد للظهور بمظهر الدقة والصحة والأمانة والموضوعية. فزعم الفيلسوف البريطاني المعروف "برتراند راسل" في كتابه "لعنة الصليب المعقوف" بأن عدداً من اليهود لا يقل عن الخمسة ملايين. قد لاقى حتفه في المعتقلات الألمانية^(***) ومن الواضح أنه قد أقنع نفسه بالوقوف موقفاً متوسطاً بين المصادر التي مالت إلى الرقم ستة ملايين وتلك التي مالت إلى الرقم أربعة ملايين. ولكنه عاد فاعترف في كتابه المذكور الذي ترجم في حينه فوراً إلى اللغة العربية، وعلى نطاق واسع بواسطة

(*) د. حازم طالب مشتاق، خرافة إبادة ستة ملايين يهودي، سبق ذكره، ص ٣٤.

(**) د. حازم طالب مشتاق، سبق ذكره، ص ٣٨.

(***) د. حازم طالب مشتاق، سبق ذكره، ص ٣٨.

مكاتب الاستعلامات ونوادي إخوان الحرية، بأن العدد الحقيقي لا يمكن أن يعرف على الإطلاق وإذا كان الوضع كما وصفه وذكره، فمن الصعب بل من المتعذر على الإنسان أن يفهم كيف ولماذا قرر أن العدد لا يقل عن الخمسة ملايين، إلا إذا كان اختياره كيفياً وعشوائياً. وقد مالت اللجنة اليهودية المشتركة للتوزيع إلى الرقم ٥,٠١٢,٠٠٠ ولكن "الخبير" اليهودي "رايتلنجر" قد اختار الرقم الجديد المبتكر "للمفقودين" من اليهود البالغ ٤,١٩٢,٢٠٠٠ وأضاف مستدركاً بأن ثلثهم تقريباً قد توفي لأسباب طبيعية.

وبذلك انخفض عدد اليهود الذين (أبيدوا) عمداً إلى ٢,٧٩٦,٠٠٠ إلا أن الدكتور "برلز فايك" المندوب عن^(*) نيويورك إلى المؤتمر اليهودي العالمي الذي عقد في جنيف عام ١٩٤٨، لم يجد حرجاً في تصريحه للمراسلين، بأن "سبعة ملايين يهودي قد ضحوا بأرواحهم على مذبح الهجمة اللاسامية، ودفعوا الثمن فادحاً من أجل إسقاط القومية الاشتراكية والفاشية. وقد ارتفع الرقم المذكور إلى ثمانية ملايين، بل وحتى تسعة ملايين. وهي أرقام لا تعقل، ومن المحال أن تصدق، ولا يمكن أن تقنع أحداً، ولا تثير إلا عاصفة مدوية ونوبة حادة من الضحك عند الإنسان الواعي.

إن أول اتهام للألمان في الحرب العالمية الثانية، قد جاء على يد اليهودي البولوني "روفائيل ليمن" وزعم بأن النازيين قد قضوا القضاء^(**) المبرم على ملايين اليهود، وربما وصل عدد هؤلاء إلى ستة ملايين ولكن تلك العبارة، لا يمكن أن تكون مثاراً للشك والاستغراب، لأن الاتهام المذكور الذي سبق في ١٩٤٣، قد انطوى أيضاً على الزعم بان التنفيذ الفعلي للقتل الجماعي لم يبدأ إلا في صيف ١٩٤٢ ولو كانت الإبادة

(*) د. حازم طالب مشتاق، سبق ذكره، ص ٣٨.

(**) د. حازم طالب مشتاق، سبق ذكره، ص ٣٨.

قد نفذت بتلك النسبة والدرجة، لكانت وجوباً قد أتت على يهود العالم عن آخرهم
فرداً فرداً والتهمتهم عن بكرة أبيهم بحلول عام ١٩٤٥.

وزعم اليهودي الألماني "كورت كيرشتاين" والمعادي للحزب النازي والرايخ
الثالث، أنه استطاع التسلل إلى الحرس الهتلري والبوليس السياسي، وهي رواية مسلية
حقاً ولكنها للأسف الشديد ومن سوء الحظ اليهودي، لا تحمل على محمل الجد، ولا
أن تكتسب التاريخ المعنى الصحيح والدقيق. وأفاد المحقق الفرنسي "ريموند كارتيه" في
بيان مكتوب وموقع، بأنه يعلم تماماً أن عدداً من التلاء في المعسكرات الألمانية، لا يقل
عن أربعين مليوناً، قد قتل اختناقاً في غرف الغاز. ولكنه عاد فقام بتخفيض هذا الرقم.

٦. روايات اليهود المملقة عن الهولوكوست

إن تدوين روايات اليهود المملقة عن الهولوكوست ضرورة جداً بالنسبة للقارئ، حتى يستعين بها من أجل صورة جديدة ومختلفة عن المجازر، وسأعتمد على كتاب الأستاذ يورغن غراف، باعتباره مصدراً ومرجعاً، احتوى على العديد من الروايات والمعلومات الدقيقة والتي لم تتوفر عليها مصادر كثيرة.

وستوفر فرصة واسعة للقارئ من أجل أن يتعرف على الزيف والطرق الخبيثة التي استعانت بها الصهيونية من أجل صياغة الأسطورة الخاصة بالهولوكوست وتكريسها.

"خلال ساعات طويلة كانت أفران حرق الجثث تشتعل هذه الليلة وينشق من المداخن لهيب يرتقالي باتجاه السماء السوداء الخالكة".

"روث إيفا سشلوس"

"نزل مهندس أعمال الموت برفقة مساعده إيكارد إلى عمق إحدى هذه الحفر حيث حدد خطين أو شقين وفسحة ٢٥ إلى ٣٠ سم بينهما ومدّها باتجاه طول، وتوجب الحفر في هذا الموقع المحدد باتباع تحديدات المهندس حيث يجب حفر أخدود مائل من وسط الحفرة إلى الجانبين المتضادين وذلك لسيلان دهون الجثث في لحظة

احتراقها. وهناك حوضان موضوعان في طرفي الخندقين - الساقيتين - الصغيرتين لاستقبال الدهون"

"فيليب موللر"

"علمت فيما بعد من أحد الشهود أن الأرض لم تتوقف عن الاهتزاز خلال شهور وشهور وأنه بين الحين والآخر ينابيع من الدم كانت تتدفق من الأرض

"ماريك فولسكي"

"وضع الخشب تحت مشبك الحديد في المحرقة على شكل أكوام صغيرة تشبه نيران المخيمات السياحية. دقت أو حانت لحظة الحقيقة وقد حملوا إليه علبه كبريت انحنى السيد فلوس وأشعل رسمياً أول كومة حطب تحت مجموعة من الجثث المعدة للحرق وبينما بدأت الأخشاب بالاشتعال. التحق بخطواته الغربية بمجموعة الضباط الذين كانوا ينتظرون على بعد خطوات.

بدأ اللهب ، الذي صار يتصاعد ويتأجج أكثر فأكثر يتلذذ بالجثث بفتور في بادئ المر، ومن ثم بهمة عالية ومستمرة كلهيب مصباح اللحيم، الكل يجبس أنفاسه، الألمان قلقون ونافذو الصبر، السجناء مصدومون ومضطربون، مرعوبون ومرهوبون، هربوت فلوس وحده الذي يبدو مرتخياً ومنشراحاً ويردد مع نفسه وبهيئة الواثق من نفسه "تاديلوس، تاديلوس" اهتاج اللهب فجأة وانطلق عالياً محرراً غيوماً من الدخان الكثيف وارتفع شخير عميق وانبعجت وجوه الموتى من الألم وتنفس اللحم. كان لهذا المشهد طابعاً جحيمياً، حتى أن رجال الأس أس ظلوا برهة من الزمن مذهولين وهم يتمتعون بهذا اللغز ويستمتعون بهذه الأعجوبة. أما "هربوت فلوس" فقد كان متألقاً لأن هذه المحرقة هي أجمل شيء في حياته.

كان يتوجب الاحتفاء بمثل هذه المناسبة، لذا فقد جلبت الطاومات التي وضعت أمام المحرقة والتي غطيت بقناني الكحول من النيذ والجمعة.

انتهى النهار باعثاً لهيب المحرقة المحترق إلى السماء المضطربة والمشتعلة في طرف السهل حيث اختفت الشمس وسط حريق كبير. وبإشارة من "لالكا" فتحت القناني وبدأ حفل خارق وكبير وأول نخب شرب وقدم باسم الفوهرر. عاد سائقو الحفارات إلى آلائهم وعندما رفع رجال الأس أس كؤوسهم وهم يصرخون تحركت الحفارات بدورها رافعة فجأة أذرعها الطويلة نحو السماء بتحية هتلرية مهتزة ومرتبجة. كانت كأنها إشارة رفع الرجال عشر مرات أذرعهم وهم يرددون في كل مرة التحية الهتلرية والمكائن المتحفزة والنشطة ترد عليهم التحية والهواء يرتج ويهتز هو بدوره من صرخات التمجيد للفوهرر، واستمر الحفل إلى أن انتهت وخفت المحرقة. وبعد الأنخاب جاء دور الأغاني، المتوحشة والفضة القدرة والقاسية، غناء الحقد وغناء الجنون والهيجان، غناء في تمجيد ألمانيا الخالدة".

"جون فرانسوا ستينر"

"نعمل ليلاً ونهاراً. ويروي ناس شاركوا في حرق وتذويب الجثث. إن تلك الأفراد تشبه براكين هائلة وعملاقة والتي تشوي حرارتها الرهيبة وجوه العمال ويبلغ ارتفاع اللهب الخارج من (٨) إلى (١٠) أمتار.. أصبحت الحرارة خانقة في نهاية تموز عندما نفتح الحفر، كان البخار يغلي كما لو كان خارجاً من قدور معدنية هائلة تغلي. إن الروائح الكريهة والعفونة القاتلة وحرارة الأفران تقتل الناس الضعفاء والمنهكين حيث ينهارون أمواتاً وهم يسحبون جثث الأموات إليهم ويسقطون على شبكات الشوايات الحديدية في المحارق".

"فاسيلي غروسمان"

"ثبلل الجثث وترش بالبتريين ويكلف ذلك نفقات وتكاليف هائلة والنتائج غير مرضية فالجثث الذكورية لا تريد أن تحترق وفي كل مرة تظهر فيها طائرة في الجو يتوقف العمل وتغطي الجثث بالأوراق والنباتات لحمايتها وإخفائها عن مراقبة طلعات تجسس واستطلاع الحلفاء الجوية. كان ذلك استعراضاً بشعاً ووحشياً الأثر، بشاعة وفظاعة ووحشية أكثر مما شاهدته عين بشرية لحد الآن. عندما تذوب وتحرق جثث النساء الحوامل تنفجر بطونهن ويمكننا مشاهدة أو رؤية الأجنة تشتعل داخل أجساد أمهاتهم.

القتلة يقفون قرب الرماد وبقايا الأموات وتعتر بهم ضحكات هستيرية تمزج أجسامهم. وجوههم متألقة بفرحة شيطانية حقاً يتبادلون الأنخاب في أماكن القتل. والإعدامات الجماعية ويشربون - الكحول - ماء الحياة والمشروبات الروحية المنتقاة. يأكلون ويلهون كالصبيان ويرخون أجسامهم ويتدفأون بالنار"

"بانكل فيرنيك"

"كان يجب على كل الضحايا أن يترعوا عنهم ملابسهم وأحذيتهم ومن ثم يُجمعون حيث يتم دفع الضحايا وعلى رأسهم الأطفال والنساء عراة، إلى غرف الموت.. وما أن تزدحم الغرف بمؤلاء الضحايا، تغلق خلفهم غلقاً محكماً لا يسمح بترسيب أي شيء، لا الصوت، ولا الهواء. ثم يُفتح عليهم البخار السام".

وثائق نورمبرغ"

"تضم طاحونة الرجال مساحة يبلغ حجمها سبعة كلم. إن هذه المنطقة محمية بأسلاك حديد مكهربة إلى جانب كافة أنواع الاستعدادات والإجراءات الأمنية. لا يحق لأي شخص الاقتراب من هذه المنطقة... أما القطارات المحملة باليهود فتدخل عن

طريق نفق من مواقع تحت الأرض هي مكان الإعدام.. يجردون من كل شيء تُرتب بالأشياء بعناية وتعد أو تحصى وتسجل ثم توضع في خدمة العرق الأرقى بالطبع. وللتهرب من هذا العمل المعقد والطويل، فإن أغلب الشحنات والقوافل البشرية من اليهود كانت تسلم عارية في الأصل. يُقاد اليهود العراة إلى صالات ضخمة يمكن لهذه الصالات أن تضم عدة آلاف من الأشخاص في كل مرة ولا يوجد فيها نوافذ ومصنوعة من المعادن وأرضيتها مواراة أو قابلة للإخفاء.

إن أرضية هذه الصالات تترل وفوقها آلاف اليهود إلى حوض يقع تحتها مليء بالماء بطريقة لا يبدو فيها الناس الواقفون على الرقعة المعدنية التي تغلف الأرضية، وعندما تغمر المياه كل اليهود الواقفين إلى مستوى أحواضهم أو تحت السرة يُمرر تيار كهربائي ذو تردد عال في الماء وبعد ثوان قليلة يُقتل جميع اليهود بالآلاف مرة واحدة. بعد ذلك ترتفع الأرض المعدنية من الماء إلى ما فوق الحوض. إن جثث الضحايا ما زالت تتحرك فيها الروح هناك خط كهربائي آخر موصول بالرقعة المعدنية الأرضية تحولها إلى نعش حارق، حيث يتم تسخينها حتى الاحمرار لكي تتحول كافة الجثث إلى رماد وبعدها تأتي رافعة عملاقة لترفع هذا النعش. الفرن لسحب الرماد، بينما تسحب منافذ معمل ضخمة الدخان المتصاعد، جراء إفراغ الرماد، وبذلك تكون المهمة قد تمت ونفذت على أكمل وجه".

"ستيفان زيند"

"الناس متسارعون أحدهم يسابق الآخر، يلاحقهم رجال الأس أس، يدخلون راكضين على الباب المفتوح "للحمام" الذي يمكن أن يضم "٥٠٠" شخص في كل مرة كانت أرضية الحمام معدنية وكانت الحنفيات تتدلى من السقف وعندما يمتلئ الحمام يرسل رجال الأس أس تياراً كهربائياً ذا تردد عال يبلغ (٥) آلاف واط خلال

الرقعة الأرضية المعدنية وفي نفس الوقت تبرز الفوهات المعلقة - الحنفيات - الماء، وبعد صرخة مختصرة تنتهي عملية الإعدام. ثم يشخص طبيب عسكري في الأس أس، ويتثبت من موت الضحايا من خلال النافذة البيضاوية الصغيرة، ثم تُفتح الباب الثانية ويأتي فريق الجثث، ليدخل الحمام ويرفع الأموات بسرعة، وزمن جديد يتوفر مكان لخمسمائة يهودي آخرين".

"سيمون فيسوتال"

"إن جدران القطار الذي يضم اليهود مغطاة بطبقة ثخينة من المسحوق الأبيض، من الكلس الحي، والجميع يعرف ماذا سيحدث لو صبَّ الماء على الكلس الحي. فاللحم البشري الذي يوجد نصفه على اتصال بالكلس ينشف بسرعة ويحترق الموجودون داخل القطار يذوبون ببطء حتى العظم وعندما يأتي الغسق تكون العربات ومجموعها (٤٥) - كما أحصيتها بنفسي - مليئة والقطار بحمولته المعذبة يهتز ويصرح كما لو كان مسحوراً".

"روبير فوريسون"

٧. رصاصة الرحمة نحو الهولوكوست

إن استحالة التقنية - التكنيكية - التي تشكلها ادعاءات^(*) تعريض المعتقلين بصورة جماعية وبأعداد هائلة للغازات السامة ومن ثم حرق جثثهم/ قد جذبت انتباه باحثين من أمثال فيلدر وفوريسون منذ سنوات السبعينات، ولكن من أجل تسديد الضربة القاضية، لهذه الأسطورة، احتاج الأمر إلى متخصص في غرف الغاز وتم استدعاء المهندس "لوشتير"^(**) الذي غادر إلى بولونيا مع زوجته سنة ١٩٨٨ ومصور سينمائي "يورغن ومان" ومصمم ورسام تخطيطي "هوارد ميللر" والمترجم البولوني "تجودار رودولف" لإخضاع غرف الغاز في معسكرات الاعتقال في "أوشفيتز".

وأوشفيتز بيركنو وماجدانيك للفحص والاختبار العلمي الدقيق وأثر ذلك حرر المهندس تقريراً علمياً عن نتائج فحوصاته وكانت الاستنتاجات الختامية لوشتير لا تقبل الدحض أو الجدل وهي: لم يكن هناك، في أي من المعتقلات الثلاثة المذكورة غرف غاز مخصصة لاستئصال وإبادة كائنات إنسانية أو بشرية وغرف الغاز الوحيدة التي

(*) يورغن غراف، سبق ذكره، ص ٦٠.

(**) مهندس أمريكي، متخصص تنفيذ حكم الإعدام بغرف الغاز.

كانت موجودة هي غرف مخصصة لعمليات التطهير والتقييم من أجل مكافحة الحشرات والجراثيم، وكان عرض "لوشنير" يستند إلى ثلاث نقاط هي:

١. إن غرف الغاز^(*) لم تُبنَ أو تشيّد على أساس أنها غرف غاز، وما كان بإمكانها أن تعمل كونها مشيدة خصيصاً لإبادة واستئصال البشر، فهي ليست محكمة العزل وإلا لكان الغاز السام يتسرب بلا انقطاع إلى خارجها، ولكان من الجنون الخالص بناء غرف غاز إلى جانب أو تحت محارق الجثث مباشرة. وهناك فقدان أو غياب لآلية - ميكانيزم - لبث ونشر الغاز، إضافة إلى فقدان التجهيزات والمعدات اللازمة، التي تتيح التسخين المسبق للغرف. وأخيراً فإن تجهيزات التهوية التي عُثر عليها ليست كافية إطلاقاً. فتهوية غرفة الغاز في "كريما" على سبيل المثال لم تكن مؤمنة سوى من خلال كوة صغيرة. مما كان سيؤدي حتماً وعلى الفور إلى انتشار الغاز داخل مستشفى الأس أس - قوى الأمن والمخابرات والمليشيا الحزبية - والموجودة في مواجهة "غرفة الغاز" المذكورة ولكانت قد قتلت الأطباء والمرضى، وبمكنتنا أن نفترض بقاء كمية كافية من زيكلون ب، في غرف الغاز لمدة أسبوع بعد كل عملية إعدام جماعية بالتسميم بالغازات داخل تلك الغرف، قادرة على أن ترسل على العالم الآخر كل شخص يدخل إليها. ولما كان بوسع الأقنعة الواقية أن توفر الحماية الكافية في هذه الحالة. فإن غرف الغاز كانت في الحقيقة عنابر لحفظ الجثث وقد حُول "كريما ١" فيما بعد إلى ملجأ مضاد للقصف الجوي.

(*) يورغن غراف، سبق ذكره، ص ٦٦.

٢. ما كان بوسع محارق الجثث^(*) أن تأتي على جزء من الضحايا المفترضين، وإن حُفر حرق الجثث ليست سوى محض خيال.

٣. اختار "لوشتير" وفريقه عينات من الجرن سواء من غرف الغاز أو من "غرف التطهير أو التعقيم" وتصدر الإشارة إلى أن السيناتور يبقى في الجرن أو على الحجر لعدة قرون. والحال أن العينات التي أخذت من غرفة التطهير أو التعقيم ما زالت تحتوي على بقايا من السيناتور بعد مرور (٤٤) عاماً وبنسبة مرتفعة جداً، بينما كانت آثار السيناتور التي أخذت من غرفة ضئيلة جداً، بل وحتى يمكن القول أنها شبه معدومة. وإذا كانت هناك بعض الرواسب المتبقية القليلة في بعض العينات، فذلك عائد، حسب تفسير "لوشتير" إلى أن هذه الأماكن جرى تطهيرها، أو تعقيمها مرة أو عدة مرات يجب القول أن "جيرمار رودولف" يقدم في كتاب حديث له عن غرف الغاز توضيحاً آخر "إن الذي حصل هو ظاهرة كيميائية / طبيعية. وهكذا عثرنا في مزرعة بافاريا على ترسبات من السيناتور أكثر وأكبر أهمية مما عثرنا عليه في ما سمي بـ "غرف الغاز" في معتقل "بيركنو".

وجددت محاولة اختبار السيناتور مرتين، الأولى من قبل معهد الفحوصات المخبرية الطبي / الشرعي في كراكوف، وبطلب من متحف "أوشفيتز"، والثانية على يد الكيميائي الألماني "جيرمار رودولف" وقد توصل هذا الأخير في دراسته الدقيقة والتفصيلية جداً إلى نفس الاستنتاجات التي وصل إليها "لوشتير" الذي انتقده في بعض النقاط الثانوية.

عثر الكيميائيون البولونيون في العينات المأخوذة من غرف الغاز على بقايا وترسبات من السيناتور أكثر مما عثر الدكتور "روت" وحتى يتفادوا الاعتراضات

(*) يورغن غراف، سبق ذكره، ص ٦٨.

الكثيرة الإحراج، أخذوا عينات أخرى للمقارنة من غرف التطهير والتعقيم، والتي سبق لجدرانها أن بيّضت أو كلّست ولكن مع ذلك ما زال هناك بقايا من السيانون أكبر كمية من تلك التي عثر عليها في عينات "غرف الغاز".

إن مندوبي الصليب الأحمر الدولي لم يجدوا دليلاً على الإطلاق، في المعتقلات الموجودة في المناطق التي احتلها المحور في أوروبا، يثبت وجود سياسية رسمية / منظمة ومقصودة راقية إلى إبادة الجاليات اليهودية، لا تخطيطاً ولا تنفيذاً بل إن التقرير لا يحتوي على إشارة واحدة إلى "غرف الغاز" في جميع صفحاته البالغة (١,٦٠٠) صفحة، إلا أنه اعترف بأن الجاليات اليهودية - مثلها مثل غيرها من الجاليات - قد ذقت الويلات وعانت الشدائد، ولكن صمته المطبق وسكوته المفعم بالمعاني والدلالات، عن سياسية أو عملية إبادة مخططة، قد فضح خرافة الستة ملايين إلى الأبد، واثبت زيفها وبطلانها للعالم أجمع. ومن هنا امتنع الصليب الأحمر الدولي، تماماً - كما فعل الفاتيكان - عن المساهمة في ترويج مارجوه الآخرون من خرافات عن الضحايا الستة ملايين وغرف الغاز وأفران الحرق ومعسكرات الاعتقال وخطط وأعمال الإبادة.

وفي دراسة لم تنشر كان^(*) "والتر لوفتل" رئيس الغرفة الفيدرالية / الاتحادية / النمساوية / للمهندسين والخبراء القضائيين / المحلفين قد قال باستحالة التقنية للإدعاء بالتعرض الجماعي للغازات في "أوشفيتسر" ونتيجة لهذا الموقف اضطر أو أرغم على تقديم الاستقالة من منصبه وأصبح عرضة لملاحقة قانونية ومحاكمة حنائية بتهمة انتهاك، قانون بهدف إلى منع ظهور أو إعادة بروز الحزب القومي / الاشتراكي.

(*) يورن عراف، سبق ذكره، ص ٧٠.

لقد أصدر "راسينييه" مجلدين هما^(*) الحقيقة عن محاكمة أينمان، في عام ١٩٦٢ ومأساة اليهود الأوروبيين عام ١٩٦٤. وفي هذين المجلدين، وبالأرقام الأكيدة والإحصائيات الدقيقة، كشف الأباطيل الرائجة والأكاذيب الصارخة عن إبادة اليهود في الحرب العالمية الثانية، وفي المجلد الثاني،/ عكف على دراسة خرافة الإبادة، دراسة تحليلية / نقدية / مقارنة في ضوء ما ترتب عليها وارتبط بها من ابتزاز سياسي / واحتيال مالي / وإرهاب فكري / وخداع أخلاقي. مارسه الكيان الصهيوني، والقوى التي ركعت له، وآمنت به، عجلاً ذهبياً، وصنماً جديداً / ومعبوداً مقدساً وقد كشف الحقيقة التاريخية التي حجبتها الدعايات الحاقدة / المعادية العمياء. وأعاد ما أصاب اليهود في الحرب العالمية الثانية إلى واقعه الصحيح وحجمه الحقيقي، باعتباره فضلاً واحداً فقط من مأساة أوسع وأشمل، أصابت العديد من الأمم والشعوب والقوميات بما في ذلك الألمان أنفسهم، والعرب أيضاً، فضلاً عن اليابانيين والسوفيت مثلاً.

وأثبت^(**) "راسينييه" بالإحصائيات الدقيقة، المعقدة والمفصلة والمتقاطعة، بأن عدد الضحايا اليهود في الحرب العالمية الثانية، لا يمكن أن يكون قد تجاوز ١,٢٠٠,٠٠٠ في الحد الأقصى، وأن العدد الحقيقي للضحايا قد يكون في الواقع أقل من ذلك بكثير. ولاحظ أن المركز العالمي للتوثيق اليهودي المعاصر قد وافق في النهاية على الرقم المذكور، لكنه أشار إلى الرقم الأصغر البالغ (٨٩٦,٨٩٢) الذي قرره الإحصائي اليهودي (راوول هيلبرغ) في دراسة عن هذا الموضوع. وأفاد بأن الكيان الصهيوني، على الرغم من تلك الأرقام والإحصائيات، لا يزال يوالي إصراره المحموم

(*) د. حارم طالب مشتقا، سبق ذكره، ص ٤٤.

(**) د. حارم طالب مشتقا، سبق ذكره، ص ٤٤.

للحصول على تعويضات عن (ستة ملايين) ضحية مزعومة، ويقبض بالفعل مبلغاً مقدار (٥٠٠٠) مارك ألماني اتحادي / غربي عن الضحية الواحدة.

واقنع "راسينييه" بأن الكيان الصهيوني، قد أصر على خرافة الستة ملايين مدفوعاً بأسباب مادية / ومالية / واقتصادية خالصة، لا تتعلق الاعتبارات الأخلاقية / أو العاطفية / أو الإنسانية أو حتى الدينية، في قليل أو كثير، وأفاد في كتابه باللغة الفرنسية "مأساة اليهود الأوربيين" ص ٣١ و ٣٩ ما يلي بالحرف الواحد.

... إنها ببساطة مسألة إيجاد المبررات الكافية، المتمثلة في الإعداد المناسبة من الجثث، للأموال الطائلة التي دأبت ألمانيا على دفعها سنوياً منذ انتهاء الحرب للكيان الصهيوني. وهي تعويضات عن مظالم لم يكن في وسع ألمانيا أن تنزلها بالكيان المذكور، لا أخلاقياً / ولا قانونياً، لأنه لم يكن قد ظهر بعد ولا كان قد وجد حينذاك، في وقت ارتكاب تلك المظالم المزعومة، ومن هنا فهي لا تعدو أن تكون مسألة مادية حقيرة خالصة..

وربما كان من واجبي أن أستميحك عذراً، وأن أستعيد إلى الذاكرة، هنا، أن الكيان الصهيوني لم يتأسس إلا في شهر أيار سنة ١٩٤٨. وأن اليهود، كانوا رعايا جميع الدول ما عدا الكيان الصهيوني، لكي تكشف أبعاد الاحتيال الرهيب الذي يفوق الوصف ويصيب العقل بالذهول. فمن جهة، تدفع ألمانيا إلى الكيان الصهيوني تعويضاً إجمالياً عن ستة ملايين ضحية يهودية مزعومة. ومن جهة أخرى، تدفع تعويضات فردية إلى ضحايا ألمانيا هتلرية من اليهود الناحين والمشردين في جميع البلدان ما عدا الكيان الصهيوني، أو إلى ورثتهم الشرعيين وكما أن أربعة أخماس تلك الملايين الستة / المزعومة من الضحايا اليهود، كانت ولا تزال على قيد الحياة تماماً بعد انتهاء الحرب.

ومعنى ذلك أن ألمانيا، قد دفعت ولا تزال تدفع التعويضات مرتين للغالبية العظمى من تلك الملايين الستة من اليهود.

وستحاول الدراسة التركيز على مجال التعويض وكيفية تحويله وخصوصاً موضوعة الأسنان والطريقة الصهيونية الناجحة التي جعلت منها "ميزانية" والأسنان، موضوع بسيط، لكنه ضمن حملة التركيز الإعلامي، صار موضوعاً إنسانياً مثيراً للغاية وقدرة الأدب الفائقة على تصويره بطريقة بشعة جداً وهذا ما سنحاوله الآن.

استعان اليهود بما ساعدهم على رسم صورة خاصة للمحارق وأضافوا لها شيئاً مهماً من قدراتهم على الوصف واستعطاف الناس، وتحشيد التأيد بواسطة إثارة مشاعر التضامن التي لم يكن أساسها صحيحاً. ومن تلك الوسائل ما ابتدعته الذهنية الصهيونية. في إشارتها لأنواع من القهر والتعذيب الإنساني، قبل الموت / وبعده. مما كتبه الأب جورج هينوك في كتابه "مدخل الحيوانات" عن غرف الغاز في معتقل "بوكونفالد"

"جثث^(*) مكدسة بصور أوضاع غريبة. الأسنان، والأحناك والفكوم مهشمة، لاقتلاع أطقم الأسنان الصناعية وأسنان الذهب. هذا عدا الحديث عن التفتيش المخجل الممارس على الجثث للتأكد من عدم إخفاء أية جواهر أو حلي يمكن أن تزيد من كنز النازيين المسوخين أو الوحوش والفاقدين لإنسانيتهم".

ويصف "مولر" في كتابه ثلاث سنوات في غرفة الغاز في أوشفيتز^(**).

(*) يورع عراف، سبق ذكره، ص ٩٥.

(**) يورع عراف، سبق ذكره، ص ٥٧.

"كان هناك أمامي أولاً جسد امرأة وكان عليّ أولاً حيث يكون واحداً من الأسئلة في الحوارات التي أجراها الروائي والصحافي الأمريكي "روبرت ليتل" الموجهة إلى شمعون بيريز. وحتماً لم يكن هذا السؤال عفويةً مثل غيره من الأسئلة، بل كان معداً بذكاء وقصدية. وحتى هناك اختيار وتحديد لموقع هذا السؤال بين مجموع الأسئلة، التي صاغت الحوارات المطولة. وكان شمعون بيريز يؤكد على "ميزانية الأسنان" من جديد ويشير إلى بقائها حية ويقظة في الذاكرة الصهيونية.

س: إن جزءاً من مخزون النازيين من الذهب والنقود، سرق من الضحايا اليهود في المحرقة، بما فيه ذهب الأسنان الاصطناعية لليهود الذين قتلوا في معسكرات الموت. وقد وجد ذلك طريقه إلى بنوك سويسرا إبان الحرب العالمية الثانية. وهذا أيضاً - يبدو واضحاً من أن السويسريين لعبوا دور الوسيط بالنسبة للألمان في تحويلهم لبعض أموال النازيين إلى إسبانيا والبرتغال وأمريكا اللاتينية. وتقدر الجماعات اليهودية اليوم أن البنوك السويسرية تحتوي على ما قيمته سبعة بلايين دولار، تعود إلى ورثة ضحايا المحرقة. وبعد البحث في سجلاتهم لعدة شهور، ادعت البنوك السويسرية بأن الرقم الحقيقي كان جزءاً يسيراً، إلا أنه بعد إلحاحات عدة، عرضت الحكومة والبنوك السويسرية تقديم تعويضات لضحايا النازية.

ج: شمعون بيريز:

أعتقد بأنه يجب على السويسريين أن يكونوا منفتحين تماماً فيما يتعلق بهذه المسألة. ولا يمكن أن يكون هناك أدنى شك حول إعادتهم لآخر بنس يعود للشعب اليهودي مجتمعاً أو للأفراد اليهود.

س: روبرت ليتل: هل تعتقد بأنهم سيقومون بذلك؟

ج: شمعون بيريز: نعم، إذا ما كان هناك ضغط كافٍ.

تكشف موضوعة الأسنان / التي هي أكذوبة أخرى من أكاذيب الهولوكوست
طريقة اشتغال الصهيونية على موضوع ما، والتركيز عليه في الصحافة والإذاعة
والأدب، حتى يتحول من وهم إلى حقيقة، والتأكيد عليه يبدأ من الفرد اليهودي -
لأنه يعتقد بأنه الذي سيستفيد من التعويض، لأنه حفيد لأحد الضحايا - وحتى
الحركات الدينية / والسياسية والدولة ومن أجل إظهار الاضطهاد مستمراً وبقياً، لأن
الماطلة في التعويض يعني ممارسة لعنف آخر، أنه عنف رمزي، يفعل فعله في النفس
اليهودية، ولذلك مجال آخر، لأنه يستدعي التعويض أيضاً.



شكل (٣٠): يشوع بن نون حليفة موسى كما تخيله الفنان ثامر عبدالله

٨. أكذوبة الهولوكوست

يوثق يورغن غراف معلوماته الدقيقة بالدلائل والاثباتات التي لا يتسرب الشك إليها ولا يطعن بها، معتمداً على وثائق المخابرات البريطانية في الإنصات والتقاط الاتصالات السلكية واللاسلكية بين قيادة الأس أس في برلين ومعسكرات الاعتقال وفك رموزها وكذلك الوفيات المعلنة عبر التقارير اليومية والتي كانت بسبب المرض والبعض منها أشار إلى أنها حصلت نتيجة تنفيذ عمليات إعدام بالرصاص أو الشنق. أما عن الرّش بالغازات، فلم ترد كلمة واحدة بهذا الخصوص ولا حتى في "أوشفيتز".

وأكد البروفيسور "هينسلي" الأستاذ في جامعة كمبردج والمتخصص أثناء الحرب بفك رموز وشيفرة الأعداء، ويؤكد هذه الحقيقة في كتابه "المخابرات البريطانية إبان الحرب العالمية الثانية": إن الرسائل الإذاعية عن طريق الراديو الألماني لم تكن تحتوي على أية إشارات إلى استخدام الغازات بحق السجناء. ويستطرد يورغن غراف بالقول: بدأت طائرات التجسس والاستطلاع التابعة للحلفاء بتصوير معسكر أوشفيتز وخلال ٢٢ مهمة لا يمكن رؤية ومشاهدة أية صورة من صور طوابير الناس منتظرة أمام غرف الغاز، التي يسهل التقاطها والتعرف عليها.

في كتاب (التناقض اليهودي: منشورات ستوك / باريس ١٩٧٦ - كتب ناحوم غولدمان، الذي كان لمدة سنوات طويلة رئيساً للمؤتمر اليهودي العالمي ما يلي:*)

"ولكن في عام ١٩٤٥، كان هناك (٦٠٠) ألف ناجٍ من الموت من يهود معسكرات الاعتقال، لم يكن يوجد أي بلد مستعد لاستقبالهم "لو أراد النازيون استئصال وإبادة اليهود نهائياً كيف أتيح لـ (٦٠٠) ألف يهودي أن يظلوا على قيد الحياة وينجوا من الموت في المعتقلات الألمانية؟ كان أمام الألمان ثلاث سنوات وثلاثة أشهر لإتمام وإنهاء مهمتهم في استئصال وإبادة كافة اليهود.

واستعان الأستاذ يورغن غراف بتصريحات الشهود الثلاثة وهم (هوس / ومولر و/ وفيريا) الذين قدموا مجموعة من المستحيلات الداحضة للقتل والإبادة من خلال غرف الغاز وأهم هذه المستحيلات وأكثرها بديهية وبراءة(**):

المستحيل الأول:

لا يوجد أي مهندس معماري يمتلك خبرة تقنية عالية يستطيع أن يبني محرقة جثث في نفس المبنى الذي توجد فيه غرفة غاز تجري فيها مذابح بواسطة غازات قابلة للانفجار. صحيح أن (زيكلون ب)، ليس شديد الانفجار، ولكن لمجرد وجود احتمال وقوع انفجار، يمكن أن ينتج من جثث مسممة أو مشبعة بمادة "زيكلون ب" فإن مثل هذه الطريقة في المعمار تشهد على جنون انتحاري، خصوصاً أنه حتى يمكن قتل حوالي ألفي شخص خلال ثلاث دقائق (حسب شهادة هوس). ينبغي إذن استخدام كميات

(*) يورغن غراف، سبق ذكره، ص ١٣٤.

(**) يورغن غراف، سبق ذكره، ص ٦١.

هائلة من الغاز. في "كريما ١" لا توجد المحرقة فوق "غرفة الغاز" بل بالقرب منها، أو بجانبها ولكان هذا المبنى أول من ينفجر برمته ويتسبب في تفجير المعتقل بأسره وبضمنه مقر الأس أس النازي.

المستحيل الثاني:

إن درجة حرارة غرف تفلية القمل، يجب أن ترتفع إلى ٢٥ درجة مئوية، حتى يمكن لأكثر قدر من "زيكلون ب" أن يذوب ويتبخر في فترة نصف ساعة وأن مثل نظام التسخين هذا لا يوجد في غرف الغاز ويحتاج الأمر في الشتاء إلى ساعات طويلة حتى يتحرر الغاز من مادة "زيكلون ب" بعبارة أخرى، في غرف مكنتزة بـ "ألفي" شخص في مساحة ٢١٠م^٢ لا يمكن أبداً للغاز أن ينتشر بسرعة.

المستحيل الثالث:

إن جميع أبواب غرف الغاز تفتح للدخول ونتيجة لذلك ما كان يمكن لأفراد الفرق الخاصة أن تلج أو تدخل إلى داخل هذه الأماكن وهي مكنتزة ومزدحمة بالجثث حتى آخر ستمر مربع.

المستحيل الرابع:

حسب شهادة "هوس" فإن أفراد الفرق الخاصة يدخلون غرف الغاز بعد نصف ساعة - بضع دقائق حسب شهادة مولر - من المذبحة ويندفعون مسرعين نحو الجثث ليجردوها من خواتم الذهب (هوس) وتجريدها من ملابسها "مولر" وقص شعور النساء (فيريا) واقتلاع الأسنان الذهبية. إن مثل هذه العملية كان يمكن أن تكون عملية انتحارية بحثة، ولما كان بإمكان فرد واحد من أفراد الفرق الخاصة البقاء على قيد الحياة، بعد هذا العمل الانتحاري / الطوعي (لا تنس أنه بعد تنفيذ الحكم بمحكوم

واحد بالإعدام فإن غرف الغاز الأمريكية تُعرض بعناية للتهوية، قبل أن يلج إلى داخلها طبيب مختص، مرتدي صدرية واقية وكفوف حماية وقناع مضاد للغازات السامة) أما غرف الغاز في "أوز فيتش" فهي غير مجهزة سوى بنظام تهوية بدائي / بصورة لم يكن فيها أقنعة، مضادة للغازات، تكفي لحماية أفراد الفرق الخاصة خصوصاً وأن السُم يلتصق أيضاً بجثث الضحايا، التي من المفترض أن أفراد الفرق الخاصة سيهتمون وينشغلون بها. مما كان سيؤدي حتماً إلى آثار ونتائج مميتة، لأن الغازات تتسرب وتتغلغل تحت الجلد والأكثر من ذلك أن أعضاء الفرق الخاصة لا يلبسون الأقنعة الواقية من الغازات، وحسب شهادة (هوس) فإنهم يدخنون وهم يؤدون عملهم المريع هذا.

المستحيل الخامس:

حسب ما تظهره خرائط البناء التي احتُفظ بها، فإن الطريقة الوحيدة لبلوغ محرقة الجثث من غرفة الغاز هي (مصعد كهربائي) صغير تبلغ مساحته ٢,١م x ١,٣٥م أقصى ما يستوعبه هو أربع جثث إضافة للذين يستخدموه. وأن نقل الجثث يجب أن يتم في عجلة كبيرة لأن المحكومين القادمين ينتظرون أصلاً أمام "حنفية الغاز" (في بداية صيف ١٩٤٤ كان يتم تعريض حوالي ١٢ ألف شخص للغازات يومياً. ويصل العدد أحياناً إلى ٢٤ ألفاً حسب مصادر أخرى). وأنهم - أي الضحايا - لم يلاحظوا أن هذه الحنفية لم تكن حقيقية إذ كانوا - أي النازيين - يضعون لهم الصابون "وحسب شهود عيان آخرين كانوا يضعون صابوناً اصطناعياً، ومناشف حمام" وهم ينتظرون بصبر مجيء دورهم للاستحمام، وأن صبي المصعد الكهربائي يقوم بخمسائة رحلة ذهاباً وإياباً بين غرفة الغاز ومحرقة الجثث ويحتك بلا انقطاع بجثث مشبعة بمادة "زيكلون ب" في محل مشبع هو الآخر بالسم دون أن تمس صحته بسوء.

المستحيل السادس:

إن كريما "٢" وكريما "٣" يحتوي كل واحد منهما على "١٥" فرناً أما بقية المحارق فتحتوي على "٨" أفران. وحتى في أغلب المحارق المستخدمة اليوم، فإن حرق وإذابة جثة يستغرق حوالي ساعة ونصف (ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقل الوقت عن ساعة وربع وان هذه العملية لم تكن بطبيعة الحال بالتأكيد أكثر سرعة من الآن في عام ١٩٤٤. ولنأخذ مثلاً حالة "كريما ٢" عندما يتم حرق "٦٠" جثة خلال ستة ساعات في الخمسة عشر فرناً فستبقى جثث ١٩٤٠ ضحية داخل "الحنفية" مما سيمنع حتماً الـ "الفي" شخص من المحكومين بالإعدام تسميماً بالغازات الذين جاء دورهم من الدخول إلى غرفة الغاز على الفور.

وفيما يتعلق بالمحارق: نجد في المؤلف - المرجع - الأساسي لرؤاويل هيلبيرغ "تدمير يهود أوروبا" لكل واحد من المحارق الأربع في بيركنو معطيات وتفاصيل دقيقة تتعلق بالفترة الزمنية لاستغلالها وتشغيلها في طاقتها القصوى. إن أغلب المحارق الحالية، لا يمكنها حرق وتذويب أكثر من خمس جثث يومياً للفرن الواحد، لأنه يجب تبريدها بانتظام. ولنفترض إن محارق معتقل بيركنو، تمتلك قوة مشابهة لمحارق اليوم (وهو افتراض غير محتمل أبداً) فإن عدد عمليات الحرق المحققة والممكن تنفيذها خلال فترة وجود المعتقل، ستصل من ١٢٠ ألفاً إلى ١٥٠ ألفاً جثة. والحال وحسب مؤرخي "الأبادة" تم قتل مليون شخص تقريباً في بيركنو (وفي السابق كان الحديث يدور حول ٣ إلى ٤ ملايين). وعندما كتبنا أن أغلب المحارق الحالية لا يمكنها حرق وتذويب أكثر من خمس جثث في اليوم في كل فرن.

استندنا في ذلك إل معلومات حصلنا عليها من محارق "لير مونت فيرون" في فرنسا، "وكالغازي" في كندا وكان بإمكاننا أن نشير، على سبيل المثال، أن أغلب

المحارق الألمانية والسويسرية تعمل بمعدل ٢٤ ساعة على ٢٤ ساعة، لكان بإمكانها حرق ٢٣ جثة يومياً في كل فرن. لو أخذنا بأقوال أحد الخبراء السويسريين في حرق الجثث، ولكن المقصود بذلك أفران تغذى بالغاز والأمر يختلف بالنسبة لمحارق بيركنو، لأنها تعمل بالفحم الحجري، "أيفان لاغاسية" أراد أن يعرف بضمير مرتاح، وهو مدير محرقة "الغازي" الكندية، الكمية القصوى لعدد الجثث التي يمكن حرقها في نهار في فرن يعمل على الفحم الحجري، لذلك فقد أجرى التجربة ولاحظ بنفسه أنه بعد الجثة السادسة يتفجر الفرن أو يتفسخ. وقد قدر لاغاسية قدرة أو قابلية حرق مثل هذا الفرن فوجد أنها لا تتجاوز أربع جثث في اليوم لكل فرن لأنه يجب تبريد التجهيزات أو الآلة بانتظام إذا أردنا تفادي تصدعات خطيرة. وأن المعطيات التي أخذناها بعين الاعتبار فعالية في التقدير بدلاً من أن تكون ناقصة التقدير، علاوة على ذلك، لم نحصل أبداً على إجابات دقيقة فعلاً من أغلب المحارق المتطورة جداً والموجودة حالياً.

٩. الهولوكست والوعد الإلهي

يرى الفيلسوف "روجيه جارودي" بأن موضوع الإبادة الجماعية شأنها شأن الوعد الإلهي في التوراة، وهي إحدى الذرائع الإيديولوجية لإنشاء دولة إسرائيل. وعادة ما تستخدم ثلاثة مصطلحات للإشارة إلى المعاملة التي لاقاها اليهود على أيدي الألمان وهي / الإبادة الجماعية / الهولوكوست وشواه. أما مصطلح الإبادة الجماعية، فهل مدلول محدد، وهو إبادة عرق أو جنس. فلو افترضنا أنه كان هناك "جنس" يهودي، كما ادعت المقولات العرقية النازية، وكما يدعي القادة الإسرائيليون في الوقت الراهن، لكان علينا أن نتساءل^(٩):

هل حدثت فعلاً "إبادة جماعية" لليهود أثناء الحرب؟ تقدم المعاجم تعريفاً محدداً لمصطلح الإبادة الجماعية. ويذكر معجم لاروس مثلاً أن الإبادة الجماعية، هي القضاء على جماعة عرقية وبشكل مخطط ودؤوب بإفناء أفرادها، ولا يمكن لهذا التعريف أن ينطبق بشكل حرفي إلا في حالة غزو يشوع لبلاد كنعان وكما تصف التوراة: واستولى يشوع في ذلك اليوم على مقيدة وقتل بالسيف مليكها وكل نفس فيها. فلم يُفلت

(٩) روجيه جارودي، الأساطير الإسرائيلية المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، سبق ذكره، ص ٢٠٠.

منها ناج. وصنع بملك مقيدة ما صنعه بملك أريحا. ثم توجه يشوع على رأس جيش من مقيدة إلى لُبنة وحاربها، فأسلمها الرب هي أيضاً إلى يد إسرائيل مع ملكها، فدمرها وقتل كل نفس بحد السيف فلم يفلت منها ناج، وصنع بملكها ما صنعه بملك أريحا. بعد ذلك تقدم يشوع من لُبنة إلى لخيش وحاصرها وهاجمها، فأسلم الرب لخيش إلى يد إسرائيل، فاستولوا عليها في اليوم التالي، ودمروها وقتلوا كل نفس فيها بحد السيف، نظير ما صنعوا بلبنة عندئذ قبل هوارم ملك جازر لمعونة لخيش فقضى يشوع عليه وعلى جيشه فلم يفلت منهم ناج. ثم تحرك يشوع وجيش إسرائيل في لخيش نحو عجلون فحاصرها وحاربوها، واستولوا عليها في ذلك اليوم ودمروها، وقضوا على كل نفس فيها بحد السيف، على غرار ما صنعوا بلخيش. ثم اتجه يشوع بقواته من عجلون إلى حبرون وهاجموها، واستولوا عليها ودمروها مع بقية ضواحيها التابعة لها، وقتلوا ملكها وكل نفس فيها بحد السيف، فلم يفلت منها ناج على غرار ما صنعوا بعجلون وهكذا قضوا على كل نفس فيها.

ثم عاد يشوع إلى دبير وهاجمها، واستولى عليها ودمرها وقتل كل ملوكها، ولم يفلت منها ناج، بل قضى على كل حي كما أمر الرب إله إسرائيل.

يشوع ١٠ : ٢٨ - ٤٠

هذه هي الإبادة الجماعية، الكلية، التي لا تترك فرداً واحداً. إنها نموذج للتصفية العرقية، المحمية بإله إسرائيل، يهوه الدموي، وهو الذي فوض يشوع أن يبدأ بإبادة قدسها الإله اليهودي. ولأن إبادة يشوع قد قدسها الإله، فإنها لم تكن في المفهوم الديني / اليهودي نوعاً من أنواع الإبادة الجماعية وأجد من الضروري تدوين بعض نصوص توراتية، كي يكون القارئ على اطلاع بما حصل للمدن الكنعانية (الفلسطينية) أثناء زحف العبران / اليهود نحو كنعان، وبعد وفاة موسى. حيث تكفل

يشوع مهمة قيادة حشود العبران نحو العبور واجتياح المدن جميعها. ويقدم لنا سفر العدد نوعاً وحشياً من أنواعه الاجتياح والدمار:

"فحاربوا المديانيين كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر وقتلوا معهم ملوكهم الخمسة: أوى / وراقم / وصور / وهور / ورابع / كما قتلوا" بلعام بن يعور" بحد السيف واصر بنو إسرائيل نساء المديانيين وأطفالهم، وغنموا جميع بهائمهم ومواشيهم وسائر أملاكهم، وأحرقوا مدلمهم كلها بمساكنها وحصونها، واستولوا على كل الغنائم. والأسلاب من الناس والحيوان، ورجعوا إلى موسى والعازر الكاهن وجماعة إسرائيل بالسبي والأسلاب والغنيمة إلى المخيم في سهول مؤاب بالقرب من نهر الأردن مقابل أريحا.

فخرج موسى والعازر وكل قادة إسرائيل لاستقبالهم إلى خارج المخيم، فأبدى موسى سخطه على قادة الجيش من رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من الحرب، وقال لهم:

لماذا استحييتن النساء؟ إنهن باتباعهن نصيحة بلعام أغوين بني إسرائيل لعبادة فغور، وكن سبب خيانة الرب، ففتش الوباء في جماعة الرب، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال واقتلوا أيضاً كل امرأة ضاجعت رجلاً ولكن استحيوا لكم كل عذراء لم تضاجع رجلاً.

العدد: ٣١: ٧ - ١٨

لن ندرس عملية إقحام الأسطورة في التاريخ والإدعاءات المرتبطة بهذا "الترقيع التاريخي"^(*) لتبرير سياسية ما، إلا في حالة واحدة: ألا وهي استخدام الروايات التوراتية

(*) روجيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة، سبق ذكره، ص ٦٤.

كأداة فما برحت هذه الروايات تلعب دوراً حاسماً في مصير الغرب. حيث استخدمت كستار لأشد الأعمال الدموية، منذ اضطهاد اليهود على أيدي الرومان، ثم على أيدي المسيحيين مروراً بالحروب الصليبية / ومحاكم التفتيش والحلف المقدس، والهيمنة الاستعمارية التي تفرضها "شعوب مختارة" وحتى عمليات الاغتصاب التي تمارسها دولة إسرائيل.

ويتضح من كثرة إجحاح شمعون بيريز، على الإبادة / والملاحقة / والشتات / وتكرار المحارق، هدف سياسي، يرمي لتبرئة الضمير اليهودي من جرائمه التي اقترفها خلال التاريخ الطويل، ابتداءً بدمارات يشوع وانتهاءً بإبادة أطفال الحجارة والقتل العمد للأطفال العراقيين، لذا فإنه يحاول إشراك غير اليهود في تاريخ المجازر التي عرفت بالبشرية.

النازية حليف علي لليهود:

تجاوزت الحركة الصهيونية اللقاء مع النازية بالخطوط العريضة إلى الوقوف في صفها عن طريق كسر الحصار الاقتصادي المضروب حول ألمانيا النازية.

"حنة أردنت"

وفي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تعتذر^(*) عن قبول اللاجئين اليهود من فرنسا ومن غيرها أثناء الحرب بحجة مصاعب الإيواء أعربت عن استعدادها لقبول ٣٠٠ ألف لاجئ هولندي / وبلجيكي، عندما احتلت القوات ألمانية بلادهم. وابتداءً

(*) برنارد وسرستين، بريطانيا ويهود أوروبا ١٩٣٩ - ١٩٤٥، ترجمة: ناجي الحديثي، مجلة آفاق عربية، العدد

فرار اليهود، بعد ابتداء حملة القمع النازية، واضطرار الكثير منهم للفرار خارج ألمانيا والمناطق الخاضعة للحكم النازي.

... وقد اتجهت عدة قوارب مليئة باللاجئين اليهود إلى فلسطين وتردد البريطانيون في السماح لهم بالدخول في فلسطين ومن بعد تراجعوا وفق إجراءات مغطاة ببعض الخطوات ذات الطابع البريطاني في إخفاء الهدف الحقيقي من التواطؤ مع الصهاينة بشأن فلسطين... كما أعلنت عدداً من الدول الإحدى عشر / المتحالفة ضد (الجرائم النازية ضد اليهود) والذي أفسح المجال أمام قبول المزيد من اللاجئين اليهود وإرسالهم إلى فلسطين، ضمن إطار المخطط الاستعماري / الصهيوني لاحتلال فلسطين.

وقد هيأت بريطانيا عدداً من المعسكرات لاعتقال اليهود في بريطانيا، وقد تم هذا بمباركة من الحركة الصهيونية وذلك بدعوى أنهم يشكلون طابوراً خامساً وأن بينهم "٢٠" ألفاً من جواسيس هتلر، كما أشار لذلك "تشرشل".

ويستمر برنارد وسرستين" في روايته عن ضعف النشاط الخاص بفصائل التجسس النازية، لأن عملها كان بدائياً وغير محترف، كما كان مخترقاً من قبل المخابرات البريطانية. وموجهاً لخدمة السياسة البريطانية، ومما يشير إلى طبيعة هذا الموقف ترحيب الصهاينة به وترويجهم له، رغم أنه موجه ضد اللاجئين اليهود.

ويقدم السيد شامير رأياً واضحاً وصريحاً، ولا يقبل الاختلاف، أو الجدل، حيث صارت المجازر سبباً موضوعياً وراء نشوء الكيان السياسي لدولة إسرائيل. وعلى هذا الكيان أن يستمر بحملته الواسعة، الخاضعة لتنظيم أكثر، بعد توفر إمكانات الإشراف على الحملات والدقة في صياغة وتوجيه كل الخطابات الكامنة وراءها، والمحركة لها، من أجل أن يحصد الكيان السياسي الجديد، كل الذي يريد والحلم به

وأشرنا لذلك - من أجل صيانة النظام وترميم مداراته الداخلية، والحيوية وهذا واضح كثيراً في مسعى إسرائيل من أجل الحصول على السلاح من فرنسا (ص ٥٤ / مستقبل إسرائيل) وذلك لأن فرنسا، تشعر بموقف تكافلي مع اليهود بسبب الإبادة، ويتجسد الموقف الفرنسي لاحقاً. وكان لتلك العلاقة مكونات عديدة، منها العناصر الدينية للمسؤولين الفرنسيين.

ولفرنسا قراءة خاصة بها عن المجزرة وطريقة^(*) تنفيذها، وكذلك الموقف الخاص بالمواطنين. هذا كله، له تأثير في صياغة السياسة الفرنسية لاحقاً.

ومما لا شك فيه أن فرنسا^(**) كانت سباقة في مساهمتها بخلق قاعدة تكنولوجية / عسكرية للكيان الصهيوني، وذلك بفعل التحالف الذي نشأ بينهما عشية حرب السويس ١٩٥٦. وما استتبع ذلك من تدفق الأسلحة الفرنسية على الكيان الصهيوني ونشوء تعاون في المجال العسكري امتد من عام ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٧، أي عند فرض الحظر الفرنسي على إرسال الأسلحة إلى الكيان الصهيوني. وفي ظل التعاون الفرنسي / الصهيوني الوطيد على الصعيد العسكري، وتدفق الأسلحة الحديثة / والمعدات الإلكترونية المتطورة. تدفقت التقنيات العسكرية / الفرنسية والخبرات في مجال الإنتاج والتخطيط الهندسي. لقد كان لفرنسا - وهذه الحقيقة يعترف بها شمعون بيريز، الذي واکب مراحل التعاون الفرنسي / الصهيوني وعاشه خطوة خطوة - الدور الرئيس ليس في تسليح الكيان الصهيوني حتى التخمّة فحسب بل وفي مساعدته على تصنيع

(*) روبرت لیتل، مستقبل إسرائيل، ترجمة محمد نجار، تقدم ناجح العموري، الدار الأهلية للنشر والإعلان، عمان، ٢٠٠٠، ص ٣٥.

(**) آفاق عربية / العدد ١، ١٩٧٩، سبق ذكره، ص ١٠.

هذا السلاح بنفسه. وذلك عن طريق نقل التكنولوجيا إليه بمقتضى الاتفاقيات العلمية والتعاون بينها وبين العدو.

ومن حيث دور فرنسا في خلق ودعم القاعدة التكنولوجية العسكرية / الصهيونية، فقد أفرز هذا الدور النتائج التالية:

تمكين العدو الصهيوني من إنشاء صناعة عسكرية أهمها الصناعة الجوية وذلك في ظل التعاون. ومنحت فرنسا الصناعة الجوية / الصهيونية ترخيصاً لإنتاج طائرة "الفوجا" ومن المشاريع العسكرية الأخرى، إنتاج أسلحة الزوارق الحاملة للصواريخ، وساعدت إسرائيل على إنتاج صاروخ أرض أرض متوسط المدى. ولقد بدأ تطوير هذا الصاروخ بين الكيان الصهيوني وشركة مارسيل داو.

أما في الحقل النووي، فقد بدأت فرنسا ومنذ منتصف الخمسينات تقدم الخبرة العلمية في مجال الذرة وإقامة مفاعل نووي في ديمونة. واعترف العدو، بأنه لولا فرنسا ومساعداتها في مجال التسليح وصناعة الأجهزة الإلكترونية ومحركات وأجزاء الطائرات والصواريخ المضادة للدروع، وصواريخ أرض أرض والزوارق الحاملة للصواريخ، لما صمدت إسرائيل في حرب ١٩٥٦ / و ١٩٦٧ لأنها قاتلت بالأسلحة الفرنسية أو الأسلحة التي صنعت في إسرائيل وعلى أساس التكنولوجيا الفرنسية.

وتغذي الصهيونية وقائع المجزرة النازية كثيراً لدرجة أنها تستيقظ أحياناً، وفي ظروف خاصة، من أجل أن تساهم بتصعيد ردود الفعل الإنسانية للتكافل معهم، و"تحرير" الضمير الإنساني من بعض هفواته في العلاقة وإياهم. لذا نجدهم يؤكدون دائماً، بأن المجزرة ما كان لها أن تحصل لولا كونهم يهوداً، ولذلك، ظلت الجحازر

(٩) آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٩.

النازية مشتتة بهم، ولم تعرض شعوب أخرى كثيرة لما تعرض له اليهود، بينما يعرف المتابع البسيط الأهوال التي تعرضت لها بولندا مثلاً والخسائر البشرية الخيالية التي صارت حطياً لمجازر حروب الإبادة.

"كاستر" وبيع اليهود:

وإضافة لما قاله "برنارد وسرستين" هناك وقائع خفية، سرية في هذه التراجم وخصوصاً قضية "كاستر" الذي باع يهود معسكرات الإبادة بالتعاون مع (إنجمان).

وهي وقائع رهيبة / وخطيرة، ومارست فعلاً دورها في إيقاظ الوجدان الإنساني، وهزت كيان إسرائيل من الداخل، لدرجة أن العالم ابتداءً يتعامل مع المجازر، بوضوح أدق.

وكشفت قضية "كاستر" أن كبار رجال الصهيونية، قاموا بتجهيز الأغنياء والأثرياء جداً من اليهود، وترحيلهم إلى فلسطين، مع أعداد كبيرة من العلماء / والطاقت / والكفاءات التخصصية العالية. وتركوا في معسكرات الاعتقال أعداداً أخرى، وهي الحشود غير المرغوب فيها، ضمن نسيج المسرحية التي أعدها "كاستر". وهم الذين حصل لهم فعل الإبادة، وهذه، / الحقيقة هي التي ساهمت بنشوء وقيام الكيان الصهيوني. واستطاع (إنجمان) توفير قطار للإنقاذ، وحمل المهجرين، الذين تم اختيارهم وفق امتيازات وصفات خاصة، ودقيقة جداً. وقد وفرت النازية حماية لقطار الإنقاذ، من أجل ضمان وصولهم إلى الحدود. وحدد "كاستر" عددهم بأكثر من (١٦٨٤) شخصاً تحقق لهم فعل الخلاص والمغادرة، بعيداً عن المجزرة، وأشار "كاستر" إلى أن العدد الذي دفع به إلى المحرقة، كان ٤٧٦,٠٠٠ شخصاً وهو عدد قريب للعدد الذي أشارت له الدراسات الموضوعية / الخاصة بالهولوكوست.

وقد شهد على هذه المؤامرة الكبرى - كما قال د. سيد محمود القمني - أحد القلائل الذين تمكنوا من الفرار من معسكر "أوشفيتز" وهو رودلف فيريا" (والذي قدم مع اثنين ذكرناهما قبلاً. في الاستحالات الستة) والذي نشر رأيه في جريدة لندن ديلي هيرالد عام ١٩٦١ وقال:

"نعم. أنا يهودي. لكنني أتم قيادة اليهود بأنهم أبشع ممارسي الحروب، فتلك المجموعة كانت على علم مسبق، بما سيحدث لإخوانهم في غرف الغاز النازية ومن بينهم "كاستر" رئيس مجلس يهود هنغاريا، وقد استقل عدد من يهود هنغاريا الفقراء قطارات النقل طائعين بدون مقاومة، لأنهم، كانوا قد أخذوا تطمينات من القادة الصهاينة، أنهم في طريقهم إلى الحرية، بينما يساقون إلى الإعدام، أما جريدة صوت الشعب الإسرائيلية فقد قالت عام ١٩٥٥: أن كل أولئك الأشخاص، الذي ذبح الألمان أقرباءهم في هنغاريا، يعلمون الآن وبوضوح، أن قيادات الصهاينة، هي التي دبرت الجريمة مع النازي. ولما فاحت الفضيحة، قدم "كاستر" للمحاكمة في إسرائيل بضغط الرأي العام من أجل كشف الحقيقة.

عقب صحيفة إيدعوت أحرונوت في ١٩٥٥ بقولها: أنه إذا تم تقديم "كاستر" للمحاكمة فإن الدولة برمتها تنهار سياسياً ووطنياً، نتيجة لما ستكشف عنه تلك المحاكمة. ولم يمض وقت قليل على هذه المحاكمة، حتى سقط "كاستر" صريعاً بالرصاص من مجهول، وكشف بعد ذلك أن قاتله هو (أكشتاين) العميل السري في جهاز الموساد وكان السؤال:

هل من المعقول أن تقدم القيادة الصهيونية هذا العدد من اليهود للذبح؟

ويجد السؤال إجابته أولاً في قيام الدولة، وثانياً شهادات العديد من الشهود، ومنها شهادة (موش شوليفر) مساعد "كاستر" الذي قال بملء فيه: نعم كان يهود

هنغاريا عدداً كبيراً، لكنهم للأسف، لم يكونوا يتمتعون بأي إيديولوجية يهودية. أما قائد (الهاجانا فايغل بولكس) فقد التقى بأينمان في جروي / القاهرة، وأبدى رضاه التام عن سير التعاون اليهودي مع النازي، كما هو مرسوم له.

وما زالت إلى الآن تتكشف كثيراً من حقائق ذات صلة مباشرة بالمجازر النازية التي حصلت. ولعل آخر تلك الحقائق ما صرح به أحد الشباب الألمان، وهو من الجماعة النازية، الجديدة، وفي مقال مهم، نشرته صحيفة نيويورك تايمز. ذكر فيه بأن ما حدث في "أوشفيتز" كان مبالغاً فيه للغاية. وكان نتيجة الحرب، هي انتصار اليهود فيها، حيث خرجوا راجحين منها، وهم الذين كتبوا مسرحية "أوشفيتز" هذا المعسكر الذي ضم أعداداً كبيرة من اليهود، وتوفر على وسائل للراحة، ومنها أحواض خاصة للسباحة.

لقد مارس اليهود^(*) التعاليم العنصرية عملياً من خلال العلاقات البرغماتية التي أقاموها مع النظام الهتلري في ألمانيا لتحقيق الشعار اليهودي / التوراتي "بالبحر سيقطع الرب دابر الضعفاء عديمي القيمة" مقابل تحقيق الغرض الصهيوني بإنشاء دولة يهودية وبالتعاون مع الفاشيين على هجرة الشباب ورؤوس الأموال اليهودية إلى فلسطين. وقد كتب حول هذا الموضوع مطولاً (يوري إيفانوف) في كتابه "احذروا الصهيونية" والذي نشرته وكالة نوفوستي. قال يوري غيفانوف: كان من أبرز قادة "الهاغانا" "فايغل بولكس" الذي كان رئيساً لمركز الاستخبارات الفاشية في فلسطين وسوريا. كما كتبت الصحيفة الألمانية الغربية "شبيغل" بهذا الصدد في ١٩ كانون أول ١٩٦٦:

(*) جودت السعد، الشخصية اليهودية عبر التاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٠١

إن العميل راينخرت، من مكتب الاستعلامات في فلسطين أقام صلات مع أحد أشهر رجال المنظمة الصهيونية السرية، التي شغلت ، كما لم يشغل شيء غيرها، بال المخابرات النازية.

لقد كانت هذه المنظمة تدعى "هاغانا" وفي المركز الرئيسي لأركان هذا الجيش السري عمل (فايغل بولكس)... وقد وضعت تحت تصرفه كما أشار رئيس قسم الاستخبارات رقم (١١١١٢) المختص بقضايا اليهود "خاغن" الذي حل مكان "فون ميندلشتاين" هيئة جهاز أمن اليهود.

وفي الوقت الذي كان فيه^(*) "فايغل بولكس" مع سفاحيه يخدم الاحتياجات الخارجية الألمانية / الفاشية، لم يكن د. "موسيك" الذي دافع زمن حكم غليوم الثاني عن مشروع توطين اليهود في الدولة العثمانية خارج فلسطين، أقل نزاهة في "خدمة" الاحتياجات الداخلية للفاشيين. إن نوسيك الزعيم الصهيوني / والكاتب / والنحات / والشخصية السياسية في مكتب برلين، حيث عملت في حينه الشخصيتان الصهيونيتان المعروفتان (كارتور روين) و(يعقوب تون) قد صاغ وجمعية النازيين خطة للقضاء على عجائز وفقراء اليهود الألمان.

إن غولدمان / وبولكس / ونوسيك - حلقات الاتصال المباشر مع الفاشية - لم يتصوروا أنفسهم بالأشخاص الشاذين فتوجهاتهم وأطروحاتهم متطابقة مع التوجهات والأطروحات النازية، وهذه الممارسات لم تكن فردية أو باجتهادات شخصية. بل مثلت تعاليم وفلسفة مستمدة جذورها من التوراة. ومن هنا لم تنشأ^(**)

(*) جودت السعد / سبق ذكره، ص ٢٠٢.

(**) سعيد حمور، استراتيجية الكيان الصهيوني وكيف يجب مقاومتها، مجلة آفاق عربية، العدد (٢)، ١٩٨٨.

معارضة يهودية على العلاقات اليهودية / النازية بل العكس أخذت هذه العلاقة طابع الرسمية المتسمة بالاحترام المتبادل.

وفي هذه المرحلة، في برلين، وبتأييد من السلطات النازية عمل ما يسمى (بالمكتب الفلسطيني) يجد بالاشتراك المباشر مع رئيس الوزراء الإسرائيلي، فيما بعد "ليني أشكول" على تصنيف اللاجئين، ويشهد "جون وجدافيد كيمشي" مؤلفا كتاب "دروب غير منظورة" بأن المبعوثين اليهود سافروا إلى ألمانيا النازية، ليس من أجل إنقاذ اليهود، بل من أجل انتقاء الرجال والنساء الشباب وتهجيرهم إلى فلسطين.

كانت الهجرة وظلت هدفاً مركزياً ضمن المشروع الصهيوني من أجل تأسيس كيان سياسي. وقد ابتدأت الهجرة قبل الحرب العالمية الثانية بوقت طويل جداً. ولذا اهتمت الصهيونية بالهجرة / والاستيطان^(٤) وبدأت طلائع المهاجرين اليهود تتوافد إلى فلسطين العربية في النصف الأول، من القرن التاسع عشر وبين عامي ١٨٨٤ و ١٨٨٧ ورصدت المبالغ لتزويد المهاجرين بالمال وشراء الأراضي وتوسعت الهجرة، خاصة بعد المؤتمر الصهيوني الأول، الذي نص أحد قراراته على تشجيع الهجرة إلى فلسطين. وأخذت الحكومات الصهيونية المتعاقبة على تشجيع الهجرة من الأقطار المختلفة إلى فلسطين، خاصة من أوروبا وأمريكا، وقد بذل الكيان الصهيوني ولا يزال جهوداً إعلامية / وسياسية / واسعة جداً لتكثيف الهجرة والاستيطان.

ويؤكد "هانس خينه" بأن رئيس قسم مركز الاستخبارات لشؤون اليهود رقم (١١١١٢) دعم بكل قوته نشاط المنظمات الصهيونية المتعلق بإنشاء معسكرات تختص بإعادة تربية اليهود الشباب، وإعدادهم للاستفادة منهم في التعاونيات الزراعية في

(٤) نفس المصدر.

فلسطين وقد تابع باهتمام وأعطى في قسمه أمراً بوضع خرائط خاصة يدون فيها نمو الصهيونية بين اليهود الألمان.

وأشارت (حنة أردنت)^(*) إلى الآثار الرئيسية للاتفاق المتبادل والمرضي إلى حد كبير بين السلطات النازية والوكالة اليهودية، فكتبت تقول: إن النتيجة المباشرة لذلك هي أنه في الثلاثينات وفي الوقت الذي بذل فيه الأمريكيون مساعي جديدة لمقاطعة البضائع الألمانية، كانت فلسطين تفرق بالبضائع التي تحمل العلامة التجارية "صنع في ألمانيا" وبذلك تكون الحركة الصهيونية قد تجاوزت اللقاء مع النازية بالخطوط العريضة إلى الوقوف في صفها عن طريق كسر الحصار الاقتصادي المضروب حول ألمانيا النازية. وبحجة تلقي التعويضات عن الأموال اليهودية كانت البضائع الألمانية تفرق أسواق فلسطين و المنطقة برمتها. كما أن الصهيونية مارست تعاليمها العنصرية قتل اليهود أنفسهم^(**) ففي ٢٥ عام ٩٤ أدى نسف السفينة "باتريه" في مرفأ حيفا إلى مقتل (٥٠) شخصاً من طاقم السفينة و(٢٠٢) راكباً من المهاجرين. وقد سبقت هذه المسألة سلسلة كاملة من الأحداث وكانت تبدو كأنها حلقة من المناورات المعقدة، دبرها وأنجزها بطريقة محكمة رؤساء المؤسسة الصهيونية. وفي الوقت ذاته استمر الإرهاب النازي (بالاتفاق مع الحركة الصهيونية) ضد اليهود بقوة متنامية. وأصبح طريق آلاف الناس في ألمانيا يمر عبر معسكرات الاعتقال أو عبر معسكرات "إعادة التربية". لقد كتب أحد قادة الاستخبارات الألمانية، هاغن، مستشهداً برأي بولكس العميل الصهيوني والنازي يقول:

(*) جودت السعد / سبق ذكره، ص ٢٠٣.

(**) يوري إيفانوف، احذروا الصهيونية، وكالة نوفوستي السوفيتية ١٩٦٨، ص ٩١.

كان يسود الأوساط اليهودية^(*) ارتياح عميق لسياسة ألمانيا تجاه اليهود، وذلك لأن هذه السياسة تساعد على زيادة السكان اليهود في فلسطين، بشكل يصبح معه بالإمكان الاعتماد على تفوق السكان اليهود على العرب في المستقبل القريب.

وأشار (هانس خينه) إلا أن السياسة الإنجليزية قد اصطدمت بمناهضة الكتلة الصهيونية المؤيدة من منظمة الهاغانا والتي كان يوجد في قيادتها بولكس الشخصية الموثوقة عند إيجمان. وقد قامت هذه المنظمة "بتكوين شبكة أوروبية من الرجال الموثوقين، الذين كانوا يسهلون هجرة اليهود بصورة سرية إلى فلسطين. وكان رجال "غولومب" على شيء من القساوة للاستفادة منهم في التهجير بمساعدة رجال الحرس الهتلري الخاص.

كانت الشبيبة الهتلرية تجوب شوارع برلين عام ١٩٣١ وهي سنة فوران. وكان الاقتصاد الألماني يتخبط جريماً تحت أقدام اليهود آنذاك. عليه قرر الصهاينة - وهو ما يراه الكثير من مؤرخي التاريخ السياسي - أن يكون هناك مزيد من التخريب الاقتصادي في ألمانيا. وأن يفسح المجال واسعاً أمام هتلر لاستلام السلطة والضغط على اليهود الذي بدوا أكثر عناداً في عدم الذهاب إلى فلسطين. ثم أن تعلن الحرب على ألمانيا وسحقها وإعادة بنائها من جديد تحت إشراف ملوك اليهود. بعد ذلك، وفي عام ١٩٣٢ فقط هاجر إلى فلسطين بصورة غير مشروعة ١٥,٠٠٠ من اليهود الألمان الذين كانوا يخشون وقوع الكارثة بصعود هتلر. وفي نيسان ١٩٣٣، تم استيلاء هتلر على مقاليد السلطة وزلزلت الأرض الألمانية تحت أقدام اليهود.

وهناك حقيقة عريضة خافية، تلك هي أن أغلب اليهود الذين ذهبوا ضحايا الحكم الهتلري في ألمانيا لم يكونوا من المؤمنين بفكرة الرجوع إلى فلسطين "الوطن

(*) يوري إيفانوف، احذروا الصهيونية، سبق ذكره، ص ٩٤.

القومي". وحاولت فئات عديدة الإيحاء إلى هتلر من أن اليهود أصل البلاء في ألمانيا ويجب التخلص منهم وتصفيتهم. وبذلك تربح الصهيونية العالمية من عدة وجوه^(*)

الأول: كسبها الرأي العام العالمي وتوجيهه وجهة العطف على اليهود عامة بسبب المجازر الهتلرية وتحويل الرأي العام العالمي إلى جانبها، في سعيها من أجل إقامة الدولة الصهيونية / في فلسطين.

الثاني: إرهاب يهود ألمانيا الباقين، ثم يهود أوروبا وتخويفهم من التوسع الهتلري، كي يعجلوا بالهجرة إلى فلسطين.

الثالث: القضاء على اليهود الألمان الذين يعارضون الهجرة.

الرابع: إشعال نار حرب عالمية تتذبح خلالها ألمانيا وأعدائها وإعادتها إلى الحظيرة المالية الصهيونية.

الخامس: إقامة دولة إسرائيل.

وعندما تولى هتلر مقاليد السلطة، أصبحت أبواب ألمانيا مفتوحة على مصراعها لسفر اليهود إلى فلسطين وتم تسفير ١٠,٠٠٠ من يهود ألمانيا إلى فلسطين. كما أن هتلر نفسه، كان يلح في طلب إخراج اليهود من ألمانيا كي يستبدل ثرواتهم وخاصة العملات النادرة منها، بفائض البضائع، التي كان اليهود يستبدلون بها أموالهم عند مغادرتهم ألمانيا إلى فلسطين.

واستفاد^(**) هتلر من إخراج اليهود من ألمانيا استفادة كبيرة، خاصة عندما فرضت الأوساط التجارية الأمريكية والأوروبية التي يسيطر عليها ملوك المال /

(*) ن.م، ص ٧٨.

(**) ن.م، ص ٧٩.

الصهاينة في نيويورك مقاطعتها للبضائع الألمانية، وكانت الأموال التي حصل عليها هتلر من اليهود قد ساعدته كثيراً في تضخيم الجيش الألماني.

ثم اشتعلت نار الحرب العالمية الثانية، وكان الصهاينة هم الذين أجبروا هتلر على خوضها، كما كانت من أجل الصهيونية وفي سبيل تحقق مآرب الصهيونية في فلسطين. ولقد كتب المؤلف الألماني / اليهودي "أمل لودفيغ" في هذا الموضوع وقبل نشوب الحرب قائلاً:

إن هتلر لم يعلن حرباً على أحد، وإنما سيضطر ويجبر على دخولها، لا في هذه السنة، بل في السنة القادمة. وكتب صحيفة "السينتيال" اليهودية / الأمريكية، ذات النفوذ الواسع في أمريكا في عددها الصادر في يوم ٨ / أكتوبر / ١٩٤٢: أن هذه الحرب القائمة الآن، إنما قامت من أجل اليهود.



١٠ . مساعدات الدول الغربية للكيان الصهيوني

لقد أسهمت الدول الغربية مجتمعة في تمكين الكيان الصهيوني من امتلاك القاعدة التكنولوجية ، بل وفي خلق الأساس التحتي، إلا أن لكل دولة دوراً متميزاً. الأمر الذي يقتضي التعرض لمساهمة كل دولة حسب أهمية هذا الدور وخطورته.

وقبل أن نخوض. في ذلك، تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من إمداد تلك الدول للكيان الصهيوني بكل الجوانب التكنولوجية المتعلقة بإنتاج الأسلحة. فإن هذه الدول دخلت شريكاً مباشراً في صنع الأسلحة المتطورة^(*) وبدأت سلطات ألمانيا الغربية^(**) ومنذ ١٩٦٠ بتنفيذ برنامج المساعدة العسكرية الألمانية إلى الكيان الصهيوني وتضمن تزويد هذا الكيان بالأسلحة والأعتدة الحديثة ومن بينها التكنولوجيا الألمانية الغربية. وجاء ذلك البرنامج منسجماً مع سياسة سلطة بون التي بدأ منذ لقاء (ولدورف أستوريا) بين المستشار الألماني الأسبق "أدنياور" ورئيس الوزراء الصهيوني الأسبق "دافيد بن غوريون، حيث تم وضع أسس التعاون بين الحكومتين. وهكذا

(*) مجلة آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٩، ص ١٠.

(**) مركز الدراسات / دور الغرب الاستعماري في خلق القاعدة التكنولوجية العسكرية داخل الكيان الصهيوني،

مجلة آفاق عربية، العدد (١)، آذار ١٩٧٩، ص ١٤.

وتدرجياً وخطوة بعد خطوة تطور التعاون بين بون وتل أبيب في المجالات المختلفة ولا سيما في الميدان العسكري، الذي لم يقتصر على استغلالها على تطوير الأسلحة. والغريب أن هذه المساعدات بالإضافة إلى المساعدات الاقتصادية - التعويضات . والسياسية جاء في نطاق ما يسمى بالتعويضات وبدافع التكفير عن الشعور بالذنب الذي يحسه الألمان نتيجة لما ارتكبه النازيون.

وهناك تعاون بين سلطات ألمانيا الغربية والعدو الصهيوني / السلطة العنصرية في جنوب أفريقيا في تطوير الأسلحة، وبخاصة الأسلحة الكيماوية والجرثومية.

واستطاعت إسرائيل - أيضاً - تدريب الطيارين فيها. فلقد كشفت الصحف الألمانية في العام ١٩٦٣ أن ألمانيا قد دربت دفعات من أفراد القوة الجوية الإسرائيلية في مدينة "ريند زبرغ" بولاية "شلزويغ هولشتاين" وعندما ترك أديناور الحكم، أدلى بتصريح للصحيفة اليهودية العامة في ألمانيا، شكر فيه مساعدة اليهود على بناء ألمانيا الاتحادية - ولم يقل على تغلغلهم للسيطرة على اقتصادها.

(*) فلسطين والغزو التري الجديد، وزارة الثقافة والإعلام، السلسلة السياسية، (٥)، بغداد، ١٩٦٤، ص ١٠٣.

١١ . الأصول الفكرية للاستيطان اليهودي في فلسطين

إنه ليس من شيء يستطيع أن يبقى الحركة الصهيونية حية وفاعلة، إلا بالإيمان الراسخ.. وإن هذا الإيمان يجب أن يتركز على فلسطين، وفلسطين وحدها، وأن أي انحراف عن فلسطين، يكون بمثابة الكفر بهذا الإيمان".

حايم وايزمان / المذكرات ٢

تحدث هرتزل كثيراً عن العرق اليهودي واختلافه وتميزه عن الأعراق الأخرى، إنهم شعب يتمتع بخصائص غير موجودة عند شعوب الأرض، وهذا واحد من الأوهام الفكرية التي غذته الصهيونية بجذورها التوراتية التي أشارت بأن اليهود شعب الله المختار، وهذه واحدة من الأساطير الإسرائيلية المؤسسة للسياسة الصهيونية، "سأعطي نسلك هذه الأرض من وادي العريش إلى النهر الكبير، نهر الفرات".

سفر التكوين ١٥ : ١٨

وهذا وعد إلهي للعبران / اليهود بمكرمة سخية لم يجز عليها شعب آخر من قبل، وهذا الوعد، هو هبة الإله لشعبه المختار، وهو وعد بالاستقرار، بعدما عانى هذا الشعب كثيراً بسبب الشتات في سيناء، بعد خروجهم مع موسى ويتناغم هذا الوعد

الإلهي مع كل الشعوب المرتحلة / الرعوية بحيث يصير الحضور / والاستقرار حلاً له. وقد عرفت كل شعوب العالم هذه المرحلة الحضارية^(*) وهذا الوعد المقدم للعبران لا من أجل الغزو والاستيطان وطرد الشعب المستقر.

ولهذا أصبح هذا الوعد جزءاً من التراث الديني والقصصي لدى عدد من القبائل والشعوب، كما قال جارودي. كما لم يكن هذا الوعد السخي منطوياً على طرد شعب كامل وإنما دعوة للاستقرار، وأضاف جارودي بأن هذا الوعد لم يكن وعداً يهويماً وإنما قطعة الإله الكنعاني "إيل" في واحدة من تجلياته - وكما قال جارودي - فإن الإله المحلي وحده الذي يملك الملك وهو القادر على التصرف بها.

والوعد "البدوي"^(**) الذي يهدف إلى توطين قبيلة من الرعاة لتوفير الاستقرار لهم، يرجع إلى فترة مبكرة، فإن الأمر مختلف بالنسبة للوعد الأوسط ذي الأبعاد "القومية" إذ أن قبائل الإسرائيليين لم تتوحد إلا بعد قدومها إلى فلسطين، ومن ثم فإن إعادة تفسير الوعد ليصبح وعداً بالسيادة السياسية لم تحدث إلا في فترة لاحقة، وعلى ذلك، فإن الوعد الوارد في سفر التكوين ١٥ : ١٨ - ٢١، والذي يشير إلى سيادة شعب مختار على جميع المناطق الواقعة في نهر مصر (وادي العريش) إلى النهر الكبير (الفرات) وعلى جميع الشعوب التي تسكنها، لم يكن سوى نبوءة مستوحاة من غزوات داود. كما برهنت أبحاث المفسرين على أن توسيع نطاق الوعد (الأبوي) ليصبح وعداً "قومياً" لا بد وأن يكون قد حدث قبل تدوين روايات الآباء الأوائل للمرة الأولى.

(*) للاطلاع أكثر تراجع: روجيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، دار الشروق، عمان ١٩٩٨، ص ٤٥.

(**) روجيه جارودي، سبق ذكره، ص ٤٧.

ومسن الأصول الأخرى للصهيونية، هي أسطورة الشعب المختار، الذي اختاره الإله يهوه من بين شعوب الأرض وتكفل بالدفاع عنه، وأخذ بيده في خرافة خروج لا مثيل لها و تكفل بالدفاع عنه وأخذ بيده في خرافة خروج لا مثيل لها "ثم قل لفرعون: هذا ما يقوله الرب:

إسرائيل ابني البكر. أقول لك: أطلق ابني من مصر ليعبدي وإن رفضت أن تطلقه أقتل ابنك البكر".

سفر الخروج ٤: ٢٢ - ٢٣

وتمثل هذه الأسطورة - كما قال روجيه جارودي - في الإيمان، بدون أي سند تاريخي، بأن عقيدة التوحيد ولدت مع العهد القديم، إلا أنه يُستدل من العهد القديم نفسه، أن صاحبي المصدرين الرئيسيين لنص العهد القديم وهما المصدر اليهودي والمصدر الألوهيمي لم يكونا من الموحدين، فهما لا يتحدثان إلا عن تفوق الإله العبراني على الآلهة الأخرى، بل وغيرته ... ولم ترسخ عقيدة التوحيد إلا بعد النفي ومع الأنبياء على وجه التحديد.

ويستند الصهاينة إلى حجة دينية، شكلت مركز الإيديولوجية الصهيونية وهي النص الذي يمنح فيه الرب الأرض / كنعان لنسل إبراهيم. وأشار روجيه جارودي إلى أن التفسير هذا قائم على عزل النص عن مجموع نصوص الكتاب المقدس، وعن الإطار التاريخي، عن تصور قبلي للدين، فالواقع أن العهد قد صيغ في أيام إبراهيم وفق نموذج العلاقات الاجتماعية في كل الشرق الأوسط في ذلك الحين: إذ كانت قبيلة تتعاهد مع سيد ما تعده بالطاعة مقابل حمايته. ويختتم هذا الميثاق كما ذكر الكتاب المقدس - بذبح حيوانات التضحية. ويعد الختان رمزاً لهذا العهد.

وتفسير العهد بهذه الطريقة يعني التمسك فحسب بالجوانب الخارجية الحرفية /
البالية لنصوص الكتاب المقدس للتمييز بين المختار وغير المختارين.

إن هذا "التصلب - كما قال جارودي - من جانب المؤسسة الدينية، يترك
آثاراً سياسية خطيرة، فهو يؤدي إلى إضفاء شرعية دينية على النزعة القومية، ولقد
كانت حجج كهذه هي التي يبرر بها المسيحيون العداء للسامية، إذ يتهمون اليهود
بأنهم مسؤولون عن موت المسيح.

وتضمنت التوراة في بعض من أسفارها، معارضة مع المفهوم العرفي / أو القومي
وكذلك مع الحججة الدينية، لأنها - أي التوراة - تجاوزت هذه العقدة المميتة / والقاتلة
وتخطتها كما سنلاحظ ذلك في اثنين من أهم الأسفار التي أشرت مفهوماً مختلفاً عن
الحججة الدينية.

"وأنتم هي هذه الذرية التي أختارها من بين الشعوب كما ترون اليوم. فكرسوا
قلوبكم للرب، يا بني إسرائيل، و تعاندوا بعد الآن".

سفر التثنية ١٠ : ١٥ - ١٧

ويستكرس الخطاب الديني ويتحول أمراً ملزماً، ودعوة صريحة من أجل نظافة
القلب / ختانه، وهو تعبير مجازي واضح وهذا ما أشار له النبي أرميا. وهذه الإشارة،
تمثل ارتحالة مهمة / وجديدة في الديانة، وتكاد تكون تحولاً مهماً في اليهودية وقال
الرب لرجال يهوذا وأورشليم:

"افلحوا أرضكم غير المفلوحة ولا تزرعوا بين الأشواك. عاهدوا الرب في
قلوبكم يا رجال يهوذا وسكان أورشليم لئلا يخرج غضبي كالنار لشر أعمالكم.
فيحرق ولا من يطفى".

سفر أرميا: ٤ : ٣ - ٤

وانطوت النظرية العنصرية للصهيونية^(*) على تصور قبلي للدين ولذا فإن المطالبة (بالحقوق التاريخية) لليهود في فلسطين تستند إلى تسمية وتزييف تاريخيين: فالبلاد التي سميها الكتاب المقدس أرض كنعان، والتي سميت بفلسطين منذ أيام الرومان (أرض الفلسطينيين) تقع على الهلال الخصيب، الممتد من الفرات إلى النيل وهو موقع تاريخي عبرته وامتزجت فيه كثير من الشعوب. وحين جاءت قبائل إبراهيم في القرن الثاني عشر ق.م من أراضي أور فيما بين النهرين لتستقر في أرض كنعان فإنها لم تأت إلى صحراء مهجورة ولم تكن أول من يقطن هذه الأرض، فقد وصل إليها الآموريون قبلهم بـ ٣٠٠ سنة وجاءها الآراميون في القرن الثاني عشر ق.م وبعدهم بقليل نزل الفلسطينيون في المنطقة الساحلية. ولم يطرد داود الفلسطينيون والآراميون - نحو ألف عام ق.م - إلا عن طريق الحرب.

ثم أصبحت البلاد^(**) بعد ذلك إقليماً آشورياً في القرن الثامن ق.م وغدت فيما بعد إقليماً رومانياً / ثم فارسياً ثم عثمانياً قبل أن تنتقل إلى يد المستعمرين الإنكليز. فأى تلاعب تاريخي هذا الذي لا يذكر من كل هذا التاريخ سوى بضعة أحداث: هجرة إبراهيم من بين كل الهجرات، ومملكة داود من بين كل الممالك، وثورة المكانيين من بين كل الثورات.

لقد رفع المفكر "روجيه جارودي" صوته عالياً في كتابه المهم (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) ضد الحركة العنصرية / الصهيونية، دون المساس باليهودية باعتبارها عقيدة دينية، وهو بذلك يؤسس عزلاً بين الصهيونية كحركة عنصرية وبين اليهودية كدين لا علاقة له بالتمايز العرقي بين الأفراد والشعوب.

(*) روجيه جارودي، مجلة آفاق عربية، بق ذكره، ص ٢٣.

(**) روجيه جارودي، آفاق عربية، سبق ذكره، ص ٢٣.

وبسبب الموقف الفكري الواضح والصريح، تعرض روجيه جارودي لحملة ظلمة من قبل الحركة الصهيونية ومعروفة لنا تفاصيل ما حدث للمفكر جارودي بسبب اتهامه بالعداء للسامية.

وللمفكر إسحق دوتشور رأي آخر، يندفع باتجاه مختلف ومتعارض مع الصهيونية / العرقية ويمثل رأيه شيئاً متبايناً مع كونه يعتنق اليهودية "وأعتقد أنه لا يمكن^(*) تبرير بحث اليهودي عن هويته إلا في حالة واحدة فقط ألا وهي حالة ما إذا كان ذلك البحث سيساعده في نضاله من أجل مستقبل أفضل للبشرية جمعاء.

ولهذا توصل روجيه جارودي إلى توصيف، تشكل معتمداً على الأصول الأولى في الخطاب الصهيوني، استعارها ودفع بها، ضارباً الصهيونية / بعنصريتها المعروفة وقال:

١. العنصرية مذهب سياسي:

ومنذ ١٨٩٦، أصبح مصطلح الصهيونية مرادفاً للحركة السياسية التي أسسها ثويدر هرتزل

المصدر: موسوعة الصهيونية وإسرائيل، دار هرتزل لنشر، نيويورك ١٩٧١، المجلد ٢، ص ١٢٦٢.

(*) إسحق دوتشور، اليهودي اللايهودي، ت: ماهر كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧١، ص

٢. وهي مذهب قومي:

لم يولد من رحم الديانة اليهودية، بل من التزعة القومية الأوروبية في القرن التاسع عشر. لم يكن مؤسسة الصهيونية / السياسية هرتزل يعترف بالمرجعية الدينية "إني لا أخضع لأي وازع ديني".

المصدر: ثيودر هرتزل، اليوميات، ١٩٥٨.

"أنا غنوصي"

و لم يكن محور اهتمامه هو الأرض المقدسة، على وجه الخصوص فقد كان يقبل أيضاً، من أجل أهدافه القومية، أوغندا أو طرابلس، أو قبرص / وأو الأرجنتين، أو موزمبيق / أو الكونغو.

المصدر: هرتزل / اليوميات

ولكنه إزاء معارضة أصدقائه من المتدينين اليهود، أصبح يعين أهمية / الأسطورة الجبارة / على حد تعبيره والتي تشكل صيحة حشد ذات سطوة لا تقاوم.

المصدر: هرتزل، دولة اليهود، ص ٤٥.

وهذا شعار تعبوي، لم يكن بوسع أي سياسة على درجة عالية من الواقعية أن تغض الطرف عنه. وكان هرتزل هو نفسه الذي أعلنه بشكل صريح، محولاً، أسطورة جبارة) هي أسطورة "العودة" إلى واقع تاريخي، "إن فلسطين هي وطننا التاريخي الذي لا يُنسى.. وسوف يصبح هذا الاسم وحده صيحة الحشد الجبارة لشعبنا.

المصدر: هرتزل، دولة اليهود ص ٢٠٩.

"إن المسألة اليهودية لا تعني بالنسبة لي مسألة اجتماعية، أو مسألة دينية... إنها مسألة قومية".

٣. وهي ثالثاً مذهب استعماري:

وهنا لا يخفي ثيودور هرتزل، الواعي تماماً حقيقة أهدافه. فالمرحلة الأولى بالنسبة له هي تأسيس شركة ذات امتيازات "تحت حماية إنجلترا أو أية قوة أخرى، وذلك لحين تحويلها إلى دولة يهودية.

مذهب سياسي / وقومي / واستعماري: هذه هي الخصائص الثلاثة التي تحدد طبيعة الصهيونية السياسية، التي تحقّق لخال النصر في مؤتمر "بازل" الذي عُقد في أغسطس / آب ١٨٩٧، وهو ما أتاح لمؤسسها العبري الميكيايلي "ثيودور هرتزل" أن يعلن عن حق في ختام هذا المؤتمر "لقد أسّست الدولة اليهودية.

هرتزل: اليوميات، ص ٢٢٤.

نقلاً عن: روجيه جارودي / الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ص ٢٤ -

٢٦.

ويوحد جاره دي بين الماضي / والحاضر، بين يشوع بن نون وبين مناحيم بيغن ومنظمة "أرجون" التي مارست فعل الإبادة لسكان قرية دير ياسين يوم ٩/٤/١٩٤٨ حتى بلغ عدد الرجال / والنساء / والأطفال الذين راحوا ضحية لمنظمة "أرجون" ٢٥٤ فرداً وذلك لإثارة الخوف والرعب في نفوس العرب، من أجل إخلاء بيوتهم ومغادرة قراهم. وهم بذلك يمارسون فعل القتل تماماً مع ماضيهم / وتاريخهم الأول، يوم اجتاحت يشوع أريحا. ويطرح جارودي السؤال التالي:

ألم يكن صوت يشوع هو نفسه صوت موسى ديان، الذي قال: "إذا كنا نملك التوراة، ونعتبر أنفسنا شعب التوراة، فمن الواجب علينا أن نمتلك جميع الأراضي المنصوص عليها في التوراة.

وقد أصبحت نزعة^(*) "التطهير العرقي" هذه فجاً ثابتاً لدولة إسرائيل الحالية، وهي تستمد أصولها من مقولة النقاء العرقي التي تحرم اختلاط الدم اليهودي "بالدم النجس" لدى كل الأجناس الأخرى. ففي السطور التي تلي أمر الرب إلى موسى بإبادة سكان البلاد التي يستولي عليها" يوصي الرب موسى ألا يتزوج بنو قومه من بنات الشعوب التي تقطن هذه البلاد: سفر الخروج ٣٤: ١٥، ١٦.

وينص سفر التثنية على أنه لا ينبغي للشعب "المختار" أن يختلط بالشعوب الأخرى:

ولا تصاهروهم، فلا تزوجوا بناتكم من أبنائهم ولا أبناءكم من بناتهم".

التثنية ٧: ٣

وهذا الفصل العنصري هو السبيل الوحيد للحيولة دون تدنيس الجنس الذي اختاره الله، والعقيدة التي تربط هذا الجنس بالإله. وكتب الحاخام كوهين قائلاً: يمكن تقسيم سكان العالم إلى قسمين، إسرائيل من جهة والأمم الأخرى مجتمعة من جهة أخرى. فإسرائيل هي الشعب المختار وهذه عقيدة أساسية.

وتتضح العقدة العرقية أكثر وتبدى بوضوح بكلام عزرا بعد العودة عندما قال:

"فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم واطلبوا مرضاته، وانفصلوا عن أمم الأرض وعن النساء الغريبات فأجابت الجماعة كلها بصوت عظيم: سنفعل ما طلباتنا به".

سفر عزرا: ١٠ - ١١ - ١٢

(*) روجيه جارودي، سبق ذكره، ص ٧٤.

أما نحيميا فقال: طهرتم من كل غريب.

٣٠ : ١٣

إن هذا الهلع المرضي من الاختلاط، والرفض للآخر^(*) يتجاوزان حدود البعد العرقي. فرفض الاختلاط بدم الآخر من خلال الزواج المختلط يعني رفض دينه وثقافته وطريقته في الحياة. ذلك لأن الإله يهوه يشتعل غضباً من أولئك الذين يجيدون عن شريعته، وهي الشريعة الوحيدة.

ويلاحظ "حايم كوهين" الذي كان أحد قضاة المحكمة العليا الإسرائيلية، أنه "من مفارقات القدر المريرة، أن تكون الدعاوى البيولوجية / والعرقية التي روجها النازيون، والتي استلهمتها قوانين نورمبرغ المشينة، هي نفسها التي تشكل أساس تعريف اليهودي داخل الدولة الإسرائيلية. وقد أقرت القوانين العرقية^(**) أثناء مؤتمر الحزب في نورمبرغ عام ١٩٣٥. ووجهت مهمة العرقية إلى عالم الأجناس "جوليوس سترائشر فقال:

نعم شاركت في هذا العمل، على اعتبار أنني ظللت أكتب على مدى عدة سنوات عن ضرورة منع اختلاط الدم الألماني بالدم اليهودي منعاً باتاً في المستقبل. وقد كتبت عدداً من المقالات حول هذا الموضوع، وذكرت مراراً وتكراراً أنه ينبغي علينا أن نتخذ الجنس اليهودي، أو الشعب اليهودي نموذجاً لنا. ويتعين على كل الأجناس الأخرى أن تتخذ من اليهود نموذجاً يحتذى، لأنهم ألزموا أنفسهم بشريعة عرقية، هي موسى التي تقول متى دخلت أرضاً غريبة فلا تصاهر الغرباء. التنية ٧ : ١ - ٣

(*) روجيه جارودي، سبق ذكره، ص ٧٦.

(**) روجيه جارودي، سبق ذكره، ص ٧٧.

وورد نص واضح في قوانين نورمبرغ^(*)

بناء على رغبة الفوهر فإن قوانين نورمبرغ لا تعني في حقيقة الأمر فرض إجراءات ضد نشر مشاعر الكراهية العنصرية وزيادة حدتها، بل إنها على العكس من ذلك تؤذن ببداية نوع من الهدوء والاستقرار في العلاقات بين الشعب اليهودي والشعب الألماني... إن استشهاد اليهود لا يقارن بأي استشهاد آخر، فطبيعته المقدسة تجعله جزءاً لا يتجزأ من مشيئة الله وإيداناً بعهد جديد، شأنه شأن صلب يسوع في الفكر الديني المسيحي. ولهذا أعلن الحاخامات. (إن إنشاء دولة إسرائيل هو الرد الإلهي على الهولوكوست) ولكي يغدو هذا الطابع للهولوكوست مبرراً، فمن الضروري أن تكون هناك إبادة كاملة، وخطوة سرية محكمة التنفيذ لعمليات الإعدام ثم حرق الجثث ولا بد للحل النهائي من إبادة.. إلا أنه لا يوجد أي نص يثبت أن النازيين كانوا يعنون بـ(الحل النهائي) للمسألة اليهودية إبادة اليهود.

(*) روجيه جارودي، سبق ذكره، ص ٧٨ - ٢٠٨.

١٢. جذور الاستيطان اليهودي

صار واضحاً للقارئ بأن الذي حصل في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية له أهداف سياسية بالغة الأهمية والدقة وهدفها الأول والأخير، تشكيل وصياغة الرأي العام العالمي أو على الأقل الأوروبي من أجل اليهود وإنقاذهم، لأنهم كثيراً ما تعرضوا للاضطهاد، ولقد حان الوقت من أجل تحديد وطن لهم يجمعهم ويخلصهم من الشتات في العالم، ويعددهم عن الاضطهاد والمجازر، والتي آخرها تلك التي حصلت في الحرب العالمية الثانية، والتي - أيضاً - ساهم الإعلام بصياغتها كأسطورة، مبالغ فيها، وقد حاولنا تقديم صورة لها وبدرجة مقاربة لما حصل في الغرب. وهذا كله ما كان أن يكون، لولا الجذور الأولى التي صاغت حلم الصهيونية بوطن لليهود وسنقدم في هذا المبحث وصفاً للجذور الأولى التي وضعت أسس الحلم الصهيوني وتحديد المكان الذي سيكون وطناً لهم. كما ستكشف لنا هذه المعلومات تاريخية المخطط، واشتغال المؤسسة الصهيونية على الوطن اليهودي.

لقد عملت أغلب التجمعات اليهودية^(*) باتجاه تهجير اليهود إلى فلسطين على الرغم من أنها لم تكن ذات برنامج واضح فمنهم من كانت فلسطين بالنسبة له كأي مكان آخر يمكن توجيه الهجرة إليه، ومنهم من كان هدفه لا يتجاوز تحسين أوضاع الطائفة اليهودية في فلسطين. إلى جانب هذا يجب أن نذكر أيضاً موقف مجموعات دينية كبيرة لمواجهة مشاريع الهجر والاستيطان هذه. حيث كانت تعتقد بأن العودة إلى فلسطين وإعادة تشييد الهيكل، أمور مرهونة بظهور المسيح، وأن عملية تحرير اليهود شيء لا يمكن أن يتم بجهد بشري. وعلى سبيل المثال عن هذه^(**) المجموعات، يمكننا ذكر تجمع "الحولكاه" "الصدقة" والتي استطاعت إفشال مشروع جمعية "يهودا الكلعي" المذكورة سابقاً، وكانت حجتها في الوقوف بوجه حركات الاستيطان، أن العمل في الأرض - وهو هدف هذا البرامج - بصرف اهتمام شعب إسرائيل عن دراسة التوراة التي يجب أن تكون في طليعة كل اهتمام. ولقد كانت أفكار من هذا النوع تسيطر على قسم كبير من اليهود المقيمين في فلسطين.

هكذا كان الوضع بشكل عام بالنسبة للطائفة اليهودية في فلسطين قبل وصول طلائع الهجرة الصهيونية الأولى. المستوطنة الوحيدة التي تستحق أن نطلق عليها هذا الاسم كانت قد هُجرت والطائفة اليهودية استمرت كما كانت بارزة التواجد في بعض المدن محدودة الأثر والفعالية.

لقد ظهرت بوادر العداء للسامية في أوروبا مع صعود الرأسمالية، واشتداد المزاحمة والتنافس الاقتصادي، لتتحول فيما بعد إلى حركة سياسية ذات إيديولوجية

(*) نعمان كنفاي، الاستيطان اليهودي في فلسطين قبل مؤتمر بازل - ١٨٩٧، مجلة آفاق عربية، العدد (٣)، ت:

١٩٧٥.

(**) نعمان كنفاي، سبق ذكر، ص ١١.

عرقية وأحزاب سياسية تدين لها بالولاء ضمن هذا الجوّ، ويظلّ الفشل الذي كانت حركة (المسكلاه) - التنوير اليهودي - تعانیه وهي الحركة التي كانت التجمعات اليهودية تلقاه في أوروبا الشرقية / وروسيا القيصرية بشكل خاص، ولدت البذرة^(*) الصهيونية، ولاقت الأرض الخصبة والملائمة لنموها وازدهارها.

إن الظرف التاريخي الدقيق الذي ظهرت في كتابات النظرين والرواد الأوائل للفكرة القومية / اليهودية، - والتي ربما هي بذاتها كانت نتاجاً لهذا الظرف الدقيق - والذي ترافق مع الفشل بتحقيق الاندماج - سواء الفشل اليهودي عبر تنظيمات "المسكلاه" أو الفشل الأوروبي عبر مبادئ المجتمع الليبرالي - فتح الباب على مصراعيه لمفكري وإيديولوجي الاختيار الثاني للوصول إلى الجماهير اليهودية العريضة. وهكذا لم يكن من المستغرب أن يأتي التنفيذ العملي لمحمل الآراء النظرية دون وجود فارق زمني كبير بينهم. أي أن توفر الظروف الذاتية / والموضوعية (اللاسامية من جهة والمواقف الاستعمارية من جهة أخرى من أجل المشروع الصهيوني، هو الذي جعل الفترة بين مناداة المفكرين بضرورة البحث عن أرض للشعب اليهودي وتحديد هذه الأرض بفلسطين - على درجات متفاوتة بالدقة - وبين بدء التنفيذ العملي للمشروع فترة صغيرة جداً نسبياً.

وأبرز الكتاب اليهود الرواد الذين قدموا آراء نظرية هم:^(**)

(*) نعمان كفاف، سبق ذكره، ص ١١.

(**) نعمان كفاف، سبق ذكره، ص ١١.

هيرش كاليشر: ١٧٩٥ - ١٨٧٤

وأهم كتبه "البحث عن صهيون" أصدره عام ١٨٦٢ وكان موجهاً بالأساس ضد فكرة اندماج اليهود في المجتمعات القائمة، ولصالح أهمية الاحتفاظ بالمقومات الخاصة لليهود في كل مكان، وهي المقومات التي تؤهل اليهود، كي يكونوا شعباً واحداً يحمل سمات قومية واحدة، لا ينقصها إلا الأرض حتى تتكامل.

موس هس: ١٨١٢ - ١٨٧٥:

وهو من أبرز مفكري تلك المرحلة، وقام بنشر كتابه الشهير "روما والقدس" في نفس العام الذي نشر فيه "كاليشر" كتابه. ولقد اقترح إنشاء دولة يهودية بفلسطين تقوم على أسس / اقتصادية / شيوعية. وكان يتوقع الدعم من فرنسا لأنها كانت تسيطر في شق قناة السويس. وتعطينا حياة وتطور أفكار "موس هس" نموذجاً للتحويل. من ثم ترك اليهودية وعمل مع كارل ماركس بالحركة الاشتراكية. ولكن تغيرات تدريجية طرأت على موقفه، ما لبث أن أعرض عن الماركسية باتجاه مثالية يهودية مغرقة بالتطرف. وأصدر كتابه المذكور "اليهود شعب يصنع التاريخ" وهم مدعوون مصيرياً لتحويل العالم، أما السبب فيرجع إلى كون اليهود دون سواهم قد حققوا في حياتهم القومية الذاتية، مبدأ الوحدة بين الدائرتين الروحية / والمادية. وكي يتسنى لليهود أن يحققوا هذه الرسالة، وجب أن يغيروا بناء حياتهم القومية بفلسطين، فيكتشفوا أنفسهم من جديد كشعب. وأضاف "موس هس":

أية دولة أوروبية ستعارض اليوم مشروع اليهود المتحددين لشراء أرض أجدادهم ثانية؟ من سيعارض اليهود لو ألقوا بحفنة من الذهب إلى تركيا المتهافتة وقالوا لها: ردي إلينا أرضنا؟

آري غوردون: ١٨٥٦ - ١٩٢٢:

ومن قبله أبوه، دافيد غوردون ١٨٢١ - ١٨٨٦ والأول هو الذي وضع أساس ما سمي فيما بعد "بدين العمل" وهي دعوة للتجدد اليهودي عن طريق العمل في أرض إسرائيل، وبالتحديد العمل اليدوي / والزراعي / والتخلي عن الأعمال اليهودية التقليدية. وكان آري يعتبر العمل بالأرض والارتباط ببقعة ثابتة من أهم مقومات النجاح لتأسيس الكيان القومي:

"... كل ما نريد تحقيقه في فلسطين هو القيام بأيدينا بجميع الأعمال، والمهن والوظائف انطلاقاً من المهن السهلة المحترمة وحتى المهن المحترقة والصعبة، يجب أن نتذوق ما يشعر به العامل. ونفكر كما يفكر، فهذا العامل هو الذي سيهنا الحياة.

آشر غزبرغ: ١٨٥٦ - ١٩٢٧:

واسمه العلمي الأكثر شهرة "أحد هاعام" - أي واحد من الناس - وهو الذي اعتبر فلسطين بمثابة "المفتاح الرمزي لمستقبل يهودي تسوده قيم جديدة ويخالطه إحساس جدير برسالة اليهود".

وكان يعتقد بأنه "لا بد من وجود أمة واحدة تؤهلها خصائصها المتأصلة على نحو أفضل، مما تؤهل غيرها للتطور الأخلاقي... ولقد تزعم - فيما بعد - فرعاً من ثلاثة فروع للصهيونية، وهو فرع "الصهيونية الثقافية" أو "الصهيونية الروحية" والتي اشتهرت باعتدالها وحساسيتها الأخلاقية تجاه عرب فلسطين "يا إلهي.. هل هذه هي غايتنا؟ تقتيل العرب الأبرياء، هل هكذا يتحقق حلم العودة إلى صهيون؟ أن نصبغ ثراها بالدم الزكي البريء. إذا كان هذا توطئة لمجيء المسيح فإنني لا أود أن أراه".

ليونيسكر: ١٨٢١ - ١٨٩١:

إنه من أهم منظري الصهيونية، وتأتي أهميته في تاريخ المشروع الصهيوني من

عاملين:

أولهما: إن كتابه الشهير (التحرر الذاتي) الذي أصدره عام ١٨٨٢ ووضع فيه تصورات عن أهمية وضرورة الكيان القومي وكان في الواقع برنامجاً نظرياً للحركة الصهيونية حتى فيما بعد مؤتمر "بازل" وقال "هرتزل" عن هذا الكتاب: لو قرأت كتاب التحرر الذاتي من قبل، لما كان هناك داع لتأليف كتابي "الدولة اليهودية".

وثانيهما: عقب إصدار هذا الكراس وبتأثيره، بدأت تشكل طلائع المنظمات الصهيونية، التي تبني البرنامج الذي وضعه "نيسكر" وبدأت تعمل في سبيل تحقيقه عملياً. مبدئياً يجب أن نلاحظ بأن "نيسكر" لم يصنع فكرة الوجود القومي / اليهودي، على أساس الأرض الفلسطينية، وعلى الأقل لم يحدد فلسطين كمكان وحيد وضروري لتكامل الشعب اليهودي، بل إن اهتمامه كان منصباً على التركيز بأن تحرر اليهود يكمن في وجود دولة يهودية مستقلة سياسياً، دون أن يحدد مكاناً لها.

ونقاط التشابه في الحقيقة بين هرتزل وبنسكر أكثر من أن تحصى. إذ أن هرتزل لم يكن في البداية يؤكد على أن فلسطين هي المكان الوحيد لتلك الدولة، ومشاريعه في أوغندا وصحراء سيناء تؤكد ذلك، إضافة إلى التشابه الكبير في آرائهم حول البسيكولوجية، البشرية. يقول هرتزل:

توصلت إلى اتخاذ موقف أكثر انفتاحاً من اللاسامية، فبدأت تفهمها تاريخياً وأغفر لها، ولقد أدركت قبل كل شيء عقم ولا جدوى المحاولة الرامية إلى مجاقتها.

نعود إلى "نيسكر" لنرى السلوك المتوجب على العالم، وعلى الأقلية ذاتها أن تسلكه كي تحرر نفسها بنفسها:

"امنحونا سعادة الاستقلال، واسمحوا لنا بأن نكون سادة مصيرنا الوحيدين، اعطنا رقعة صغيرة من الأرض، وامنحونا ما منحتم العرب والرومانيين، حسنة الوجود القومي الحر، ثم تجرأوا بعد ذلك على إصدار حكم يستهين بنا... أو تعيرنا بانعدام الرجال العباقرة فيما بيننا".

طلما أن اليهود^(*) يعتبرون أنفسهم أصحاب "الكتاب المقدس" وأنهم من ثم "شعب الكتاب المقدس" فإن عليهم بالمثل أن يمتلكوا "أرض الكتاب المقدس" أرض فلسطين بوصفها "إقطاعية من الرب، اقتطعها لهم يهوه... وقد كان لهذا الأمر أثره البالغ فيما ظهر أثناء مؤتمر (بال) من اتجاهات وما اتخذته من قرارات بخصوص الاتفاق على إنهاء الخلافات بين الأطراف المعنية.

واعتبار فلسطين، البلاد الذي يجب أن يتجهوا إلى التوطن فيه، كذلك فيما قام من تحالف بين الصهيونية وبريطانيا منذ ذلك الوقت. ويعزو الدكتور أميل توما، ذلك إلى "نشوء ظروف تساوقت فيها مصلحة الإمبريالية / البريطانية / والصهيونية. وقد عبر هذا عن نفسه فيما بعد بإعلان وعد بلفور عام ١٩٢٧.

وقد جاءت الهجرات مطابقة لما رسمه هرتزل. حيث هاجرت في البداية الأيدي العاملة^(**) في حين لم يهاجر من بورجوازي اليهود وكبار طبقة الاحتكاريين، سوى رؤوس أموالهم. وقد حدد هذا الوضع منذ البداية، البنية الطبقيّة للتجمع الاستيطاني،

(*) هادي طعمة، العصرية الصهيونية - الإيديولوجية والتكوين الاستيطاني، آفاق عربية، العدد (٦)، ١٩٧٨، ص

(**) هادي طعمة، سبق ذكره، ص ٧٧.

وهي التي ستوضح معالم صورتها مع مرور الوقت وازدياد المهاجرين، والاقتراب من موعد الإعلان عن الدولة الإسرائيلية.

قامت هذه الهجرات على أساس أن هناك "شعباً" دون أرض، هو الشعب اليهودي، وأن هناك أرضاً - فلسطين - دون شعب" وقد ظل هذا المنطق العنصري سائداً منذ هرتزل، وردده كثيراً قادة الصهيونية الآخرون، وعلى أساس من روحه العنصرية تنبع الروح الاستيطانية للصهيونية، التي تتسم بنفي حقوق، وثقافة الغير، ووجود الغير".

وقد ظلت هذه الأفكار^(*) هي الدافع لكل الممارسات العنصرية ضد عرب فلسطين، فإن أبرز التيارات التي عبرت عن هذه العنصرية الاستيطانية التي صاغها ومارسها الصهيونيون الأوائل تمثلت في اقتحام الأرض / اقتحام العمل / اقتحام الحراسة / اقتحام الإنتاج. وعلى هذا كانت إقامة المستوطنات تتم منذ البداية على أساس إحلال اليهود محل العرب. وكان العمل العبري على حد ما يذكره "افيري" يعني بالضرورة لا عمل عربي، وأن صاحب المزرعة اليهودي الذي يستخدم عرباً في بستان، هو "خائن للقضية".

لقد اهتم موس هس بفضيحة دمشق كثيراً وتفاصيلها اختفاء راهب مسيحي عام ١٨٤٠ وتبين أن اليهود اختطفوه واستعملوا دمه في شراهم الديني... وقد أيد تلك التهمة القنصل الفرنسي في سوريا، حيث كان كاثوليك الشرق يتمتعون بحماية دولته. وثار سكان دمشق استنكاراً للأمر، واهتز يهود العالم، وراحوا - كعادتهم - يدفعون التهمة عن أنفسهم وينكرونها، ويثيرون الرأي العالمي لإنقاذهم وقد بذل اليهودي "موش مونتفيوري" جهوداً ضخمة، وساعدته إنكلترا وفرنسا، فذهب إلى

(*) هادي طعمة، سبق ذكره، ص ٧٧.

الأستانة واستحصل فرمان سلطاني بإطلاق سراح اليهود المعتقلين وعدم إلصاق التهمة باليهود.

ولقد اهتم موس هس كثيراً بهذه الفضيحة، نادى في كتابه "روما القدس" ببناء دولة لليهود بمساعدة فرنسا.

وتعطينا حياة وتطور أفكار "موس هس" نموذجاً للتحول من موقف الاندماجية إلى الصهيونية، فلقد تأثر في شبابه بالتيارات العلمانية القوية / السائدة في ألمانيا وقتذاك.

كان لموس هس آراء خاصة بالأعراق التي يجب أن تتميز بوظائف خاصة بها، ورسالة حضارية أيضاً لا يمكن أن تكون تلك الوظيفة والرسالة لشعب أو عرق آخر في العالم. م وذلك من أجل التميز في الإنجاز والتفرد في التحقق.

وقد انتهى به إعجابُه بنفسه^(٩) واتساع دينه إلى هذا التقرير العجيب، وهو أن أهم المقامات وأعلاها في الخطة الإلهية المرسومة التي يعتبر التاريخ تنفيذاً لها وكشفاً عنها، إنما خصصت لأمتين / متضادتين: الإغريق واليهود. فالعالم في نظر الإغريق تنوع / وتعدد، وفي نظر اليهود وحدة، الإغريق يفهمون الطبيعة والحياة (كوناً) متحققاً، قائماً بذاته، واليهود يرون فيها "صيرورة" أي شيئاً يُخلق عنى الدوام / وقد بلغ الإغريق هدفهم في الحياة كالطبيعة التي يمثلونها، وانتهى دورهم، وتواروا بالتالي عن مسرح العالم، أما اليهود الذين يمثلون التاريخ، فلا يزالون في الوجود يكافحون من أجل بلوغ هدفهم، ليحققوا في إطار الحياة الاجتماعية "السبت التاريخي" أي الانسجام بين جميع القوى الاجتماعية.

(٩) عد اللطيف شرارة، الصهيونية حربمة العصر الكرى، دار انكشوف، بيروت، ١٩٦٤، ص ٩٣.

١٣ . إبادة للشعب الفلسطيني

وأمام هذا التصعيد الحاد جداً منذ النازية، وباختلاف واضح فرضته المتغيرات السياسية وتمثل بالدعوة من أجل الحياة والعيش بعيداً عن الحروب، والعمل من أجل التآخي مع العرب / وخصوصاً الفلسطينيين. من أجل صياغة تاريخ جديد. هذا كلام مقبول، انطوى عليه الحوار الطويل لشمعون بيريز، لكنه في الداخل / العميق يقدم عكس ذلك، حيث الإبادة الجماعية ما زالت مستمرة وقصف مناطق السكن وباختيار دقيق واستعادة محاولاتهم السابقة في الاغتيالات، وهذا ما أكدته انتفاضة الأقصى.

وأمام تاريخهم الطويل في الإبادة / والمجازر، نجد بيريز يقف على الضد من ذلك، ويطلق تصريحاته لنفي الإبادة الجماعية للفلسطينيين. وعلى الرغم من ذلك ومع كل محاولاته لتشويه الصور المعروفة عن العصابات الصهيونية - لم يستطع إخفاء الحقيقة الناصعة عن الذي حصل في "صبرا وشاتيلا" والذي نُفذ بعد اغتيال الرئيس اللبناني بشير الجميل في^(٩) ١٤ / ٩ / ١٩٨٢، حيث قامت القوات المسيحية بالثأر من ذلك بارتكاب مجزرة أدت إلى مقتل "٨٠٠" فلسطيني، بما فيهم النساء والأطفال. وقد

(٩) روبرت ليتل، مستقل إسرائيل، ص ٩٠.

تبين فيما بعد أن قوات الكناث مرت من خلال خطوط القوات الإسرائيلية لتصل إلى مخيمات الفلسطينيين، حتى أن الجنود الإسرائيليين كانوا متمركزين على الأسطح العالية المطلّة على المخيمين، وشاهدوا إطلاق النار، ولم يتدخلوا وقد قررت اللجنة التي شكلت فيما بعد للتحقيق بهذه الوحشية (لجنة كاهان) بأن شارون وزير الدفاع آنذاك، كان مسؤولاً بصورة شخصية عن عدم تدخله لوقف المجزرة.

ولأن الإبادة الجماعية في صبرا وشاتيلا لم تستطع إسرائيل إغماض عينيها عنها بسبب الموقف العالمي المتضامن مع الفلسطينيين واستنكار المجزرة، اضطر شمعون بيريز في حينها لتنظيم مظاهرة^(*)، استنكاراً في محاولة منه للاحتجاج على الإبادة الجماعية، التي تعيد للأذهان مجازر النازية ويجب عليه استنكارها. ولهذا قال في جوابه: إنها كانت غلطة مأساوية.. وكنا غير مرتاحين تماماً عن العلاقة التي تطورت مع اللبنانيين.

ويؤكد روبرت ليتل بأن مجازر صبرا وشاتيلا ستظل جرحاً مفتوحاً بالنسبة لإسرائيل. ويثير كلام روبرت وجواب شمعون بيريز في الذهن حواراً مع التاريخ والذاكرة. وما حصل فيه من دمارات ومجازر وحشية، لم يعرف التاريخ مثيلاً لها، اقترفتها العصابات الصهيونية بحق الشعب الفلسطيني وقد أشرنا لبعض منها، ماذا سيقول عنها بيريز في صحوة ما؟ وماذا سيقول عنها التاريخ؟ وكم هي المبالغ التي يجب أن تدفع لشعب فلسطين؟ ولكن هل بالإمكان بيع وطر لمحتل؟

هذه المجزرة الحاصلة في صبرا وشاتيلا، هي نموذج حديث لمجازر الإله اليهودي "يهوه" والذي أمر بتدمير المدن الكنعانية - وهذا ما سنحاول دراسته بالتفصيل لاحقاً - وهلاك أهلها. فلم هذا الخجل / والحياء اليهودي والذي تبدي في كلام شمعون بيريز. إن الذي حصل للفلسطينيين لن تنساه الذاكرة والتاريخ ولما يزل حياً بتفاصيله

(*) روبرت ليتل، سبق ذكره، ص ٩١.

الدقيقة والشهود ما زالوا أحياء، فكم من المجازر حدثت منذ عام ١٩٤٨ وحتى انتفاضة الأقصى؟ إنها كثيرة جداً، وهداً ولا تخجل الشخصية اليهودية من تكرار المذابح / والمجازر، لأن عناصرها الشخصية صاغت الدماء ومشاهد القتل الجماعي والتي بلورها وأكدها الإله اليهودي (يهوه) وجسدتها شخصية "يشوع بن نون" ولم يشعر اليهود بالخنجل ويقظة الضمير أبداً، لأنهم لم يعرفوا ذلك منذ لحظة اجتياحهم لمدينة أريحا بقيادة يشوع الدموي. والذي منحه الرب اليهودي تفويضاً بالاجتياح والنجاح وإفناء الكنعانيين بالكامل.

احرقوا جميع مدنها بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار.

العدد: ١٣

اقتلوا حتى بنيهم وبناتهم بالنار.

تثنية: ١٢

اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة.

العدد: ٣١٢

حين تقترب من مدينة، استدعها للصلح، فإن أجابتك، كل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالملك، بل عملت معكم حرباً، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إهلك إلى يدك فأضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كلها غنيمة تغتنيها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إهلك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً.

تثنية: ٢٠

لقد تناسى - شمعون بيريز المجازر التي ارتكبوها عبر التاريخ، ومنذ ١٩٤٨ وإلى الآن، ومنذ مجزرة دير ياسين مثلاً ولم يتذكر غير صبرا وشاتيلا.. هل الفترة الزمنية هي

السبب؟ والعمق التاريخي للمجازر الأولى ومضي فترة طويلة جداً؟ ولكن كيف استطاع شمعون بيريز تذكر المجزرة التي حدثت في بلدته - فيشينيفا - أثناء الحرب العالمية الثانية؟

إن استذكاره لمجزرة بلدته، مرتبط بالحرب العالمية الثانية، مثلما لها صلة بالمجازر النازية التي ارتكبت ضد اليهود، مجازر بشعة لا يمكن للإنسانية نسيانها، ولكن يجب أن لا تكون على حساب شعب آخر، هو الشعب الفلسطيني.

إن ذاكرة بيريز، يقظة وقادرة على التقاط أدق التفاصيل عن المجزرة، لأنها تعنيه هو، وتجسد مأساة اليهودي وملاحقته أكثر مما تعنيه قضية شعب، لم يعترف به من قبل، هو وقادة المنظمات الصهيونية حيث لم يكن هناك شعب فلسطيني، اليهود هم الأسبق إلى "الأرض المقدسة" لأن الذاكرة، كانت أرضهم منذ ألفي سنة كما قال بيريز ولهاذ كان وصفه مأساوياً لمجزرة بلدته التي هي موطن تاريخه ومكان عقيدته، لذا كان وصفه للمكان دقيقاً ومؤثراً:

"لقد أعدموا كل ما تبقى من السكان اليهود. وضعوهم في كنيس يهودي، وكان جدي على رأسهم، وأحرقوهم أحياء، ومن ثم أحرقوا البلدة برمتها. لم يبقوا على شيء. وعندما زرت "فيشينيفا" لم يبق هنا شيء ما سوى أكوام من الحجارة، والتي تشير إلى وجود قبر جماعي للسكان اليهود الذي أحرقوا حتى الموت في الكنيس.. عدت إلى المكان الذي ولدت ونشأت فيه.. عدت إلى هناك لمحاولة أن أجد شيئاً.. أعني، لم يكن هناك بيت واحد من البيوت القديمة التي كانت موجودة عندما غادرت البلدة. لقد بنوا بعض البيوت الجديدة في مكانها؟ أخيراً وجدت المكان، لأنني تذكرت أنه كان يوجد داخل بيتنا نافورة ماء لذلك ذهبت إلى هناك وأخذت وعاء وتدوقت

الماء، كان ذلك الشيء الوحيد الذي ذكرني بطفولتي. لم تتغير نكهة الماء عما كانت عليه، وما عدا ذلك، لم يكن شيء آخر من القلم".

هذه تراجيديا ظلت كامنة في ذاكرة بيريز منذ الطفولة واستعادها حية بالكامل، وحافظ على ما له وظيفة سياسية في الحاضر، وله علاقة وثيقة جداً بالهلوكوست، الذي لا يقوى أي يهودي للبقاء بدونه أو التقليل من أهميته التاريخية.

ولا يستطيع اليهودي بقاءً بدون ضجة الهولو كوست ودعايتها، لأنها توفر له الأمان والابتزاز والعطف وهذا ما يرنو إليه ويسعى الإبقاء عليه حتى الأبد. والسؤال ماذا لو استطاعت الذاكرة "البريزية" استعادة القليل جداً من المجازر التي تعرض لها الشعب الفلسطيني دفاعاً عن تاريخه وأرضه وتراثه الممتد منذ ٤٠٠٠ سنة ق.م إنه لا يقوى على ذلك. لأن التاريخ مائل إلى الآن. ولم تستطع كل الجهود اليهودية لنوصول إلى علامة واحدة ولو بسيطة جداً، تؤكد وجودهم القلم في فلسطين.

لذا لم يعثر^(٥) ولا على كتابة واحدة في فلسطين من شأنها أن تدل على وجود مملكة عبرية لليهود هناك كما قال الأستاذ هـ. د. دونت / في كتابه: مركز المدينة القديمة.

وموقف الشخصيات اليهودية المعروفة في إنكار وجود فلسطين بمعزل عن وعد الإله اليهودي (يهوه) يمثل امتداداً لموقف غربي قديم، فليس هناك أي معنى حوهرى لفلسطين بحد ذاتها، بل إنها تستعمل فقط لكونها الخلفية الأساسية لفهم التطور الديني الذي هو أساس الحضارة الغربية. في هذا السياق، لا تملك فلسطين تاريخاً خاصاً بها، وأن تاريخها هو تاريخ إسرائيل الذي هو تاريخ الغرب. وهذا العياب للتاريخ تتوافق

(٥) كيت واينلام، احتلال إسرائيل القديمة، ت: د. سحر افندي، ٨: د. فواد زكريا، عالم المعرفة، ٢٤٩، أيلول

معه فكرة غياب السكان من هذه الأرض. أما فلسطين فهي مجرد معرض للمقتنيات الدينية النادرة، أو ما يطلق عليه "سميث" متحف لتاريخ الكنيسة.

وتعكس نظرة "سميث" للحضارة الأوروبية رؤيته بأن الثقافة والتاريخ الخاصين بالشعوب الأصلية لا يتمتعان بأي أهمية في مقابل التاريخ التوراتي، وهو يرى أن الأرض ملك شرعي للقوى الغربية إذا ما قررت ذلك: ومقياس التفوق هنا هو القوة العسكرية.

إن رواية "سميث" هذه تعبير^(*) استشراقي آخر في مفهوم أوروبا لذاتها، وفي وصفه للتطور الديني للساميين وعزل الجزيرة العربية، يصرح بما يلي:

مواهبهم الوحيدة هي في الحرب وفن الكلام - وهذه الأخيرة تم صقلها بشكل متميز بسبب الطبيعة الساكنة (الصحراء) وأوقات الفراغ الطويلة فيه. إنه الجو الملائم لترعرع العرافين والشهداء والمتعصبين: تصوروا شعباً تعرض لهذه المؤثرات لآلاف السنين! أعطوا هذا الشعب عقيدة، ومن المؤكد أنه سيكون مخلصاً يؤمن بالرسول.



(*) كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، سبق ذكره، ص ٨٧.

١٤ . إسكات التاريخ الفلسطيني

من المهم أن لا ننسى^(٩) أن نبين الأصرة المتلحمة بشدة في الوعي اليهودي المعاصر، بين الهولو كوست وتأسيس إسرائيل جنة لليهود. كما لم يتم أبداً التصريح عن أن هذه الأصرة تعني طرد الفلسطينيين من منازلهم وحقوقهم، على الرغم من أنها عمقت لدى الفلسطينيين الشعور بالأسى من مأزقهم. فهم يتساءلون لماذا كُتب علينا أن ندفع ثمن ما حدث لليهود في أوروبا بفعل الإبادة المسيحية الغربية؟ لم ينبثق هذا السؤال أبداً من الجدل الدائر داخل ألمانيا أو بخصوصها، حتى وإن كان مندرجاً، بالضرورة، تحت حقائق معينة مثل المبالغ الهائلة التي تدفعها ألمانيا إلى إسرائيل لتعويضات عن الهولو كوست.

ويقود المفكر إدوارد سعيد القارئ إلى منطقة الأسطورة التي أشار لها - قبلاً - روجيه جاردوي، أسطورة المجازر وماذا قدمت لليهود من وطن مقتصب، كانوا يحلمون به ولولا الهولو كوست لما كان هناك وطن، هو الوعد الإلهي الذي منحه الإله

(٩) إدوارد سعيد، الاحتلاق والذاكرة والمكان، ت: حادة حامد، الحث عمر مستور، وساكنفي بالإشارة للمؤلف

اليهودي، يؤكد سعيد على أن^(*) الاختلاق مرتبط مع الجغرافية والذاكرة، بمعنى أن الاختلاق يحدث حتماً حيثما وجد تذكر - له صلة خاصة بمثال القرن العشرين أي: فلسطين التي تمثل نزاعاً، خصباً ومشدوداً على نحو غير مألوف، بين ذاكرتين... نوعين من الاختلاق التاريخي... نوعين من الخيال الجغرافي...

سأحاول تقريب بعض الأحداث التي لها صلة ببعض^(**). فالفلسطينيون يتذكرون عام ١٩٤٨ بوصفه عام النكبة حينما تم إقصاء ٧٥٠,٠٠٠ شخص منا كانوا يعيشون هناك - يمثلون ثلثي السكان - وسلب الممتلكات وتدمير مئات القرى.. أي نحو مجتمع بأسره. بينما ينظر الإسرائيليون والكثير من اليهود في أرجاء العالم إلى عام ١٩٩٨ بوصفه الذكرى الخمسين لاستقلال إسرائيل وتأسيسها. والقصة الإعجازية للعودة بعد الهولوكست والديمقراطية، وزرع الصحراء، وسوى ذلك. وهكذا تم إيجاد تسميتين مختلفتين تماماً لحدث مُتذكر. إلا أن ما أثار دهشتي كثيراً بشأن هذا التناقض الجذري في أصل النزاع الفلسطيني / الإسرائيلي هو أنه مستبعد عادة من الموضوعات التي تخص الذاكرة العرقية أو الجمعية، والتحليل الاجتماعي، والتأمل السياسي. ويتجلى ذلك في أقصى أشكاله في دراسات النكبة الألمانية، فضلاً عن النزاعات العرقية في يوغسلافيا السابقة ورواندا وإيرلنده وسيريلانكا وجنوب أفريقيا وأماكن أخرى.

وأشار إدوارد سعيد لمتابعته الدقيقة واهتمامه بـ "اختلاق إسرائيل القديمة - إسكات التاريخ الفلسطيني"^(***) - واهتمامه بسياسة الذاكرة الجمعية أولاً وقيام

(*) إدوارد سعيد، الاختلاق والذاكرة والمكان، سبق ذكره.

(**) إدوارد سعيد، سبق ذكره.

(***) كيث وايتلام، اختلاف إسرائيل القديمة، / ت: د. سحر الهدي، م: د. فواد زكريا، عالم المعرفة، ٢٤٩،

الدارسين والمؤرخين الصهاينة بابتداع صورة جغرافية لإسرائيل القديمة ثانياً. وهذا الجهد البحثي، أضواء عدداً من الجوانب التي تضافرت معاً مع اهتمامات المفكر إدوارد سعيد بالمكان وعلاقة ذلك بالذاكرة وما تعنيه من تراكم زمني وأحداث متتالية، شكلت عبر السنوات الطويلة مجالاً متعددًا في مختلف الجوانب السياسية / الاجتماعية / الدينية / الاقتصادية.

وما يلفت الانتباه في جهود المؤرخ الاسكتلندي للشرق الأدنى القديم / كيث وايتلام / هو سعيه لإنصاف الذاكرة التي أغفلت التاريخ الفلسطيني. وسعت عبر كل السبل والوسائل من أجل إسكات التاريخ الفلسطيني. ولذا فإنه تمتع بوعي العالم المنصف والذي لم يخف كشف الحقيقة والإعلان عن تاريخ فلسطين، المتمتع بجغرافية محددة ومعروفة وسعى من أجل - أيضاً - إيضاح حجم الهجوم الذي تعرضت له الذاكرة الفلسطينية، والجهود الصهيونية المبذولة من أجل إعادة بناء تاريخ يهودي، حتى يتلاءم وأهداف الحركة الصهيونية بوصفها حركة سياسية. ويؤكد "وايتلام"^(*) إن استعمال كلمة فلسطين أو عبارة التاريخ الفلسطيني في المجال الأكاديمي لا بد وأن يكون مثيراً للجدل. ولذلك يقول إدوارد سعيد إنه "لا يوجد حياد، لا يمكن أن يكون هناك حياد وموضوعية فيما يتعلق بفلسطين" ويدّعي خطاب الدراسات التوراتية في إعادة تكوين ماضٍ يؤثر في المواقف الإيجابية أو السلبية التي تتخذ الحاضر. أنه يظل خارج أو فوق مستوى الصراعات السياسية المعاصرة. ويصبح الأمر جلياً إذا ما تمت المقارنة بين التاريخ المحلي لفلسطين القديمة، وبين التواريخ التوراتية. أو على الأصح إذا ما وضع كل من التاريخين في منافسة الآخر.

(*) كيث وايتلام، سبق ذكره، ص ٨٣.

خطاب الدراسات التوراتية، يعلن أنه قد بقي بعيداً عن الوضع السياسي الحالي، بينما استمر في إنكار المكان والزمان على الفلسطينيين مهما طالبوا بحقهم في الماضي. وهذا الخطاب التوراتي قد أعطى الزمان - وبخاصة من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي - وكذلك المكان الجغرافي، لإسرائيل فقط. أما الكنعانيون والفلسطينيون أو أي فئة محلية أخرى من سكان البلاد الأصليين، فيمكن لها، حسب الخطاب التوراتي، أن تعيش في هذا المكان والزمان ولكن حسب الشروط التي تملئها إسرائيل فقط.

وإذا حاول الدارس متابعة^(*) وفود العناصر السامية تاريخياً على أساس الأدلة الأثرية والنصية، ليتمكن القول بأنه خلال عصور ما قبل الأسرات، وفدت مجموعات من تلك العناصر السامية إلى فلسطين، وكما سبقت الإشارة، يلاحظ تواجد العمائر المحصنة في تلك الفترة كنوع من الحماية من لدن تلك المجتمعات السامية تجاه المجموعات السامية الجديدة الوافدة عليها. وعلى الرغم من كون التسمية الكنعانية أقرب على الشمول بالنسبة لكافة العناصر السامية، فإن الرأي يتجه إلى قصر تلك التسمية الكنعانية على العناصر السامية في سوريا / لبنان / وفلسطين بصفة خاصة في الألف الثاني ق.م أي خلال المرحلة المسماة حضارياً بعصر البرونز الأوسط.

ولابد من الاستعانة بالزمن التاريخي الذي أقرته الدراسات التاريخية / الحضارية، حتى تتضح لنا الخارطة الحضارية في سوريا / لبنان / وفلسطين^(**).

■ ٢١٦٠ - ١٩٩١ ق.م عصر البرونز الأوسط (١)

(*) د. رشيد الناصوري، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في حوض عربي آسيا وشمال أفريقيا، التطور التاريخي للفكر الديني، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩، ص ١٣١.

(**) د. رشيد الناصوري، سبق ذكره، ص ١٣٢.

وهي مرحلة حضارية وبشرية.

■ ١٩٩١ - ١٧٨٦ ق.م

■ ١٧٨٦ - ١٥٥٠ ق.م عصر البرونز الأوسط (٢). أ

■ عصر البرونز الأوسط (٢) ب / ج

الهكسوس

■ عصر البرونز الأخير

■ ١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق.م

الكنعانيون والتوسعات المصرية / والحثية / ودولة ميتاني

"الحوريون - والسوبريون"

الفلسطينيون وبنو إسرائيل - الآراميون

■ عصر الحديد الأول

■ ١٢٠٠ - ٩٣٠ ق.م

ومن الناحية الأثرية يلاحظ وجود فجوة حضارية بين عصر بداية البرونز وعصر البرونز / الأوسط وتمتد من حوالي ٢٣٠٠ - ١٩٠٠ ق.م وتتميز بعمارها الخاصة. هذا الإيضاح العلمي، يساعدنا على إضاءة التاريخ وعلاقته بالجغرافيا. فإن تاريخ إسرائيل مرتبط عضوياً بالأرض ذاتها، أو بالأحرى الأراضي التي حدث فيها التاريخ. وهذا هو بالفعل ما حدث مع شعب إسرائيل في العهد القديم. وبإمكاننا أن نرى بدايات إسرائيل الأولية في شمال سوريا والعراق القديمة من جهة، وفي شمال غرب مصر من جهة أخرى، قبل أن تجد إسرائيل وطناً في فلسطين "أرض الميعاد".

لقد استولى^(*) الفلسطينيون على الساحل السوري الجنوبي والذي سمي باسمهم (فلسطين) وكان يمتد من غزة إلى جنوبي يافا ومن المدن المشهورة الأخرى التي أخذوها في هذا القسم من الساحل السوري (عسقلان) وأشدود وعقرون و"جت". وكانت الكرمل الحد الفاصل بينهم وبين الفينيقيين إلى الشمال. وكانت مدن الفلسطينيين الخمس المشهورة تؤلف دول مدن، كل منها تحت زعيم وتؤلف جميعاً فيما بينها اتحاداً، وكانت "أشدود" أشهر هذه المدن^(**) التي حازت على الزعامة واتحاد دول المدن. وقد بلغ هؤلاء الفلسطينيون في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ق.م أوج قوتهم وأوقعوا في حدود "١٠٥٠" ق.م في العبرانيين هزائم شديدة، حتى أنهم استولوا على تابوت العهد المشهور وأخذوه إلا أشدود، وظلت اليد العليا لهم على العبرانيين إلى زمن حكم أول ملك على العبرانيين وهو شاول (١٠٢٠ - ١٠٠٤ ق.م) ومن العوامل المهمة التي مكنت الفلسطينيين على العبران أسلحتهم المصنوعة من الحديد الذي أتقنوا تعدينه، وصنعوا منه الدروع والأسلحة الماضية. ولم يتعلم العبران

(*) كيث وايتلام.. سبق ذكره، ص ٩٠.

(**) طه باقر / مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ١٩٥٦، ص ٢٨٧.

صناعة الحديد إلا في عهد داود (٩٦٠ ق.م) وتمكن هذا الملك من الغلبة على الفلسطينيين وإخضاعهم.

ومن آثار عهد الفلسطينيين التي وجدت في^(*) التنقيبات الأثرية صناعة نوع من الفخار يشبه الصناعة المينية (الإيجية) وهذا من جملة الأدلة على أن أصلهم من جزر إيجة.

وتدل أسماء كثيرة في المواضع في فلسطين / ولبنان على قدم استيطان الكنعانيين في هذا الجزء من البلاد، حيث تشير أسماء مثل هذه المدن إلى أصلها الكنعاني. ومن الأمثلة على ذلك مدينة "أريحا" التي تعني "بريجو" مدينة القمر". ومدينة "بيسان" بيت - شان "أي بيت الإله شان" و"مجدو أو مجدون" وقد أبانت التحريات الأثرية أن هذه المدن، أسست في منتصف الألف الثالث ق.م. وهناك أسماء مدن سامية يرجع أصلها الكنعاني وردت في النقوش مثل عكا / صور / صيدا / وجبيل.

وأشار الأستاذ أحمد سوسة^(**) إلى أن الكنعانيين هم أقدم الأقوام الذين استقروا في أرض فلسطين وإليهم يعود تأسيس حضارة فلسطين القديمة... وترجع الحضارة الكنعانية إلى صور موعلة في القدم. فمنذ العصر الحجري الحديث أو العصر النيوليثي (٧٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق.م) بدأت هذه الحضارة تنمو وتتقدم في مجال التمدن. فكان الكنعانيون أول من اكتشف النحاس الطري، ثم اهتموا إلى الجمع بين النحاس والقصدير في إنتاج البرونز، وبذلك كانوا السباقين في استخدام صناعة التعدين مما أعطى تلك الشعوب أدوات وأسلحة فتاكة. وقد أصبح استعمال البرنز شائعاً في المدن

(*) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات، سبق ذكره، ص ٢٤١.

(**) أحمد سوسة، مفصل العرب واليهود في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠، ص ١١٢.

الكنعانية منذ أواسط الألف الثالثة ق.م وبدأت تستعمل الحديد منذ أواخر الألف الثانية ق.م.

وأشار سوسة أيضاً: وقد تبين التقدم الذي وصلته بلاد كنعان في قوائم الغنائم التي أخذها الفراعنة عند غزواتهم للشرق. ومن بين المصنوعات المعدنية الثمينة التي وردت في القوائم التي سجلها "تحتمس الثالث" أحد فراعنة السلالة الثامنة عشرة " ١٥٠٤ - ١٤٥٠ ق.م" عربات مطعمة بالذهب وأوتاد لتثبيت الخيم مطعمة بالفضة وسراير من العاج ومضاجع مطلية بالذهب وأنواع من الكؤوس والآنية والسيوف وتمائيل من الذهب ومن خشب الأبنوس.

هذه المعلومات التاريخية، تسلط ضوءاً ساطعاً على التقدم الذي وصلته بلاد كنعان من تطور وتقدم، وتدحض هذه المعلومات آراء الخطاب التوراتي، التي حاولت وبكل السبل إلغاء الدور الحضاري للكنعانيين والفلسطينيين. من أجل تبرير الهجرة اليهودية إلى فلسطين^(*) وإنشاء دولة إسرائيل. وتصوير الصهيونيين لهذه الأرض على أنها "فارغة" وهذا الرأي له ما يوازيه في العلوم التوراتية في تكوينها للماضي، الذي يتجاهل وجود شعوب محلية في مراحل عديدة من التاريخ. ومرة أخرى فإن وضع إسرائيل "الفريد" هو الذي يسمح لها بتجاوز هذه الأوضاع الشاذة. "فالتاريخ الفلسطيني ببساطة غير موجود أو غير ذي أهمية بالمقارنة مع تاريخ إسرائيل".

وقد ركزت الدراسات التوراتية على أن "إسرائيل القديمة" هي جزء من الشرق وبهذا تحولت إلى جزء من حضارة الشرق وبدون أن يكون لها دور وحتى وجود قدم. وقد تصدى المفكر إدوارد سعيد لتلك الأطروحات، ونزع عنها قشرتها الكاذبة، وكشف مضامينها الإيديولوجية.

(*) كيث وايتلام، سبق ذكره، ص ٩١.

إن رفض الدراسات التوراتية^(*) استعمال صفة واحدة لنت سكان المنطقة هو إذن إنكار للوجود وللتاريخ الفلسطيني. ولهذا فإن فلسطين توصف على أنها منطقة صغيرة وفقيرة ومعزولة - وهذه أوصاف شائعة في الدراسات التوراتية. ثم يتغير هذا الوضع وتصبح فلسطين مرموقة فقط بالوجود التاريخي لإسرائيل فيها، وعلى هذا فإن الدراسات التوراتية متورطة في تجريد الفلسطينيين من وطنهم. ولهذا مقابل سياسي معاصر تمثل في السيطرة الصهيونية على الأرض وسلب الشعب الفلسطيني من أرضه وتصويره على أنه شعب بلا تاريخ أو تجريده من هذا التاريخ. وهكذا نرى أن الخطاب التوراتي يجعل الفلسطينيين شعباً غير ذي أهمية، وفي نهاية الأمر غير موجود. هذا الافتراض المتأصل في أعمال^(**) بعض دارسي التوراة، وبخاصة الألمان والأمريكان، كان له تأثير قوي في أعمال التنقيب عن الآثار خلال هذا القرن.. الافتراض الشائع الذي مفاده أن فلسطين لم تكن مهمة في ذاتها بل لأسباب أخرى متصلة بالتوراة... وبهذا تصبح فلسطين "الأرض المقدسة" وتاريخها وتضاريسها لا قيمة لها في ذاتها، ولا تكتسب قيمتها إلا بقدر ما هي مهمة لفهم التوراة. تلك النظريات المسيطرة على الدراسات التوراتية في الغرب بحيث يصبح التاريخ الفلسطيني غير موجود. وتاريخ المنطقة ذاتها يصبح تاريخ إسرائيل القديمة، كما صورته صيغ التراث التوراتي. وهناك فريق آخر يعترف بأن تاريخ المنطقة مهم لفهم جذور الحضارات القديمة، وليس فقط لتفسير التوراة ويضيف كيث وايتلام محذراً: ولكن علينا أن نتأكد من أن كلمة "حضارة" هي اختصار لكلمة "الغرب" هذا الغرب الذي هو وريث الحضارة اليهودية / المسيحية.

(*) كيث وايتلام، سبق ذكره، ص ٩٣.

(**) كيث وايتلام، سبق ذكره، ص ٩٣.

ويعلق الأستاذ إدوارد سعيد على محاولات بعض الآثاريين الغربيين الذين أشاروا إلى سكان فلسطين الأصليين في أواخر العصر البرونزي سمة مقبولة ودائمة، شيئاً فشيئاً، "لتاريخ اليهود المزهو بالنصر"، كما يراه "ديلو ف. أولبرايت / المؤرخ البارز لفلسطين القديمة خلال القرن العشرين، كما أنه جعل بالإمكان إخراج التاريخ الفلسطيني الأصلي عندما تم استئصاله ليحل محله تاريخ الإسرائيليين الوافدين. ويرجع أولبرايت بذاكرته إلى الوراثة بعيداً إلى الحد الذي تم فيه التغاضي عن تدمير السكان الأصليين لفلسطين القديمة لصالح الشعب الأسمى، إذ يقول: انطلاقاً من المنظور النزيه المحايد لفيلسوف التاريخ، غالباً ما تبدو ضرورة أن يتلاشى شعب من نوع متدنٍ للغاية (الكنعانيون / الفلسطينيون القدماء) ليفسح المجال لشعب ذي إمكانات أسمى (الإسرائيليون) طالما أن هناك موضع لا يمكن للامتزاج العنصري تخطيه من دون حصول كوارث.

ويضيف الأستاذ إدوارد سعيد قائلاً: وفي تعبيره الذي تتجلى فيه المواقف العنصرية، يبدو هذا التصريح الصادر عن دارس يُفترض أنه موضوعي، صار بالمصادفة الشخصية الأكثر تأثيراً في الأركيولوجيا التوراتية الحديثة، تصريحاً رهيباً، إلا أنه يوحى بالكيفية التي عملت فيها الصهيونية الحديثة، ضمن رغبتها بتخطي العقبات التي في طريقها حتى إلى الحد الذي تتغاضى فيه عن تذكر التشريد والإبادة. ويلمح سعيد إلى آراء الباحث كيث وايتلام ومناقشته لآراء الكثير من الباحثين الذين أكدوا في كتاباتهم على "الدولة الكبرى والقوية / المستديمة، والتي تعزى إلى مؤسسها داود. وينقل إدوارد سعيد بعضاً من تعليقات كيث وايتلام عن هذه الدولة، التي هي في حقيقة الأمر محض اختلاق تم تصميمه ليصاحب المحاولة الصهيونية في القرن العشرين من أجل السيطرة على أرض فلسطين.

"ولقد تم بفعالية إنكار تاريخ فلسطين القدم وزمانها الخاص. بل إنه أصبح موضوعاً لطغيان الزمان التوراتي".

مراجع الباب الثالث

١. نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٢.
٢. د. القس عبدالمسيح اسطفانوس، تقدم الكتاب المقدس للقارئ العربي، دور الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، بيروت، ١٩٩٤.
٣. جودت السعد، أو هام التاريخ اليهودي، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٨.
٤. أدولف أرمان، ديانة مصر القديمة، ت: د. عبدالمنعم أبو بكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.
٥. احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٠.
٦. روبرت ليتل، مستقبل إسرائيل، حوارات مع شمعون بيريز، ت: محمد نجار، تقدم: ناجح المعموري، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان: ٢٠٠٠.
٧. يورغن غراف، المذبحة تحت المجهر، دراسة علمية لفضح أكاذيب الصهيونية، ت: د. جواد بشارة، دار المدى، دمشق، ١٩٩٥.
٨. روجيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ت: محمد هشام، دار الشروق، عمان، ١٩٩٨.
٩. د. محمد أبو سعد، الهجرة وعنصرية القوانين الإسرائيلية، ضمن كتاب: الهجرة اليهودية والمشروع الصهيوني، سلسلة الندوات رقم (٤).
- منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، رابطة الكتب الأردنيين، عمان، ١٩٩١.

١٠. وزارة الثقافة والإرشاد، السلسلة السياسية (٥) فلسطين والغزو التري الجديد، ١٩٦٤.
١١. إسحق ويتشر، اليهودي اللايهودي، ت: ماهر الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧١.
١٢. عبداللطيف شرارة، الصهيونية جريمة العصر الكبرى، دار المكشوف، بيروت، ١٩٦٤.
١٣. جودت السعد، الشخصية اليهودية عبر التاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥.
١٤. يوري إيفانوف، إحدروا الصهيونية، وكالة نوفوستي السوفيتية، ١٩٦٨.
١٥. كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، ت: د. سحر الهندي، م: د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، ٢٤٩، إيلول، ١٩٩٩.
١٦. د. رشيد الناضوري، المدخل في التحليل الموضوعي للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، التطور التاريخي للفكر الديني، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩.
١٧. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ١٩٥٦.
١٨. أحمد سوسة، مفصل العرب واليهود في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠.

19. Weech Civilization of Near East PP. 84, 88.

الصحف والمجلات:

١. غازي السعودي، المحرقة النازية، الأسطورة التي تحولت إلى منجم ذهب، جريدة الرأي الأردنية - يوم ٥/٤/٢٠٠٠.
٢. د. حازم طالب مشتاق، خرافة إبادة ستة ملايين يهودي في الحرب العالمية الثانية، مجلة آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٦.
٣. د. محمد توفيق حسين، أرنولد توينبي والصهيونية، مجلة آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٦.
٤. بديدة أمين، الحركة الصهيونية، أهي حركة قومية تعبّر عن إيديولوجية البرجوازية اليهودية، مجلة آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٥.
٥. روجيه جارودي، الذرائع الدينية والتاريخية للصهيونية، آفاق عربية، العدد (٥)، ١٩٧٧.
٦. نعمان كنفاني، الاستيطان اليهودي في فلسطين قبل مؤتمر بازل - ١٨٩٧ آفاق عربية، العدد (٣)، ١٩٧٥. برنارد وسرستين، بريطاني ويهود أوروبا ١٩٣٩ - ١٩٤٥، ت: ناجي الحيدثي، آفاق عربية، العدد (٢)، ١٩٨٨.
٧. سعيد هو، استراتيجية الكيان الصهيوني وكيف يجب مقاومتها، آفاق عربية، العدد (٢)، ١٩٨٨.
٨. دور الغرب الاستعماري في خلق القاعدة التكنولوجية العسكرية داخل الكيان الصهيوني، مركز الدراسات في آفاق عربية، العدد (١)، ١٩٧٩.

فهرس الأشكال والصور

الصفحة

الشكل

- ١٧ ١. ختم عن صراع الأبطال مع الحيوانات
- ٢٣ ٢. كاهنات الإلهة عشتار
- ٢٥ ٣. الإلهة عشتار كما تخيلها الفنان مسعدي اللبان
- ٢٥ ٤. إنكيكو
- ٢٩ ٥. ختم أسطواني وتبدو فيه الآلهة حاملة صولجاناً مع رموز أسطورية أخرى
- ٣٠ ٦. بعل من أوغاريت
- ٤٠ ٧. ختم مكون من طبقتين عن الصراع مع الحيوانات
- ٤٤ ٨. الملك آشور ناصر بال الثاني
- ٤٩ ٩. الإله شمش وبيده الحلقة المدورة وعصا القياس
- ٤٩ ١٠. ختم أسطواني من مدينة أور
- ١٤٤ ١١. ننخرسك الإلهة السومرية الأم وتدعى أيضاً ننماخ وننكال
- ١٨٠ ١٢. عشتار التي ترضع العالم
- ١٨٢ ١٣. النبي إبراهيم مغادراً أور، رافعاً عصاه

- ١٨٣ ١٤. أمير ليدي متباهياً بعصاه
- ١٨٤ ١٥. الإله أنوبيس
- ١٨٥ ١٦. الإله آمون - رع
- ١٨٧ ١٧. الإله بعل وهو يحمل الصاعقة بيده اليمنى والرمح بيده اليسرى.
- ١٨٨ ١٨. بلاد كنعان قبل ظهور قوم موسى
- ١٨٩ ١٩. الإلهة عناة ومعها رمحها وتقف على أسدها
- ١٩٠ ٢٠. هرقل يتكئ على عصاه
- ١٩١ ٢١. رمز السلطة
- ١٩٤ ٢٢. حورس على هيئة ملك
- ٢٠٩ ٢٣. ملك فارس وعصاه
- ٢١٥ ٢٤. قبر هرون - قرب البتراء
- ٢١٥ ٢٥. الإلهة عناة، إلهة الحب والحرب وزوجة الإله بعل
- ٢١٦ ٢٦. الإلهة عناة مصورة على أقراط وتبدو رموز الخصب عليها
- ٢٤٦ ٢٧. التزوير القصدي للصهيونية
- ٢٥١ ٢٨. موسى مهدداً بالألواح في سيناء - تخطيط تخيلي للفنان ثامر عبدالله
- ٢٧١ ٢٩. موسى في سيناء - تخطيط تخيلي - للفنان ثامر عبدالله
- ٣٠٥ ٣٠. يشوع بن نون، خليفة موسى

صدر للمؤلف

١. أغنية في قاع ضيق - قصص - ١٩٦٩.
٢. الشمس في الجهة اليسرى - قصص مشتركة - بغداد.
٣. النهر - رواية - وزارة الثقافة / بغداد.
٤. موسى وأساطير الشرق - الدار الأهلية - عمان ٢٠٠١.
٥. الأسطورة والتوراة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ٢٠٠٢.
٦. التوراة وطقوس الجنس المقدس - دار الأهالي - دمشق ٢٠٠٢.
٧. أقنعة التوراة - الدار الأهلية - عمان ٢٠٠٢.

التوراة السياسية

السلطة اليهودية: أساقها ووظائفها

إن دراستي للأسفار التوراتية ومحاولة الكشف عن الجانب السياسي فيها يمثل بالنسبة لي مشروعاً معرفياً مهماً وسيظل مستقبلياً. والمجال السياسي، الذي تعنيه دراستي متسع جداً، ويبدأ في النصوص العراقية/والجزرية الأخرى وذوبانها في الأسفار التوراتية. لأن القصدية، واضحة في تذويب العناصر الدينية/والآلهة والعقائد/والطقوس. من أجل الشطب على الشخصية الجزرية، التي أنتجت هذا الكم الهائل من النصوص، ورسخت الكثير من العقائد، ودفعت بها إلى الديانات والحضارات الكثيرة في الشرق والعالم. لأن البنية الذهنية الجزرية وعبر تشكيلاتها البنيوية العديدة، ما كانت في يوم من الأيام منغلقة وإنما منفتحة على الحضارات والجهد الديني، وتجاوزت معه، أعطته، وأخذت منه، لكن لا يمكن لأي باحث ودارس أن يتناسى الجهد المؤسس والجذور الأولى.

لكننا لاحظنا العمدية التوراتية في التلاعب بالتراث المصري/السوري/العراقي وإعادة صياغته، وبما يوحي بخاصته وقطيعة مع الأصول في الشرق. ومع كل الذي مارسه الكهان ورجال الدين/والكتبة من محاولات طمس للمعالم والأصول. ظلت النصوص توميء لمنبعها وتؤشر إلى المكان الذي صاغها وأسسها.

ولهذا، طال انشغالي بالنصوص التوراتية، وسيظل أيضاً، على الرغم من المواجهات السلفية التي أثارت عدداً من الاتهامات ضدي، أثناء تقديم محاضراتي عن المشروع التوراتي. المشروع الذي تبلور في عملي الدراسي، بعد الاهتمام العميق بالحضارة العراقية والنصوص الأسطورية، وحصراً مشروعاً ثقافياً/المعرفي «المسكوت عنه في ملحمة جلجامش»، وكان وسيظل اهتمامي بالتوراة اهتماماً لا يتجاوز كونها مجموعة من النصوص الأدبية الأسطورية، لا تختلف عن غيرها من النصوص التي خضعت للدراسة والبحث، بعيداً، وبعيداً، عن كونها مقدسة.

مكتبة

الكتابية
للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨١٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ • منشوراتنا في العام ٢٠٠٢م
♦ الغلاف: زهير أبو شايب، س.ب. ٥

Bibliotheca Alexandrina



0706522